@ketab_n
Follow Me
14.9.2014

كرم ملحم كرم

صقر قريش

@ketab_n
Follow Me

منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت

كرم ملحم كرم

صقر قريش

قصة وتاريخ

Twitter: @ketab_n

طبعة ثانيـــة ١٩٦٠

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الجزء الأول

اخت كربلاء

١

– هذا رأس عدوك الطاغية ، يا امير المؤمنين !

وكالايماضة الخـــاطفة استلت يد المتكلم من جراب اغبر ، منفوخ ، رأساً مضروب العنق ، ناضب الدم ، اصفر ، وعرضته بزهو ودل على الخليفة الاموي هشام بن عبد الملك . فسدد هشام عينين شائكتين الى الرأس الابتر ، تقبض عليه بعزم واعتداد يمين مخاطبه . وما تماسك ان قال بغبطة اتسعت لها عيناه : رأس من ؟... رأس زيد بن علي ؟

– هو هو ، يا امير المؤمنين . احتزه عاملك على العراق يوسف بن عمر الثقفي ونبذني به اليك . ولقد طويت الفدافد على سنام بعيري ، لا أنام الليل كي أبلغ دارك في الرصافة قبل ان يعبث النتن بالرأس المقطوع . صان الله امير المؤمنين من كل نكبة ، وادام ملكه نصرة للحق ، وتأديباً للمنافقين !

ولئن انتشرت في الرأس صفرة الموت ، لم يبرح في قسماته على جلال . تتوقد

Twitter: @ketab_n

فيه القوة ، ويرعف انفه بالنبل ... ومع اغماض عينيه على نومتهما الساجية ، كان يتراءى منه أنه ينذر باليقظة . فارتاع هشام ، وقد خيل اليه انه يبصر بالشفتين تتحركان ، وتكادان تنطقان . وصاح بمن تدلى الرأس في يمينه : والجثمان ؟... ماذا فعلتم بالجثمان ؟

فكأنه خشي ان يعود زيد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب إلى الحياة مع دق عنقه . فأجاب الرسول وقد ادرك مرمى الخليفة القلِق : أنزلناه حفرة تتبطن احشاء التراب ، يا امير المؤمنين ، فلا تنسل اليها العيون ، ولا تعرض في الخواطر . فلا منفذ اليها لسوى الدود النهيم !

فاحتدم هشام واعلن برهبة لا نأت عنها الصولة: ألا انبشوا الحفرة واخلعوا منها الأفاك واصلبوه عرياناً . فمن تجرأ على الانتفاض علينـــا يجب ان نمثل فيه بفلاظة عبرة لسواه من المفسدين . وعندمـــا يجف عوده احرقوه وانثروا رماده في متناوح الرياح . فلست اطيق ان يبقى للفيـــاش ، المكابر في رعونة ، أثر يدل عليه !

فهو يريد الخلاص من شبح ابن علي المخوف ، ممن يمثل الدعوة الهاشمية وتجري في عروقه دم النبي العربي الامين . قـــال وهو يرتعش بهجة وشماتة : وكيف ظفرتم به ؟... هات . اطلعني على الخبر اليقين !

واستوى الخليفة البدين ، الوسيم ، المشرق البياض ، الأحول ، على بعض الطمأنينة في مقعده الوثير . وارهف اذنيه لالتقاط كلمات محدثه حرفاً حرفاً . قال الرسول يقص حكاية زيد بن علي ، وقد ألقى الرأس الى طبق امام الخليفة المرهف السمع !

– اعتصم زيد بالكوفة بعـــد اختصامه وأمير المؤمنين ، زاد الله في بسطة دولته وايامه . وفي الكوفة نادى : « يا لثارات الهاشميـــين ! » . فنصره الكوفيون ، كما نصروا جده الحسين وأبا جده علياً . ومـــا أحسوا منه بلوهن حتى مالوا عنه ، شأنهم في علي والحسن والحسين . فتراجع زيد الى خراسان

Twitter: @ketab_n

وظل يقاتل . وانطلق عاملك على العراق ، يا امـــير المؤمنين ، يوسف بن عمر الثقفي ، يهدم من عزيمة المناوىء المفلول الغرب . ولم يكن هذا المناوىء بالجبان النكس . فاني لأشهد بضاء ساعده ، مع نقمتي على عصيـانه . ولولا سهم اصابه في جبهته لمضى في مناصبتنا الطعـان . وجيء بحجّام ينتزع النصلة من الجبهة ، بخفة ، ونزع بها روح زيد وأطار انفاسه . وأبى انصار حفيد علي افتضاح أمرهم ، فكتموا النبأ ، وحملوا سيدهم وقائدهم الى ساقية يدفنونه في مسيلهـا . وأخفوا القبر بالتراب والحشيش ، وأجروا عليها الماء . غير ان الحجّام ، وقد شهد ما كان ، لم يعقل لسانه . فأقبل الى عامل امير المؤمنين يدله على الحفرة . فكشف الثقفي عن الجثمان واحتز الرأس ووجهني به الى مولاي مجزوزاً ، بارد الجمرة !

— وخمدت الثورة ؟

— لم يبق من جذوتها غير كومة من فاتر الرماد ، يا امير المؤمنين !

فاطمأن هشام ، ونفض منه هلعاً طال عليه نكده . ومال على الرأس المقطوع ينعم فيه النظر تناهياً في اليقين واللذة . ونطق فيه جبروت السلطان فهدد بغيظ جامح : كل معاند في دولتي مصيره الى هذه الوهدة الربداء . بطرت حتى عميت ، يا ابن علي . شاقك ان تزحمنا في مجدنا ، وفاتك انك أخرق الرأي ، كليل المنسر . والله ، لولا تيهك وغيك لأدنيتك مني تنعم بخيري وسعدي . ولكنك شئت ان تزحزحني عن سرير الخلافة ليهدأ عليه جنباك ، فخاب فألك . نصيبك القبر لا الملك . هذه نهاية المأفونين !

ونضحت كلماته بالمهانة والتشفي . والتفت الى رسول يوسف بن عمر الثقفي وقال بقسوة ذي الطغيـــان : أبلغ الثقفي ان اضرب ولا ترحم . تلك الجذوع النخرة لا تنجع فيها غير الفأس المستأصلة . ليكن فيهم كالحجاج نقمة وفتكة . لو أحسن يزيد بن معاوية لقضى عليهم في كربلاء جميعاً وأنقـــذ من عنجهيتهم المسلمين . فالدولة لا تقوم برأسين ، والرأس الواحد قد يقوّضها احياناً ويجعل سافلها عاليها !

ومع حرصه وامساكه ، أدى بدل البشرى ألف درهم تقاضاهـــا الرسول

Twitter: @ketab_n

الشره الى العطاء ، وهشام يعالنه بقوله : هذا حقك علينا . ألا عد الى قومك وانشر فيهم غضبتنا على كل مفسد عيّاث ، ورضانا عن كل مسالم كريم المهزة . ليس الأمويون بالقوم الكفرة وذو الولاء عندهم عزيز ، أثير ، والناهد الى العصيان مخلوع القلب ، محطم الجناح !

وصرفه بايماءة . وصبّت عيناه على الرأس المقطوع الكره الحالك ، والابتهاج المدله . وقال يخاطبه وصوته ينتفض حقداً : عيّرتك كونك ابن أمة ، وليس لابن أمة حق بالخلافة ، فجبهتني باسماعيل . وحجتك ان اسماعيل على كونه ابن أمة أنجب خيراً من سبط اسحق . كأن نفسك تحدثك بركوب مقعد الخلافة وأنفي راغم . ألا خسئت !... والذي نفسي بيده ، اني لأكرهكم جميعاً أهل البيت ، كرهي للشؤم في اليوم الأنور . فلا تزال قصيدة الفرزدق في ابيك المفتئت بلقب زين العابدين توقر سمعي وتشك في قلبي . حسبتم اتصالكم المكين بالنبي يضمن لكم سيادة المسلمين ، فبتم ولا وازع يثنيكم عن هدم كل سبّاق ، مقدام . ألا رويدكم في مضلتكم . نحن ارباب الزعامة قبل ان تسنّوا لها الانياب. فلا تطاولوا الناس في احسابكم ونحن أرسخ عرقاً ، وابعد خطراً . اذا جمعتنا قريش فلقد رفعتنا عنكم الجاهلية وما حطّتنا دونكم الاسلام . لو لم أقتلك يا ابن علي ، في عصيانك ، بعد ما وقع في مسمعي من خيلائك ، لأطعمتك السم شأن يزيد بن معاوية في الحسن شقيق جدك الحسين . ولكنك نلت من دنياك حظك . وستلقى ، بعد مصرعك ، ما لم يكن في حسبانك . فمت في كيدك تلهب كبدك النار !

وصفق . فأقبل حاجبه ينحني أمامه ويقول : أنا في خدمة أمير المؤمنين !

فقال هشام بلهجة آمرة ، خشنة ، تياهة : ابلغ كل من ضمته الرصافة ان يقبل الى باحة قصري لرؤية من صرعه غضبي ، وضربت عنقه نقمتي !

وأشار الى الرأس المقطوع الجاثم أمامه على الطبق . وتجرأ الحاجب ورفع بصره الى الرأس فارتعد وزوى ما بين عينيه . فقال هشام بنبرة المنصور : هذا رأس زيد بن علي ، صاحب فتنة العراق وخراسان . اجتثه من عنقه رجالي

Twitter: @ketab_n

ودفعوه اليّ ذليلاً ، ابتر . ولقد اجتثوا به الفتنة الصارخة. فلا بد من اذاعة النبأ في الناس وعرض الرأس عليهم انذاراً لكل شرير ، لئيم !

وما هي لحظـــات حتى كان المنادي يصيح في أهل الرصافة ان اسرعوا الى صرح امير المؤمنين . فالبشرى بالانتظار . فتقلبوا على القصر يفتحون آذانهم للنبأ الصـــادع . واذا بالجلاد يطلع عليهم وفي يمينه السيف وفي يساره رأس زيد ابن علي المختنق الأنة . وصاح بصوت عريض كحمحمة القضـــاء : امير المؤمنين هشام بن عبد الملك ، أدامه الله ، وزاد في توطيد سلطـــانه ، يذيع فيكم ان فتنة زيد بن علي ركدت ريحها ، وسكنت فورتها . وهذا رأس زيد يصارحكم بالنبأ الحاسم . فمن اتعظ وارعوى ، فهو آمن . ومن سالم ووعى ، فهو آمن . والويل للمقلقين !... وقد أمر مولاي الخليفة ، امعاناً في الاقتصاص من الآثمين ، بنبش قبر زيد ، وصلب الجثمان عرياناً ، واحراقه حين يجفّ ، ونثر رمـــاده في مهب الريح . فليتعظ كل صلف عنيد !

فهزت رعشة الهلع القلوب . وبدا هشام فهتف له الحشد وارتفعت الأصوات بالتكبير . فاكتفى الخليفة بان يرفع يمينه فيحيي الجموع دون ان تضطرب شفتاه بنأمة . وألقى على الحفل نظرة مبسوطة الرمية ، تضطرم فيها القدرة . وعادت فامتدت يده بالتحية ثم توارى والهتاف له على مضاء . غـــير ان هذه الحماسة المتأججة باشرافه على الحفل خمدت لدى انصرافه ، وعلت دمدمة جازعـــة ، ووشوشة حانقة لم يكن للناس بها عهد .

وفي أطراف الجمع الزاخر وقف اثنان ينظران الى الرأس المقطوع والكراهة في أعينهما ، والنار في كلماتهما . رجل وامرأة . قال الرجل بحقد جهير : الى متى يقتل الامويون سادتنا وينثرون رؤوسنا باستخفاف الطغاة المتجبرين ، ونحن أهل البيت ، الصفوة المختارة في دنيا الاسلام على فسيح رحبتهـــا ، نذهب لاسيافهم نقيعة ، ولاحقادهم نجعة ؟... هشام ، هشام بن عبد الملك ، لا بد من يوم ننأر فيه ، فتتطاير تحت مضارب سيوفنا ، اعناق بني أمك ، وتصفر عظامـــكم كالأفاعي المروعة في أجحارها !

Twitter: @ketab_n

وقالت المرأة ولم تكن دون زوجها حنقاً : يوم الانتقام قريب. فالمؤتمر يعقد في البلقاء تلو المؤتمر لهدم الامويين ، شيعة الغدر والنفاق . زيـــد ، ليس دمك بالمطلول ، ورسل ابرهيم الامام في خراسان ينفخون في بوق الثورة ليدحرجوا الخلافة عن المفرق الأموي اللعين !

فقال الرجل بتمامل وغصة : إن لم نشق الطريق الى هـــذه الثورة فأولى بنا ان نلطم ونصفع ، وأن نظل عرضة للخزي والمهانة ، فلا تناط بنا المعالي ، ولا تقبض ايماننـــا على نواصي الاحكام . زيد ، أخي زيداً ، لا تجزع . لأكونن مضرم جذوتها ورافع رايتها . فقد طال احتكام الامويين فينا . بيدي سأهدم هذه الدولة وأثلّ عرشها ، وأعيد تمثيل فاجعة كربلاء . ولكن الضحـــايا لن تكون من الهاشميين الاقيال ، بل من الأمويين الانكاس !

وانبسطت يمينه باتجاه الرأس المقطوع تعاهده على صدق العزيمة . ودعا المرأة الى اللحاق به قائلاً لها : "سميّة ، إنك لطالق اذا حنثتُ بيميني . أيرتدي هشام في كل يوم حـلة ، ويسكب في كل صباح على رأسه قارورة من الطيب ، ليثوي أرباب الخلافة الاقحاح بأعماق التراب ؟... لا ، ورب الكعبة ، ايها الاحول ، أشَركك لن يدوم . بيننا وبينك حساب !

فرمقته العيون وهو ينفلت من الحشد . وعرفه النـــاس فراعهم وجوده ومقاله . وأشاروا اليه برهبة . هذا عبد الله بن علي سيف الهاشميـين المصلت ، ويدهم الهادمة ، وابن عم زيد المقطوع الهامة . وانفرجت الصدور عن غمغمات تلتهب تشاؤماً وقد سمع القوم كلمات الهاشمي الجبار ، الناقم : الويل للأمويين. يوم الانتقام دنا ميعاده . فليحذر رهط معاوية نقمة الموتور العنيد !

Twitter: @ketab_n

٢

هذا السرير الانيق ، وقد بنى دعائمه معاوية بن أبي سفيان ، لم يكن وطيد الأس ، منيع الجانب . فالاعاصير ما برحت ، بعد مأساة كربلاء ، تهب عليه بغيظ وكيد . وانطوت له جحافل من النفوس على ضغينة ، وتلفتت اليه العيون بشراسة ، حتى الأمويون انفسهم لم يسلموا من التنكيل بعضهم ببعض .

وفي هـــذا الجو المضطرب المتلبد بالدسائس ، المواج بالفتن والثورات ، لم يستروح هشام بن عبد الملك الدعة والطمأنينة مع صبوته اليها . فما ان يحل مشكلاً حتى تزحف اليه مشاكل ضاعت بهـا عليه الاهداف . اذا ساير اليمانيين انقلب عليه القيسيون ، وان عطف على القيسيين لقي من اليمانيين الجفاء والمقت . إذا أطفأ ثورة في خراسان تلظت فتنة في المغرب لا يكاد يكبح جماحهـــا حتى تفاجئه القلاقل في العراق .

وهشام ابتغى توطيد هذا الملك الضخم المستطيـل من الهند الى الاندلس . فاعتمد في سياسته الانصاف . كل من جاءه يلتمس حقاً لقي فيه الخليفة العادل . وحرصه على ضمان الحق أهاب به الى الوقوف في الطريق يستوضح المارة هل من حاجة لهم فيقضيها ؟

ولكن الماضي الأحمر الوجه ، النافث العدوان ، اثقل النفوس بالاوتار فعز عليها التناسي . وأحس هشام بن عبد الملك بضياع مساعيه فأوجعه سوء المغبة ، وركن الى استجلاء الغد وهو الراسخ الايمان بأقوال مستطلعي الغيوب .

والرجم بالغيب يومذاك رائج السوق ، شائع الزي ، تعقد له المجالس في القصور والدور فالجاهلية مازالت به واضحة اليد في الاسلام . وهي الموطدة له فيها ، والممكنة له

Twitter: @ketab_n

من الارواح بكهنتها وعرّافيها . ولشدة اقبال الناس عليه عُدّ علماً وفناً ، ومارسه محترفوه كعلم وفن . وهشام لم يكن يقدم على امر الا وقد استند فيه الى طرف من روايات المتكهنين

وفي ذلك اليوم الحفيل ، يوم عرض فيه رأس زيد بن علي في قصر الرصافة ، استطاب الاصغاء إلى اقوال الكهانة في ما يكون غده . فعقد مجلساً طواه على الخلص . ودعا اخاه مسلمة يكشف له عن الغيب . ومسلمة بن عبد الملك سيد في الرجم وقد ارتفعت له فيه راية . فيجيده في استيحاء النجوم وفي استبحاث الكؤوس . ولقد اجاب دعوة الخليفة الى بسط الآتي المحجوب . وصعدا معاً في ظلمة الليل الى سطح القصر يعرضان النجوم الباسمة في سمائها القاتمة . وغاب مسلمة في التفكير . وبدا منه أنه يحاول النطق ولا يستطيع . فاستبطأه هشام وصاح به على قلق : ما بك ؟... ويحك !

فظهر من مسلمة أنه يتألم ، وانه يبغي الافصاح عما لا يهدأ له باله . قال بارتباك : الغد لا يبعث على التفاؤل ، يا أمير المؤمنين !

فارتعش هشام ، وانتابته الغصة ، فصاح : وماذا ترى ؟... قل ، قل ولا تخشَ !

فأعلن بعد لأي : لا أرى هذه الدولة مشيدة الركن على صخرة ، وما تلوح لي حيمونة الطالع ، يا ابن عبدالملك !

فتعتع هشام وهو يلهث : أينذر نجمها بالافول ؟

فأجاب مسلمة بحرقة : لم يبق لنا فيها رجاء ، يا ابن أبي !

فكادت الكلمات تجمد في شفتي هشام ، ولكنه استطاع ان يغالب نفسه على النطق فقال برنّة يشيع فيها الألم الصاهر : أيها الناعي الينا أنفسنا ، أيتدحرج بنا سرير الملك ؟

فأدلى مسلمة بقولة يرين عليها التشاؤم الفظّ : نلنا من العزة ما كتب لنا .

Twitter: @ketab_n

وعلينا ان نفسح فيها لسوانا . ولكل أجل كتاب ، يا أمير المؤمنين !

فاضطرب هشام ، واستفهم هلوعاً : لمن ، يا مسلمة ؟... لك الوين !

وفاض شدقاه بالزبد . وخيل اليه ان الارض تدور به . فقال مسلمة : خفف عنك . لن تنطفىء في زمنك النار على موقوت أمدهـا . هذه الدولة ستظل قائمة بعدك ، ولكن إلى حين . وستنتقل عنا الى بني اعمامنا من آل هاشم ، عترة الرسول العربي الامين !

فارمدت عينه النبوءة واستجلى برعب : أيملكون مثلنا ويرتعون في ما نرتع فيه من سلطان ؟

– هذا ما يوضح علم الغيب ، يا امير المؤمنين . وعلم الغيب قد يصدق وقد يطيش !

– ونحن ، نحن ، ماذا يحل بنا ؟

فقلب مسلمة شفتيه وقال بتأثر ممض : هلا يعفيني من الكلام أمير المؤمنين ؟

– بل أنا ادعوك بالحاح الى البيان ، يا مسلمة . ماذا يحل بنا وقد ركب الهاشميون مقعد الخلافة وأدالونا عنه ؟

فغمغم مسلمة : قاتل الله اللجاجة ، ما لنا وللغيب ، يا أمير المؤمنين !

فزاد أخاه شوقاً الى معرفة الخفي المكتوم . قال هشام حانقاً : لا تخف عليّ من وقع النبأ . فمن عجم عود النائبات يثبت لهجماتها ثبوت الاطواد . أيتبدد ما شيد معاوية من ملك اثيل ، وما صانه مروان ، وجهد فيه عبد الملك ؟ انهـا لنا زلة لا نغتفرها للدهر الجاني ، وأبيك . وسينقلب بها مخطط صفين ، وهدف جدنا مروان بن الحكم ، ومجهود عثمان بن عفان في استعادة المجد القديم ، وانتقام معاوية لابيه باستعادة زعامة كانت لنا نحن الامويين ، في الجاهلية . وفقدناهـا ببزوغ الاسلام ؟ فهل يذهب هذا الوكد الجسور كله هباء ، باكمله ؟

فتردد مسلمة في الجلاء . اما والخليفة يريده على الافصاح فأبى ان تعدّ عليه

Twitter: @ketab_n

الممانعة دلالاً وجهلاً . فقال وهو يتأنى في أداء كلماته كأنه بائع الذهب يعطي بالحبة والقيراط : أرى بحيرة تضطرب بالدم ، يا أمير المؤمنين . وفي هذه البسطة الحمراء الجـــائشة نثيرٌ من اشلاء وجماجم يلوح ثم يغيب . يدفعه الموج عالياً ، ثم تبتلعه اللجة البعيدة الغور . واني لابصر بأيد ترتفع ضارعة وبشفـــاه يقع في اذني منها سؤال النصرة والعون ، فلا يهفو اليها مغيث . وكلما حاول منكوب ان ينجو بنفسه ، من المستنقع القاني ، اهوى عليه سيف رهيف، طويل الشفرة، فيفلقه ويدحرجـــه الى الاعماق . وحول البحيرة جموع شامتة ، ساخرة ، في افواهها الصفير وقهقهة التشفي . على ان هامة فتية صدّت غشاوة الدم ووثبت الى الضفة الآمنة من البحيرة تجاهد في الخلاص . ويمسكم بعياء عن بلوغ طلبتها، فتكاد تتزحلق وتتبطن النجيع . ولكن يديها قبضتا على جذع اسعفهـا ، مع وهنه ، على الوثوب الى اليابسة . وانقض عليها السيف البتار فأخطأها . واتسع لها مجال الفرار فنجت من المحنة ، وقد زانها التاج وتألق في يمينها الصولجان !

فرانت على الخليفة رعدة . وضاق الصدر بالانفـاس . ووهنت عزيمة هشام. فجمد في مكانه لا يطيق حراكاً ، كالاشل . فان مـــا افضى به اخوه مسلمة لرهيب . وتمثل فاجعة كربلاء ومـا تماسك ان تنهد . سينتقم الهاشميون من الأمويين في يوم راعب ، مخوف ، يعيد إلى الخواطر ذكرى الفاجعة الكاسحة ، المحفوفة بالاهوال

وآمن هشام بن عبد الملك ، مع عتوّه ، بانقلاب الزمن . وليس للزمن دوام . يوم لنا ويوم علينا . وشاء ان يعلم اين يستقر هذا الأموي الهـارب من الويل . قال بصوت تغرغر فيه الحشرجة : والى اين ينتهي الفـــار من صولة القضاء يا مسلمة ؟

وظل مكانه على اطراق ، يمسك قلبه بيديــه ، ويخشى ان ينظر الى اخيه . لئلا يسمع ما هو افظع . فأجاب مسلمة بقوة الواثق بصدق بيانه : الى المغرب يا امير المؤمنين !

— وما يكون منه في تلك الاقاصي ؟

Twitter: @ketab_n

– يعيد المجد المفقود ، ويرفع العلم المؤود . فتزهو دولة تعادل بسناها روعة الدولة المشرقة ، ويحرج الاعداء والخصوم !

فانتعش هشام بعد التراخي ومسلمة يصارحه بان الأمويين لن يضمحلوا ورفع رأسه وقال : إذن لا خوف على الأمويين !

فقال مسلمة : النواة الصلبة أقوى من الفناء ، يا أمير المؤمنين . ظل يتقلص من المشرق ليتألق في المغرب . ألا قر عيناً . كل شجرة باسقة تعدو عليهـــا الأعاصير !

فصمت الخليفة على ارتباك . ما تنبأ به مسلمة يغلي بالوعيد . وخشي هشام ان تذيع في الناس نبؤة أخيه فتصول المكايد، وتتقلقل الدولة الأموية . فأعلن: ليعقل كل منا لسانه . كل ما قيل يجب ان يدفن بين الضلوع لا يتخطاهـــا . فالثرثرة مجلبة للعثار والدمار !

وبدا قاطع المقـــال ، جازم النبرة . وانسلخ من اخيه وفي ضميره رهبة ووجوم . وبدا تعلو أساريره الكمدة كأنه ادرك الهرم . وانساب الى حديقة القصر متثاقلا ، يؤوساً ، يهيم فيها على وجهه حتى الصباح . وجرى ، في اثره ، اخوه مسلمة على اطراق وجهامة ، يشاطره لوعتـــه وانكساره . فليس بالأمر السهل ان يتعب الامويون في تشييد هذا الملك المنيف ، الرحيب ، لينتزعه منهم بضربة سيف خصومهم والمتربصون له . ولكنها مشيئـــة الدهر في السلالات الحاكمة ، فتنهض ثم تكبو ليقبل سواها فيتولى عنها اقتداراً اعنة الحكم .

وطلع الصباح في الحديقة ، على صبية يلعبون . وما ابصروا الخليفـة حتى تحلقوا عليه مزقزقين ، كأنهم اطيار الجنة . وانبسطت ايديهم تطالب بالنقود البيض . هؤلاء ابناؤه وحفداؤه . فجلا المشهد الريان عن الخليفة بعض الكربة وابتسم ، ولامس وجنات الصغار الاطهار ، ونفض في أيديهم جيوبـه . ورفع احدهم اليه وغلا في تقبيله ، كأنه أحبهم الى قلبه . فقال مسلمة : ابن من هذا ، يا امير المؤمنين ؟

Twitter: @ketab_n

فقال هشام : هو عبد الرحمن بن معاوية ولدي . مات ابوه عن ثلاثة من الذكور هذا أدناهم الى عطفي وأقربهم الى نفسي !

فداعب مسلمة الغلام الوسيم مداعبة مرحة تجلت له بها حدة ذهن الصغير . وما لبث ان حمله بين يديه وسدد اليه نظراً مستطلعاً نافذاً . وكأن قوة الغيب نطقت في مسلمة فهمس في اذن هشام : هذا هو ، يا ابن عبد الملك !

فاختلج هشام وقد ومض في عينيه مرمى مسلمة . غير انه أخفى تأثره وسأل باستيضاح الغافل : من هو ؟

— الهارب من الدم ، الحامل الى المغرب التاج والصولجان الامويين !

ففار في هشام الغضب . ولم يشأ ان يصب نقمته على أخيه فولى متأففاً ، مدمدماً : ما لنا وللغيب ، يا مسلمة . فالغيب خزانة مقفلة لسنا نملك مفاتيحها. دعني من تشاؤمك . كل ما نطقت به هو عندي أوهام في اوهام لا ثبوت لها وهل للبرق الخُلّب ما يحمل على الايمان بجدواه ؟

ومال الى الكفران بعلم الغيب بعد ما اسمعه منه اخوه . وأبى ان يصدق ان الدولة الاموية، على اتساع اطرافها ، تتقوض وتبيد. وجاهد في النيل من ضلاعة مسلمة . ليس اخوه بالمعصوم من الخطأ . وما يجهل هشام ان اخاه من الافذاذ في علمه ، وهيهات أن يطيش له فيه سهم . عدا أن النقمة على الأمويين ، الفاشية في كل قطر عربي ، نذير شؤم وويل .

وجال هشام في الحديقة الفسيحة الرحاب لا يدري اين يستقر. فالاضطراب العاصف بقلبه كاد يذهب برشده . أيذيب الجهد في انصاف رعيته ، ويقف نفسه على خير قومه ، ولا يجد ممن يروم اسعادهم غير الدس والاعراض ؟

ولم يكن يطيق ان تنزل بمن يتفيأ رايته هضيمة ، والظلم تكرهه نفسه . غير ان عطفه على الناس لم ينجح في استمالة القلوب الثاوية على نفار . قال وهو يحرض بريقه : كم يطيب لي ان اجمع حولي الهاشميين،واقيم واياهم على خلوص مودة . هؤلاء ابناء اعمامي . ولكن مطامعهم المترامية الأمد تأبى عليهم ان يكونوا في

Twitter: @ketab_n

تدبير الملك دوني. حاولت فيهم دهاء معاوية ، فلم اوفق ، واعتمدت بطش يزيد فنبوت عن النجح . فالدسائس حولي قائمة ، قاعدة. وبين الامويين أنفسهم من ينقم عليّ ركوب منصب الخلافة . فالطامعون منهم فيه يرتعون في لحمي ويسعون لتهديمي . ولو استطاعوا في الخلاص مني ما حاولوا في عمر بن عبد العزيز لطبخوا لي السم النقيع . ولكني أتقيهم بيقظتي . فاني لشديد الحذر في مأكلي ، مفتوح العين في خطوي وسكوني ، فتنأى عني الثقة حتى باخوتي وبابنائي . واضيعة هذا العمر الطويل ، ولم أقوَ فيه على خطب ود صديق . ألا من يشتري مني الخلافة ، ويبيعني بها بسمة المرح ، وهناءة الضمير ؟

وترجرجت في عينيه نداوة حائرة دلت على ما يعاني من ارتباك وما يعروه من قنوط . ملك سعيد ، يتوق الى شراء الراحة بملكه وماله ، والراحة تجفوه .

فما أغلى البدل وأعز المنشود !

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

٣

بردى يجري بفيض السخيّ واهزوجة الطروب . هـــذا أوان الربيع . فالغوطة ضاحكة ، ودمشق قريرة العين ، وسنى . ونشر الاخضرار على المروج نضرته فتلألأت ريّا العوارف ، حاليات الابراد . وسرحت الغيد في الظـــلال النواعس يبسمن للطلالة الوارفة ، المغناج .

وما خلا بستان من سرب تغري به رخامة الشدو، وغضارة الفتوّة ، فكأن دمشق ، وما حولها ، حطت عصا الترحال في هاتيك الجنان . والى خميلة عقد عليها العنّاب والياسمين قباباً عاليات درج الشباب الطلق تحفّ به القسامة اللينة الاعطـــاف . هما اثنان : شاب وفتاة ينطق في قسماتها المجد العريق وتشع في ملبسها الأناقة الفيحاء كأنها في الحسب اللباب صنوان .

وكلما اضطربت منها القدم الى الخميلة المتشابكة الاغصان حانت منها التفاتة فاحصة الى ما حولها كأنها يخشيان وقع العيون المرتابة . وتلتقي نظراتها في انكفائها فيختلج القلبان وقد اقاما من الغرام على فورة .

ويتكلمان . إلا ان الهمس يغلب في حديثها الجهار . قالت وسمرتهـا العذبة تضيء قدها الرزين الامتشاق : أين نقيم ، يا عبد الرحمن ؟

فنفذت عينه الى ياسمينة غضّة وقال : ما رأيك في هذه الخيمة الظليلة ؟... سماء خضراء تغمزنا فيها نجوم بيض كالبسمات !

فأومأت انهـا راضية باستظلال الياسمين الناصع كقلبها ، الطريّ كعمرها . وتغايدت الى المجثم ، ومئزرها الاخضر يكشف في خطاها عن ساقين بضتين ،

Twitter: @ketab_n

ومعطفها الاسود ينمّ على انامل وساعدين غضة ، نواصع ، يستعذب فيها التقبيل. وخضبت أظفارها الحناء فزادت في روعة أصابعها اللدان .

واقتعدا ظـل الياسمينة . وتقاربا حتى كادا يلتصقان . فابتسم عبد الرحمن وقال كمن طال تشهّيه هذا الموعد البهيج : ميمونة ، كم بتّ أرقب هذا اللقاء السعيد!

فصبغ وجنتيها الخجل . على انهـا قابلت الابتسامة بالابتسامة وقالت : تدعوني اليك ولا قوة تسعفني على براح دارنا . أتجهـل غيرة أبي ومنعه اياي من مغادرة المنزل وحدي ؟... اذا درى اني ألقاك واجالسك استحل دمي ، مع شديد حبه لي ، وعطفه عليّ !

فصاح وقد تفتقت لهجته عن ألم دفين : لي الله من ابيك. ما عرفته الا حاقداً علينا ، كارهاً لنا . يكيد للامويين ويحاول ان يروي بدمهم حديد حسامه . نقم على جدي هشام بن عبد الملك ، وناوأه في سلطانه ، وجفا خليفـة اليوم مروان بن محمد يبغي هدمه. فما الباعث على البغضاء ونحن وانتم من دوحة واحدة ورفت ظلالها ، وتشابكت أغصانها ؟

وكان الزمن قـد وثب عشر سنوات . فمات هشام بن عبد الملك وتلاه في الخلافة الوليد بن يزيد المعشاق ، فيزيد الناقص ، فابراهيم المخلوع ، ثم انتهت الى مروان . قالت ميمونة : تلك الاحن الضاربة أكبادنا ضربتُ بها كبد الدهر ، يا عبد الرحمن . فلا أراني اقيم لها خطراً . فالحب العاقد بيننا يزري بما تلبد في جو العشيرتين من غيوم . أجـل ، أنا ابنة عبد الله بن علي ، الهاشمي المنتمى ، الناهد الى استئصال الجذع الاموي . غير ان قلبي وقف على نبتة اموية بليـلة المغرس ، هي انت . ولست اشاطر ابي ضغينته ، بـل يشوقني جمع الشمل الشتيت. ولكن الوهدة اعمق مما نتوهم ياعبد الرحمن. نحن وأنتم من صلب واحد. ومنّا انبثق محمد بن عبد الله . ولكن الطمع في الخلافة أبعد بعضنا عن بعض . فكلنا يريدها . وهي واحدة ، ونحن كثر ، فتبعثرنا . وما لطلاب السيادة ان يقيموا على وئام . هو الطمع الفاصل بين عطايا الرحم الواحدة ، وأبيك !

Twitter: @ketab_n

فهز رأسه جزعاً وقال : القدر أفعى يا ميمونة . لا يلين حتى يعضّ . اخوة واعمام يتناحرون . ألا بئس ما نحن فيه من قوة وحصانة !

فأمسكت بيده تجذبه اليها وتقول عاتبة : عبد الرحمن ، ما تلاقينا لنستسلم الى الاشجان !

فنضت عنه الاكتئاب المحرج بدعوتها اياه الى الصدوف عن الشجن . ونظر اليها بهيام الولهان يقول : صدقت . نحن هنا لبث الاشواق . وميمونة مورد الطلاقة عندي . فلا أدري كيف دهمتني، وانت الى جانبي، الحفائظ الموجعات. على انه يؤلمني ان اقيم واياك على وفور هوى ، وان يبيت أهلنا على موجدة وشحناء !

وأطلق زفرة تفيض اسى كوت في ميمونة رهافة الحس فقالت متأثرة : أتضيمك القطيعة ، يا عبد الرحمن ؟

فزفر وناح فيه مقاله : انها لتسحق قلبي !

– وما يضيمك منها ؟... قل ، بحياتي !

فاجاب ببيان كسير : أخشى ان تقف حائلاً بيننا ، وانت يومي وغدي !

وتحمس فأعلن : ان القطيعة لهادمة المجد ، يا ميمونة . ألا ترينها هادرة جارفة في فصل الأخ عن أخيه ؟... جمعتنا قريش في سمط ، فعدت علينا المطامع فانتثرت الحبات . ولو انصفنا انفسنا لتفيأنا ابداً ظلال قريش والقلوب على القلوب . ففي سبيل قريش نحيا على وحدة في الهوى ، ولاجل قريش نموت على اتحاد في اليقين !

فانحنت عليه حتى باتت كتفه لها وسادة وقالت بعذوبة خضلة : أيأبى عليك حبي ان تطيق سورة الجفاء تعرونا ، يا عبد الرحمن ؟

فتنفس عن شوق وافضت حنجرته بخلجة ضميره ، فقال : غبطتي معقودة على بسمة شفتيك ، يا ابنة عبد الله بن علي . أتذكرين يوم تلاقينا ؟... كنا على

Twitter: @ketab_n

هذه الضفاف ما وقعت عيني عليك حتى وثب اليك قلبي. وراقني ان تبادليني النظر وانت بجانب ابيك . وازدانت يمناك بزهرة من الفلّ شممتها ورميت بها على مقربة مني . يا لعطر الفلّ ويا ما أحيلاه من رسول !... فالتقطتُ الزهرة وعكفت عليها استروح شذاها بتقى العابدين ، وتمثل المغرمين المفلحين. وحرصت عليها كأنها ذخيرة وليّ . وانا أعرف اباك عبد الله خصمنا اليقظان الغضوب . ولكني لا اعرفك . فسألت عنك . فقيل لي انك ابنته ... فراعني ان أهوى ابنة عدوي . غير ان الحب يزدري المنابت والطوابع ، يا ميمونة . ان هو الا عينٌ ابصرت وقلب خفق ، فجنّ !

قالت وذكريات الامس تشرق في خاطرها فتنتشي : لست انسى الموقف البهيج . منذ بدوت على الضفاف حدثني عنك ابي . ومع كل ما التمع في حديثه من مقت وكره دفعني اليك ميلٌ لم املك صده عني . وابتعدت عنك وخيالك في جناني . ووافاني رسولك يقص علي شغفك بي، فاصغيتُ بطرب ولذوى . وضمنا لقاء على لقاء حتى جمعنا هذا الموعد الجميل !

واختالت ابتسامتها مشحونة بدفقة من الانس الصفيّ . قال عبد الرحمن : واريد أن تتوالى المواعد ويستمر اللقاء ، يا ميمونة ، بل اشتاق ان يعقد لي عليك . وأخشى ألا أظفر بالبغية وابوك عدو لنا . أثار علينا في خراسان أبا مسلم . وعقد وشيعته في العراق مجالس التحريض ينادون فيها الناس الى الانقلاب على الأمويين . ولا اخفي عنك ان الخلافة صائرة حتماً اليّ اذا طال بالحياة عهدي . فان لم اكن تلو مروان ، ففي اثر من يتلو مروان . ولا يضيرك ان تكوني امرأة خليفة . وما يضيرني ان أجمع بك في قلادة واحدة الامويين والهاشميين ، فتتفق الكلمة ، وينتظم الشمل !

فاعلنت : ولكن أبي بريء ...

فقاطعها بحدة : لا تدفعي عن ابيك التهمة ، ولست اجهل نياته . هو قائد الهاشميين الى الثورة . فاذا استطعتِ ان تشفيه من غليانه خدمتِني وخدمت نفسك . والا قضي علينا بالاخفاق في هوانا الاثيل !

Twitter: @ketab_n

فقالت بالتياع يشف عن عجز الكليل : ابي لا يصغي اليّ ، يا عبد الرحمن !

فنبر : خاطبيه بشدة . قيل لي انه وافر الاصغاء اليك . فميلي على قلبه واستعطفيه . قد يلين الحجر الصليب بالقول الخضيب !

فهزت رأسها على ارتياب وقالت : لو كنت تعرف ابي معرفة صادقة لامسكت عن هذا الرأي الانيس . عبد الله بن علي مكابر عنيد ، لا ينحني ازاء حجة ، ولا يهتدي بدليل . فاذا احس مني ميلاً اليك سفك دمي كأني نعجة للسكين . غير اني سأحاول اقناعه بالتريث . ربما وقعت في نقمته على ملاينة وفتور !

وافلتت قولتها بخفوت الخشيان. فهي لا تطيق الفصل بينها وبين عبدالرحمن، وحياتها اضحت وقفاً على الفتى . قال النبيل الاموي وقد تجلت له خلجات نفسها الخشيا: ميمونة ، لست اعدل بك الدنيا . ويمضني ألا تكوني لعبد الرحمن برضى ابيك . انا لو شئت ان اختار سواك للقيت ضالتي في بنات اعمامي . درت بحبي لك ابنة عمي زينب بنت سليمان بن هشام فلامتني وعاتبتني فيك . قالت : « أتهيم بابنة عدونا ، يا عبدالرحمن؟ » . قلت: «لكل من دنياه ما يهوى، يا ابنة عمي ! » . فأغضت على ألم . بيد انها لم تلبث ان دلفت اليّ في احدى العشايا تقول : « دع عنك الهاشمية ، يا عبد الرحمن ، وانظر الى حظك فينا نحن بنات اعمامك . فان بيننا الجديرات بحبك ، الوسيمات ، الفاتنات ! ». وما غاب عني انها تريد نفسها ، فقلت : « ما تمّ قد تمّ ، يا زينب . فما لنا ولمحو المكتوب ! » . قالت: « واذا جلوت لك سراً عذب الخبر، فهل تصدقني فيه؟». قلت : « هاتي ! » . فابانت بارتعاش في صوتها وشفتيها ، وباطراق في عينيها : « اني اهواك ، يا عبدالرحمن ! » . وانتابتها الغصة . وتولاها الخجل القاصم ، فما تجرأت على النظر اليّ . وانسابت دموعها على خديها تسترحم وتستجير . فوقفت منها موقف الحيرة والاشفاق. الا ان حبك انقذني مما بي، فوجمت لا ابيح للساني الكلام . فقالت زينب تختلج في عبراتها : « أيجوز ان تضحي بي ، وانا ابنة عمك لأبيك ، لتهوى من ينكر دمك دمها ويكيد لنا اهلها ؟ » . قلت

Twitter: @ketab_n

وقد ادركتني الرأفة دون ان يمنع كلفي بك : « زينب ، ليس العتب عليّ ، بل على هذا الخافق في جنبي ! » . فقالت بحرقة : « اذن لا سبيل الى مبادلتنا العاطفة ، أليس هذا ما تعني ؟ » . قلت : « انت ابنة عمي ، ومودتي موفورة لك على رجحان . غير ان ميمونة تملك مني مستدق الحس ، وفورة الهيام . فأنا بها مولع مفتون ! » . وزينب تبطن العجب المتناهي ، يا ميمونة . فما وقعت في أذنها كلماتي حتى لوت وجهها عني وهي تتول بحقد مستفيض عاودها به زهوها : « شكراً ، يا عبد الرحمن ، هذا موقف لست انساه ! » . وانصرفت هائجة ، غضبى . وتراءى لي انها ستعمد الى الانتقام مني وهي البعيدة الكيد . غير اني لم أحفل بما ستبدي ، وليس لها عليّ قدرة وطول . وتحاميت الافضاء اليك بما بيني وبين زينب ، وليس في اطلاعك على الامر اعتداد ، ولا فخر . ولكن رأيتني الساعة مكرهاً على معالنتك الخبر لتدركي منيف مقامك عندي . فتدبري الامر واقنعي اباك بان يكفّ عن التحريض علينا . وفي التحريض عدم المنى الرطاب !

فأقلقها وهو يحدثها عن زينب بنت سليمان بن هشام بن عبد الملك . وليست تجهل ميمونة مبلغ الصباحة في مزاحمتها على الفتى . ففي زينب من قوة الاستهواء والروعة ، ومن الاعتداد والكبر ، ما لا تنطوي عليه في دمشق فتاة . فان تقبل الى عبد الرحمن في استجداء حبه ، وان يصدها عبد الرحمن ، ففي الطعنة ما لا يرجى به اندمال ولا برء .

وفكرت ميمونة بارتياع في ما سوف ينال عبد الرحمن من انتقام ابنة عمه . فلن تسكت زينب عن المهانة . قالت ابنة عبدالله بن علي مرعوبة ، متألمة : عبد الرحمن ، لن تسلم من عضات ابنة عمك ذات الحقد القهار . وربما دفعت اليك من يودي بك بطبخة سمّ او بطعنة خنجر . كن على حذر . فمن المحال ان تنام زينب عما تجرعت فيك من ضيم وستكون أفتك بك من اعدائك !

فأجاب ببسمة من لا يبالي : لا عليك . هي دون ما يخيل اليك منها خيالي !

فما اطمأنت الى سكون زينب المتغطرسة الغيور . وتحدثت بنقمة ابيها

Twitter: @ketab_n

الصاهلة وهي خطر سليط يهدد عبدالرحمن في غده فقـــالت : سأبذل جهدي في صرف أبي عن مناوأته اياكم ، فان اوفق للمهمة فهو حسبي !

وبدا فيها الصدق الوضّاح . فما تمالك عبد الرحمن ان طوق خصرها وألقى رأسه الى رأسهـا وهو يقول بشغف : لست اخشى من ابيك على نفسي ولا على دولة الأمويين في شموخها مقدار خشيتي على حبنا الطالع . فالامويون يملكون العدة لقمع الفتنة ، وأنا املك العزم والهمة للذود عن حياتي. ولكن من يضمن لي ، في مضطرب الاحقاد ، اني سأقوى على بثّك اشواقي ؟... يحب العدول بابيك عن اضرام النار الاكول وهو النافخ في جذوتها لتندلع وتستطير !

قالت : وعدت بالمحاولة وساحاول . فنعيش معاً او نموت !

فالتهبت في جوانحه المسرة وقال : ما اعذب التضحية لاجـــل الحب ، يا ميمونة !

وضمتها غيبوبة حلوة تعاقدا فيها على النضال عن حبهما المحفوف بالخطر . واذا وهت العزيمة دون المطلب فليجمعهما الموت في حفرة . ولا كانت الحياة !

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

٤

كل مجهود في الامساك بالدولة الاموية عن الزلق باء بالخزية والخيبة . فهي على شفير مهواة ، يتوعدها غدها بالتداعي ، ويواثبها الاضمحلال

ونظر اليها الخليفة مروان بن محمد الجعدي نظرة الاسيف ، الملهوف ، واعتزم حبكها ، لتتماسك ، فما اسعفته يمينه . فالاهتراء طغى عليها فأضحت رخوة مائعة وقد تلبدت فيها اكفان العفن هالات على هالات

ومروان ذو جرأة وتدبير . يذلّ هواه لعقله ، ويصبر على المكروه . الا ان الارث انتقل اليه على وهن قوى ، وتفكيك اوصال ، وكلما داوى منه جرحاً سال جرح . فما نجا من ثورة الحروري في العراق حتى هبت عليه فتنة نعيم بن ثابت الجذامي في الاردن . فضرب عنق الجذامي فصفر ونقر ابو مسلم في خراسان .

والهاشميون اثاروا الخواطر في كل زاوية من زوايا الدولة على متناهي البساط . وظاهرهم نفر من الامويين في طليعتهم سليمان بن هشام بن عبد الملك . وسليمان لم يكن راضياً عن ركوب مروان مقعد الخلافة وهو يريد الاريكة لنفسه ، فتنكب عن المبايعة وجاهر بالعداء يقلق به مروان . الا ان الجعدي ثبت على المحنة ودغدغ مقبض حسامه مهدداً ببضع الدمل . ولم يخش سليمان كما خشي ابا مسلم المستفحل الشوكة . فان مسلم لغضبة جائحة . غاظه ان يستل الامويون الخلافة من اهل البيت ، أقطابها وأربابها ، فازمع اعادة الحق الى نصابه ، بل اوجعه ان يطغى العرب على الفرس فشحذ لها سيفه ، وما لعرش كسرى ان يبيت مطية صعاليك الجزيرة وعبدان انو شروان . ومازال الفرس يرون انفسهم

Twitter: @ketab_n

ابناء الله في ارضه وهم ارباب علم وسيف وعرق . نازلوا القياصرة والفراعنة وملكوا النصر وافتتحوا الممالك ودقوا فيها الاطناب . وكتب نصر بن سيار ، عامل مروان على خراسان ، الى الخليفة في دمشق يحذّره من ابي مسلم الصلب الشيمة ، فاجاب مروان ان تدبر الامر بما لا ينقلب ويلاً علينا

ونصر بن سيار ان يكن ذا رأي فليس ذا شوكة . لمس الغليان وصارح به امير المؤمنين داعياً الى خنق الفورة المتوعدة دون ان يجرد السيف ويخضب شفرته بدم الشانئين . فاكتفى بالابلاغ كحامل المناعي ، كأنه موقن انه ينوء بالعبء . قال يخاطب مروان في رسالة تتحرق لهفة :

« ... ومما وقع اليّ ، يا امير المؤمنين ، ان الرسل يغدون ويروحون بين خراسان والبلقاء على رمية حجر من مثوى الخليفة . ابو مسلم يكاتب ابراهيم الامام ويقص عليه حديث الثورة المتحفزة للنشوب ، وابرهيم يحضه على اذكاء نارها . وما ابرهيم سوى ركن الدعوة الهاشمية ، وقبلة انظار الناقمين . فاذا استطاع امير المؤمنين انتزاع النصلة المستقرة بجنبه ، هدم حجر الزاوية في ما يحاول الخصوم من بنيان ! »

فتلاظت في مروان الريبة . ودفع ارصاده الى البلقاء للقبض على كل رسول شاخص الى ابرهيم الامام ، قطب الهاشميين . قال مروان يدعوهم الى الانجاز واليقظة : « على ان الخير في ان تقبضوا على هؤلاء الرسل احياء كي نستدرجهم إلى البوح بما يبطنون ، فلا تخترطوا بواتركم لسوى ضرب المشمخرّ من الهامات ! »

وآمله ان تهدده النوازل من كل جانب ، وان ينغمس الامويون في الكيد بعضهم لبعض . فلو ملكوا المواءمة لذللوا العقبة وأمنوا شر الفتنة . وكرهت نفسه الابهة والدولة في ملتطم الانواء ، فانزوى في ديوانه معرضاً عن ملذات دنياه . وتنكر لجواريه لا يجالسهن ، ولا يتذوق فيهن مخمور النشوة . واعمت الغواية احداهن فبرزت له تجرّ مطارف الحسن الانور ، فانتهرها بزعقة داعرة : اغربي ، يا ابنة اللخناء . والله ، لا دنوت منك ولا حللت لك عقدة مئزر ، وخراسان ترجف وتتضرم بنصر بن سيار وقد امسك منه ابو مسلم بالخناق !

Twitter: @ketab_n

فكاد يصرعها . وران عليها الشلل فرسخت في وقفتها لا تندفع في خطوة . واستبطأ مروان انصرافها فنهض اليها متبرماً بها ، ودفعها بجمع يديه وشفتاه تتدفقان بالقول الحاطم : أتريدينني على المعصية ، يا قبيحة العرض ، وقد نهيت عنها نفسي ؟ ... أزنىً وقحة ؟... والله ، مـــا اشتريت اجمل امرأة بفلس زائف ، ومملكتي على قضقضة ، وخاطري في ضنى . اذهبي !... انت عندي دميمة شائنة مع كل اناقة فيك !

فانهارت كالصنم . فركلها وصاح بحاجبه : ادفع عني مرأى الخبيثـة النتنة . ما انا بحاجة الى الفحش ودولتي مظلمة المحيا !

بيد ان الجارية لم تكن تسمع . فالاغماء عبث فيها بكمن الحس . فرفعها الحاجب بين يديه ينطلق بها الى مأوى الحرم ، ومروان ينظر اليها بعبوس وحنق ويقول مدمدماً عليها : تدعوني الزنيمة الى اللهو والمتعة وتحتي يترجرج سريري . والله ، لا عرفت اللذة الا وقد وطدت هذه الدولة على مناعة وعصمة !

وتلظى فيه السخط . فالغد يقلقه . وعاد ينادي حاجبه مخاطباً اياه بزئير : لست ابيح لامرأة ان تدوس هذه العتبة . كل معاندة نصيبهـــا الموت ، وكل شذوذ يكلفك حياتك . اخرج !

فانحنى الحـــاجب وتوارى في رفة عين ، على انه لم يكن من رأي امـير المؤمنين ، هذا السيد الضخم العـاصي هواه في رياحين الجنة ، فغمغم بسخرية لاذعة : دعوه مروان الحمار ، وقد صدقوا . .مـا رأيت اقسى منه على كبده . مع ان الحياة هناءة وعبث . والهناءة والعبث بين احضان النساء ، يا ذا الرسن !

غير ان مروان لم يكن يدأب في سوى ترسيخ قدميه . فلا بسمة ، ولا فرحة ، الا وقد استقرت الدولة الاموية على قاعدة عنود . واستوى على سريره يفتح اذنيه لكل ما يحمل اليه عيونه من انباء فتنة خراسان وانتفاض الخوارج في العراق . وكلما سقطت في مسمعه القواصم تململ وصـاح : لن تنام الغواشي الا وقد فقأت عينها بنتوء السنان . سأنطلق بنفسي الى الشغب اصرعه وانقذ

Twitter: @ketab_n

منه دولتي . اني لاحمل على كتفيّ اثقالاً جساماً وتبعات وزاناً . ولن انوء بالحمل الفادح بعون ذي الجلال !

وأشد ما كان يقلقه التفاف خراسان على أبي مسلم . قال بحقد طافح : بطر الجلف المعتل النسب حتى بات يهددني في أعلى ذروة من سلطـــاني . ولكن مروان ليس نصر بن سيار !

ودارت به ايام دهم لم تغمض فيها عيناه . ومثل الحـــاجب ذات صباح بين يديه يقول : بالباب رسلك الى البلقاء ، يا أمير المؤمنين!

وهو يرقب هؤلاء الرسل ينقلون اليه اخبار ابرهيم الامام . وود لو أفاضوا بما يسعفه على ضرب الخصم المشاغب . فمن الخير للدولة الاموية ان يتوارى عنها هذا الوجه الشائم ، وكل سعي لاتقاء ويله لم يعتصم بنجح . فهو يقيم بالبلقـــاء مكرهاً منفياً بامر الخليفة . إلا انه مع اضطراره الى الاقامة بالبلقـاء لم يكن ينثني عن الاتصال بالنافرين من العهد الأموي ، الراغبين في استئصال دولة بني دعائمها معاوية بن أبي سفيان . وصاح مروان بحاجبه وقد استشفّ الخير من عودة رسله اليه :. ليدخلوا في طليعة الناس . انا بالانتظار !

فدخلوا يقبلون الأرض في حضرته . وكانوا اربعة . مع ان مروان يذكر انهم ثلاثة . فسدد الى رابعهم نظرة رهيفة وقال بحذر ، كأنـه يخشى الغريب الدخيل : أعلى السارّ وقعتم ؟

واستدل من أساريرهم انهم موفقون . فشاع في ملامحه الاطمئنان قبل ان يدلوا بجواب . ووهب لهم اذنيه ، فقال أكبرهم مرتبة : أنجزنا كل ما دعانا اليه أمير المؤمنين !

فساورته غبطة ارتخت لهـا شفتاه وقال مستوضحاً : هل قبضتم على رسول ابي مسلم ؟

فأشار محدثه الى رابعهم وقال : هذا هو ، يا أمير المؤمنين !

Twitter: @ketab_n

فأصلح مروان من جلسته ، وارتفعت هامته وهو يسمع ان رسول ابي مسلم بين يديه . وغاد يسدد الى الرجل نظرات قاسية ، كالحة ، ويسأله بامتهان : أأنت هو الأنكد ؟

فارتعد رسول الخراساني . وخشنت لهجة مروان فقال لرجاله : وهل اهتديتم معه إلى كتاب من أبي مسلم الى ابرهيم الامام ؟

فكان الجواب : بلغنا من الأمر اقصى مداه ، يا مولاي !

فطن صوته كالأهزوجة : وأين الكتاب ، لا أبا لابيكم ؟

فأزاح أكبرهم مرتبة عباءته وامتدت يده الى صدره تستلّ منه رقعة مطوية ألقاها بين يدي الخليفة ، وتراجع بخشوع التقي اكباراً لمقام رب الدولة . فقبض عليها مروان بعجلة من نفد صبره ونشرها بشوق يقرأ فيها :

« الى أمير المؤمنين ابرهيم الامام ، ابن عم رسول الله ، من أبي مسلم الخراساني المؤمن بالله وبرسوله

« السلام على مولاي . ادار المسلمون في بلاد فارس الرأي في أصلحنا للخلافة فوقعوا عليك . ولقد نشرنا الدعوة باسمك ، واوشكنا ان نجلو الرماد عن الجمر . غير اننا نرقب كلمتك وهي عندنا الكلمة الفصل . فاذا رأيت ان نضرم الفتنة اشعلنا نارها ، والا تريثنا حتى تأذن في اضرامها . والاتكال على الله ! » .

ففـــار مروان . وتراءى له وهو يقبض على الكتاب ان في يمينه افعى . فاحمرّت عيناه ، وسالت في خديه صفرة الهلع . فالنبأ اذاً صحيح . ابو مسلم يفاوض ابرهيم الامام بهدم الامويين !

وكادت الشتيمة تطفر من شفتي الخليفة المغتاظ . وحدثته النفس باجتثاث هامة الرسول . الا ان الحكمة تغلبت فيه على الغضب . فملك اعصابه ، وتكلف ابتسامة مرّة ، قاتمة يجلبب بهـا ألمه . وهزّ رأسه وقال : أرى ابا مسلم يتنمر . استأسد اللقيط . لا بأس ، نحن واياه على موعد لمديد حساب !

Twitter: @ketab_n

والتفت الى رسول الخراساني يقول : ممن انت ، يا اخا العرب ؟

والرسول منذ وقع في قبضة عيون الخليفة وهو يلمس رأسه بيديه ، وقد ايقن انه غار في اعماق التراب . وارتجف ومروان يخاطبه واحسّ بشفرة السيف تتغلغل في نحره . ولم يكن منه الا ان سجد بين يدي الخليفة وكل ما فيه يخفق ذعراً . وجاهد في النطق والخليفة يستطلعه أمره . فأجاب بصوت مرعوب ، خافت ، يكاد لرقته يمحى : أنا من اخوالك من قضاعة ، يا امير المؤمنين !

فاتسعت بسمة مروان القاتمة وقال : ألا نعم المنتمى . حباً وكرامة . مـــا قادك الينا ، يا خالي ؟

فاطرق الرسول وقد دارت به الارض . قال مروان : لا تخف . هات كل ما عندك . لسنا بالغلاظ الاكباد كما جاءك عنا . ان حلمنا ليطفو على دفقـــة السخط فينا !

فشعر الرسول على خشيته ببعض الامان ، وقال بلعثمة ظاهرة : أنا رسول أبي مسلم الخراساني الى ابرهيم الامام حارك في الحميمة ، يا امير المؤمنين !

فضحك مروان ضحكة خشنة وقال : أمن اخوالنا ورسول اعدائنا ؟

فانتكس في الرسول شعوره بالامان وعادت اليه مخاوفه ، فجمجم : ليس الرسول بمن تلقى عليه تبعة الرسالة ، يا أمير المؤمنين !

— صدقت . وإلمامنا بهذه الحقيقة يهيب بنا الى العفو عنك ، على ان تحدثنا بمبلغ عطية ابي مسلم اليك !

فتنفس الرسول واشتدت اعصابه بعد استرخاء وكلمة العفو تنساب في اذنيه فتنعشه . قال يجلو الواقع : أغراني بدمي في مقابل الف درهم ، يا امير المؤمنين . وانا رب عيلة . فتقاضيت المال وشمّرت للامر مستعيناً بالله !

فقلب مروان شفتيه باستخفاف وقال : الف درهم ؟... أتبيع حياتك بهذا المبلغ النزر ؟... ما رأيك اذا نفحناك من مثله بعشرة اضعاف ؟

Twitter: @ketab_n

فجحظت عينا الرسول وتنفس بعنف كأنه خشي ان يختنق . اي وميض غرّار يستهويه به الخليفة ؟... قال والشك في ما يسمع يغلب على ايمانه بالنوال الضخم : انها لمنحة ملوك ، يا مولاي . على اني غير حقيق بهـا . فماذا استطيع في خدمة امير المؤمنين ؟

— لن نطلب منك المحال . فكل ما ندعوك اليه ان تمضي في نهجك وتحمل الرسالة الى ابرهيم ثم تعود منه بالجواب . ولكن هذا الجواب تلقيه الينا. أتفعل؟

فتصبب الرسول عرقاً لفرط هلعه ، وجرض بريقه ، وعاودته رعشة الموت . امير المؤمنين يكلفه ما يرزح به . فما كان من مروان الا ان نادى خازنه وجلاّده وامرهما بالوقوف الى جانبي الرسول . هذا عن يمينه وذاك عن يساره . وعهد الى الجلاد في نصلة سيف قاطعة ، وألقى بـــين يدي الخازن عشرة آلاف درهم . وضحك ضحكة المقتدر ، القاهر ، وخاطب الرسول بقوله : عليك ان تختار ، يا خالي . إما المال ، وإما السيف . فلسنا نريدك مكرهاً على امرك !

فانخلع قلب الرسول وعيناه تحومان على نصلة السيف المتلألئـــة على انذار ووعيد . وسكن جأشه وهو يرى المال يتوهج في قبضة الخازن . وما تماسك ان قال مع رؤيته من بعيد حسام ابي مسلم يسدد اليه الطعنة الفاصلة : موتي في رضى امير المؤمنين أحبّ الي من الحياة في سخطه وقلاه !

فغمرت موجة من المسرة محيا الخليفة. وابتسم مروان وقال بلهجـــة تتبطن الخبث الهنيء : سرني جميل قولك وبارع تخلصك . أعطوه المال !

واطلقه الى الحميمة رسولاً الى ابرهيم الامام وكتاب ابي مسلم في يمينه . ووكل به عيونه الثلاثة يتبعونه في مسيره ويعودون به . وابرهيم في الحميمة اسير وليس بالاسير . يجول فيها على مداها ولا يقوى على براحها . وهو اذا انسلّ منها الى العراق اندلعت في العراق الثورة . وإذا انطلق الى خراسان اشعلها ناراً جائعة. وودّ مروان لو تدحرج رأس هذا الخصم المخوف اتقاء للنائبة . ولكن الامويين غرقوا في الدم حتى الناصية ، فاذا تحاموا السياسة الحمراء فقد يوفقون ، في عرف

Twitter: @ketab_n

الخليفة الجعدي ، حيث خابوا . غير ان كتاب ابي مسلم الى ابرهيم الامام قلقل السيف الاموي في غمده يأبى عليه الاستقرار .

وفي الحميمة انصرف ابرهيم الى ربه وشيعته . ولقيه الرسول في المسجد يتلو آيات الله . فألقى بين يديه الكتاب وهو يحييه بالخلافة ، فتجلت مطاوي الرسالة للامام قبل ان تنفذ اليها عيناه . ولما وقف عليها قال : الحمد لله اولا وآخراً . حقّ الحق وزهق الباطل . شاء الامويون اغتصاب حقنا فنصرتنا عليهم يمين الله !

واكرم الرسول واوسع له في العطاء . واستوضحه الحالة في خراسان وفي العراق . فتحدث الرسول باستفحال دعوة ابي مسلم ، وباختمار العقول بروح الثورة وكرهها للعدوان الاموي المستشري . فانبسط البشر في ابرهيم الامام وكتب الى الخراساني يقول : « انا لهذه الامة على ما تبغي مني . وما الخلافة غير تراث هاشمي تسلسل الينا من الرسول الامين . وعترة الرسول اولى بها وأحقّ . هذه يميني أمدّها اليكم . انهضوا لتقويض البطل فتجدوني في طليعة المجاهدين ! »

وتهادت الرسالة الى مروان لا الى ابي مسلم ، فكوث خاطر الخليفة الاموي واوغرت صدره . وسخنت احقاده فكتب الى عامله على البلقاء ان اقبض على ابرهيم الامام . فأغار الجند على ابرهيم معتكفاً ابداً على صلاته . فايقن انه هالك ووميض في عينه بتّار مروان يهزه الجواب الفضّاح الى الخراساني . فتمتم بينه وبين نفسه : قضي الامر !

غير انه التفت الى الجنود المتحلقين عليه يقول : ما بكم ؟... ضللتم الهدية ! فما اجابوا ، كأن السكوت مقدور عليهم ، بل شدوا وثاقه ، وقادوه الى حرّان ، مثوى الجعدي المختار ، يطرحونه امام الخليفة الفائر الكبد ، المتحفز للانقضاض . على ان مروان امسك عن الاندفاع في نقمته مستعيناً علينا بالمداورة . قال يخاطب اسيره بعتب الصفي : أنكرمكم وتسيئوا الينا ، يا ابرهيم ؟... كلما حدبنا عليكم لججتم في الكفران واكرهتمونا على مخاشنتكم ، كأنكم تبيحون لنا دمكم ، ثم تلومون . انت في الحميمة مصون الجانب ، هنيء المضجع ، فما يسوقك الى مواطأة ابي مسلم على العصيان ؟

Twitter: @ketab_n

فطمع ابرهيم في لهجة اللين ومال الى الانكار . قال : نصر الله امير المؤمنين وأذلّ اعداءه ، ما لي ولابي مسلم أصافيه واواطئه وانا منقطع الى ربي ، زاهد في دنياي ؟... بل ما لي وللعصيان أنفخ في ناره وقد احاطني أمير المؤمنين بجليل رعايته وكريم رضاه ؟

– أليس بينك وبين ذلك النغل الهائج في خراسان ، كالبعير الشقشاق ، صلة ولا مكاتبة ، يا ابرهيم ؟

– أبرأ الى الله من مثل هذا المتطاول الاثيم ، يا امير المؤمنين !

– عجباً منكم معشر الهاشميين . عرفتكم ذوي صدق وجرأة ، لا شيعة كذب ونفاق . وددت لو سمعت منك الاقرار بمفاوضة ابي مسلم ، يا ابرهيم . ولكنك جبنت واستخذيت حيث يستأسد الشجعان !

فبلع ابرهيم ريقه استحياء وألماً . وتضاءلت قامته على شموخها. الا انه تماسك ونشط في انكاره وقال : ليس الكذب ديدننا ، يا امير المؤمنين . نحن ابناء عم رسول الله ...

فقاطعه مروان بغضبة حاطمة : لا تجدف على الرسول ، خزاك الله !

– اتّق ربك في شتمي، يا امير المؤمنين !

– بل اتّق الكذب فينا ، يا ابرهيم ، أما نهاك عنه دينك !... انت شريك ابي مسلم في مكره ودسه !

– انا ، يا امير المؤمنين ؟

– انت، يا وقح الوجه . أتجرؤ على انكار التهمة وقد باتت طوقاً في عنقك ؟

– في عنقي ؟

– خذها ، ثكلتك أمك !

وضرب بالرسالة النمّامة وجه ابرهيم الامام . فما اضطرب ابرهيم مع هول

Twitter: @ketab_n

المذلة ، بـــل اعتصم برباطة جأشه في دفع التهمة . قال مروان وهو يأتكل في غليانه . من كتب هذه الرسالة ، ايها المنافق ، أأنا ام انت ؟... ألا انشرهـــا وقل لي ممن هي والى من . فقد تذكر ، وانفك يخدشها ، ما غاب عن ذهنك ولست ترمقها . من هو كاتب الرسالة ، يا معقد امل الهاشميين ؟

فما خانت ابرهيم الامام نفسه . فرفع الرقعة عن البساط المالىء الايوان ونشرها بتؤدة . وقرأها على مهل واوماً بالنفي وهو يقول : لست بمن يكتب رسالة تدعو الى فتنة في المسلمين !

فضرب الخليفة الأرض برجله وقد هاله الاجتراء المنكر على الحقيقة الصراح وهدر يستشيط غيظاً: أتمضي في انكارك وخط الرسالة خطك، وبيانها بيانك؟.. جاوزت في النفاق كل حد ، يا ابن الكرام !

ونادى حاجبه يقول : جئني الساعة برسول ابي مسلم . ابرهيم لا يقرّ بعملته الا وقد جررناه الى الادلة ندمغه بها . سترى اننا لا نفتري عليك، يا ابرهيم !

فاضطرب الامام وهو يسمع ان رسول ابي مسلم في قبضة مروان . وأطرق على وجل ولم يبق من سبيل الى ستر الهتيكة . فنظر اليـــه مروان بتشامخ واحتقار . وما اطلّ الرسول ووقع في بصر ابرهيم حتى ودّ الامام لو غار .قال مروان بشماتة ذابحة : والآن ، يا ابرهيم ، أتخرج عن خبثك ونفاقك ؟

فلم يجب وقد راعه الموقف . قال مروان بازدراء : ألا تكلم . اين قحتك المستطيلة وكذبك العريض ؟

فما خرج عن صمته . فحدّق اليه مروان الجعدي يتبين من عنقـــه بموضع السيف . غير انه تحامى قتله مخافة التمادي في اراقة الدم وصبّ الزيت على النار. يكفي الدولة الأموية ما احتزّت من رؤوس الهاشميـــين . وتمادى في احتقاره وشماتته وهو يصيح بجنده : اقفلوا عليه باب السجن . من ينكر ما فعلت يداه ليس جديراً بضربة سيف تخضب عنقه بالشرف الحميّ !

ورشق الامام بنظرة ساحقة لو شبّت نارها لارتجلته هيكلاً من رماد !

Twitter: @ketab_n

٥

قلقت العمائم السود في مستقرها . فالهاشميون ، على بكرة ابيهم ، في ارعاد وازباد،وقد شكّ في آذانهم نبأ القبض على ابرهيم الامام وليّهم وجامع شملهم ، ومشيد رجاوتهم . فاحتشدوا في دار عمه عبد الله بن علي ، يدبرون الفتنة ويتآمرون بغيظ فوار في اعلانها .

وعبد الله اشدهم احتداماً ، وهو أطولهم سيفاً ، وأسبقهم الى خوض المعارك وأعلمهم بتنظيم الصفوف . فيهز برأسه ، والدم يكاد يفور من عينيه ، ويضرب كفاً بكف ، ويتلوّى ، ويقول بفحيح يتفجر دمدمة محرقة على شفتيه : عيونكم لم تبصر ما ابصرت عيناي . والله ، تراءى لي بنو هاشم كالنعاج تساق الى المسلخ ، ورأس زيد بن علي يعرض في الرصافة تشفياً وارهاباً . ولقد ناشدتني هامة زيد ، على خرسها ، ان انتقم لي من الظالمين . فعاهدتها على الاخذ بالثأر . وان فؤادي ليقطر دماً كلما تمثلت الفاجعة وتخيلت رأس ابن عمنا ، المضروب العنق ، متدلياً في يمين الجلاّد يشكو الحيف . وبدا لناظري هشام بن عبد الملك ينتفخ ويتوعد مستهيناً بنا ، نحن حفدة الرسول . والى متى هذا الخنوع في بني هاشم ، تنزل بنا الطعنة اثر الطعنة ونحن كالاخشاب ؟... هل ضاع منا الحس وبتنا من العجماوات تضرب في اعناقنا المطاول ويُنجرّ الى المخازي؟... وحقّ من انشأها من عدم ، لست ارضاني هاشمياً اذا اطعت صبري في هذا الضيم المبيد !

فنصره اخوه صالح في تظلّمه . قال عبد الله بهياج الملسوع ، الممتهن على رحيب الجاه : أترضى ، يا ابا العباس عن هذا الاستخفاف بمكانة الهاشميين ، وأخوك ابرهيم يرسف في دهاليز مروان بالمهانة والشنار ؟... ابرهيم إمامنا

Twitter: @ketab_n

ورايتنا في يوم الثارات ، فهل تريده على المذلة ؟... لا تحسبنّ الجعدي الحمار سيعفو عنه فتسلم عنقه . لا ، وحقّ ابيك ، ستنزل به الضربة فتذروه في الرياح السوافي . ان مروان ينتهز للفتكة الحين المؤاتي . ولم يمسك به عن ارواء نصلته من دم الامام سوى خوفه من احتراق الدولة الاموية بنار الثورة المتبرمة بالانتظار !

وابو العباس في شرخ شبابه . اقبل من الكوفة الى دار عمه عبد الله بن علي ، الضائعة في مصبّ الخابور من الفرات ، يصحبه اخوه ابو جعفر ذلك السيف المصلت الرهيب . وتولاهما غضب دفين آثرا به الصمت على البيان المحموم . بل هما رقبا ما سوف يكون من بني اعمامهما الكثر المحتشدين في المؤتمر الاربد ، كأنهما يتعمّدان ان يتعرّفا مبلغ وفاء الهاشميين لاخيهما ابرهيم الاسير !

أما وقد ساق عبدالله بن علي الحديث الى ابي العباس فلم يبق للسكوت مجال. وتحركت شفتا العباسي بالصوت الرزين على اختلاجه بالزفرات الحرار . قال : بتنا في ظلّ الامويين حمى مباحاً . تُسدّد الينا الفواجع دراكاً ، كأننا لها اهداف . فلا يعلو فينا ذو همة حتى يقتطع عنقه السيف الاموي بلا تؤدة .. فاذا راعهم سعينا لامتلاك الخلافة فالخلافة حقّ من حقوقنا ونحن ابناء عمّ الرسول . ولكنه حق سلبنا اياه الحسد والعدوان . ولست أدري ما أقول في هؤلاء البغاة وانتم ترون ما ينضّ لعيني ، وتلمسون ما تلمس يدي . فالاستطالة علينا جاورت الزراية باحسابنا . وعلى مَ تريدونني لاتقاء الشر المستطير ؟

فصاح عبد الله بحماسة جيّاشة : نريدك على الثورة ، يا ابن اخي . ليس من اذكاء نارها بدّ . وهيهات ان تقع منها على موعد يؤاتينا كاليوم الطالع. نحن نشعلها في العراق ، وابو مسلم يضرمها في خراسان . قم وادعنا الى الفتك بالامويين ونحن طوع يديك ، يا ابن اخي !

فقال ابو العباس : نعم الرأي ، يا عمّاه. فالثورة تشتهيها نفسي وتسعى اليها قدمي . ويبهجني ان تفكّروا فيها مثلي . فالحطب في يبس . والنار على جوع . والريح الى هبوب !

Twitter: @ketab_n

فتلظت الصيحات : الثورة ، الثورة !... يا لثارات الهاشميين !

وحنّت الجوارح الى الفتنة، وابتغتها الاحقاد . فمنذ قيام معاوية على شؤون المسلمين واللعنة اقلّ ما يلقى بنو هاشم من ذرى المنابر وفي صدور المجالس . ولقد سئموا هذا الهوان المضروب عليهم ، وتشهّوا الخلاص من جو الارهاب والذل . فكأنهم دون النفاية . قال عبد الله : لنكتب الى ابي مسلم في خراسان نبلغه ما استقرّ عليه الرأي ونتفق واياه على موعد نكون فيه جميعاً على أهبة !

فقال ابو العباس : ومن أولى منك بالكتابه اليه ، يا عمي ؟

والتهبت العيون ، كالصدور ، بالرغبة في النجاة . وان لم تكن نجاة فموت يصون الاحساب ، ويستبقي الكرامات. وانتثرت الحلقة على عزيمة بعيدة الغور: « الموت للامويين !... » . وما خلت الدار ، وثوى عبد الله بن علي في مقعده يفكر في ما يخاطب به ابا مسلم لابلاغه ما اتفق عليه القوم ، حتى علا صوت منسجم الغنّة يقول : ابي، على مَ عوّلتم في ما تآمرتم فيه ؟

فابتسم . هذه ميمونة ابنته تقبل اليه في مطاوي الليل . وهو يأنس بمخاطبة هذه الريحانة النضرة ويعجب بذكائها الريّان . فيطلعها على امره ، ويستشيرها فيه . وميمونة سمعت ، من شق احدى النوافذ ، ما تبو ل من آراء ، وما انطوت عليه النيات . ولم تفتها كلمة من اقوال هؤلاء المتوافدين الى دار ابيها من العراق ، ومن جميع انحاء الشام . الا انها رامت استدراج هذا الاب الى الايضاح كي يتسع لها النفاذ عفواً الى نصرة عبد الرحمن بن معاوية في مطلبه . قال عبد الله وبسمته تملأ وجهه ، وتترقرق في تضاعيف لحيته : عوّلنا على الافناء ، يا ميمونة !

فتجاهلت وقالت : إفناء من ؟

فتعجّب من جهلها واستفهم بعتب: ألا تعرفين من نستطيب القضاء عليهم ؟.. ولكنهم اولئك الذين اغتصبوا حقنا وتنقّصونا . وكلما نضجت ثمرة من ثمارنا اقتطفوها عابثين بنا . عوّلنا على افناء الامويين !

Twitter: @ketab_n

وشمّت كلماته عن الغضبة والغبطة . فسألت ميمونة : على بكرة ابيهم ؟

فأجاب بقوة : على بكرة ابيهم . ولن نبقي منهم جرثومة . ثورتنا ستذهب بالشيخ وبالوليد . فلا نرحم شيباً ولا شباباً ولا طفولة . ومن الحمق ان نصون دم ابن يوم من المتجنّين علينا . فالثعبان سليـــل الافعى ، والثعلب وابن آوى صنوان . لن نرفق حتى بالمقعـــد الكسيح ، وسنهدمهم كما هدمونا . حان يوم الانتقام ، يا ابنتي . ولمثلك ان تنكر اباها ان يكن ذلك الجبـــان الغمر . هي ثورة إفناء وإحياء معاً . فيعيش ارباب الحق الوضّاح ويموت المغتصبون . أي ان الحق هو الثائر ، وهو المحرر . ولاجله نبذل الروح !

فارتاعت . وما روّعها القضاء على الامويين ، بل كون عبد الرحمن ، صفيّها ، منهم . فالسيف الضارب الحزمة لن يعفّ فيها عن قضيب . قالت : وهـــل احتشدتم لتعيدوا تمثيل فاجعة كربلاء ؟

فاجاب بنفرة الحقد وقد اوجعته الذكرى : فاجعة كربلاء كنا لها حطباً . أما كارثة الغد فسيكون الامويون وقودهـــا . ناشدتك الله ، لا تستشفعيني في الامويين !

ودرى ، من انقلاب سحنتها ، ومن جريضها ، انها تطمع في شفاعة ، ومـــا تستحلّ اراقة الدم . قالت بازدلاف نديّ : أيشوق عبد الله بن علي الغـــدر بالناس ؟... هل دعا اليه اخوته وابناء اعمامـــه ليعرّض صدورهم للاخطار ، ويجشمهم المشاق ، فيما يدفعهم الى الثورة ؟... أليس بين الأمويين جميعاً فئـــة يصونها من الهلكة نزرٌ من تقى وصلاح ؟

فاطلق ضحكة الذئب الجائع حيال الغنيمة الوازنـــة ، وقال ينعم بشفاء حزازته النغرة : لا صالحات في الحيّات ، يا ميمونة . فالسمّ في ناب كل أفعى . سنقضي على الجميع !

– بلا استثناء ؟

– بلا استثناء . هذا ما اتفقنا عليه قبل ان ينتثر عقدنا. فالحكم شامل مبرم!

Twitter: @ketab_n

– ولكن الامويين ابناء عم الهاشميين وكلنا يرجع في نسبه الى قريش ، الاسرة الجامعة. أيقتل الهاشميون أبناء اعمامهم ؟... حذار من سخرية التاريخ، يا ابن علي !

فاعجب بمنطقها وفطنتها . الا ان هواه سدّ عليه سبل الاقتناع باجمعها . قال يقرع الحجة بالحجة وفي نبرات صوته لذعات من غيظ دميم : كان على الامويين ان يستهدوا بهذه الحكمة ، يا ميمونة ويكفونا شرّ تنكيلهم بنا . فلم يفعلوا وقد انكروا صلة الارحام بيننا وكانوا فينا كالاعصار في كثبان الرمل . نثروا في كل صوب هاماتنا وما ذكروا الله في اعراضنا . فما قامت نبوّة الله فينا حتى أوغر الحسد صدورهم علينا وبتنا في عيونهم قذى. قاتلوا منا عليّاً ولعنوه في مجامعهم ودسّوا السم لابنه الحسن . ورجموا الحسين ، وبطشوا ببنيه واخوته وابناء اخوته واعمامه وحفَدته . أما تعلمين انهم ذبحوا في كربلاء مئة وخمسين شهيداً من أبناء علي ؟ وفتكوا بزيد وبيحيى . وان ابرهيم الامام ، ابن اخي لفي قبضتهم ، ولن يسلم من غدرهم . وحتى مَ نصبر على الضيم والريح مسعفة ؟ فالقوم في خراسان إلبٌ واحد على الأمويين. والفتنة في العراق واعدة بالشبوب ، فما ان نومىء حتى تندلع ، وكأنها تقضقض في يابس الهشيم . ألا دعي عنك الحلم ، يا ميمونة . هذه نهاية الطغاة الظالمين !

– والتاريخ ؟. والتاريخ ، يا ابتاه ؟

فهز برأسه هازئاً بحكم التاريخ وقال : لم يرعوا جانبه ، فلن نرعى جانبه . علينا أن ننتصف مما لحقنا من عار ، وعلى التاريخ ان يعدل بيننا . أصدق شرعة ، يا ابنتي ، شرعة : « سن بسن وعين بعين ! » . هم بدأوا والبادىء أظلم . وما ظالم الا سيبلى باظلم . وربك عدو الظالمين !

وتغنى بالآية : « وسيعلم الظالمون أي منقلب ينقلبون ! » . فقالت ابنته تنافح عن مذهبها في الرأفة ، والنصفة والحلم : اذا تسفّلوا وهانوا ، فلن يضيرنا ان نبدو أصفى طبعاً ، وأسمى خلقاً . فان نجد فيهم من تنكب عن الهدى ،

Twitter: @ketab_n

فليس لنا ان نتعامى عمن دان بالحق وألف الصواب !

فصاح : ومن دان منهم بالحق وألف الصواب، يا ميمونة،من ؟... افصحي، افصحي !

فاعلنت بضاء : أتجهل عمر بن عبد العزيز وقد منع شتم علي ؟

– عمر بن عبد العزيز ليس من طينتهم . هذه نغمة شذّت عن كريـــه اصواتهم . ولفرط حقدهم عليه طبخوا له السمّ . هل لك أن تذكري سواه في الطغمة اللئيمة ؟

فوثب الى شفتيها اسم عبد الرحمن . ولاجل عبد الوحمن تولت الدفاع عن الامويين . بيد انها خشيت اذا تلفظت باسمه ان يأخذ عليها أبوها ما لا تريد ان ترمى به. واستبطأ عبدالله جوابها. فعدّ عليها بطئها افحاماً وقال بارتياح الصادق اليقين: أرأيت ان ليس في الحنافس طيب ، ولا في الذئاب صلاح، يا ميمونة؟.. كلهم للسيف . وقد يكون السيف غالي الثمن في استئصالهم . فلنذبحنّهم بشسوع النعال !

فلم يبق لها في المداورة متسع . وشعرت بما يدفعها الى النطق مستشفعة أباها في عبد الرحمن ، حبيبها ، وان نالتها في التصريح المذمة . قالت وروح التضحية يسود نهيتها : واذا طلبت الى ابي ان يتقي الله في احدهم ، أيفعل ؟

فساورته الريبة . غير أنه دفنها تناهياً في الاستجلاء . قال برفق مصنوع : في من، يا بنيّة ؟

فارتجفت شفتاها ورقصت حنجرتها كأنها تفضي بمنكر . وأطرقت وهي تتمتم بوجل الخشيان : في عبد الرحمن بن معاوية بن هشام !

فكأنها لطمت وجه أبيهـا . فانتفض عبد الله والاسم يثقب أذنيه . ورمى ابنته بنظرة تندلع منها الظنّة . وخشن صوته. فقال بجفاء لاهب: في عبدالرحمن بن معاوية بن هشام ؟... لماذا فيه ، لا في سواه ؟... أتعرفين الفتى ؟

Twitter: @ketab_n

فهالها الوعيد المتطاير من ثنايا كلماته . وشاءت الانكار فلم تقو عليه فلزمت الصمت . فامسك ابوها بمعصمها والسخط يغلي في دمه وقال بنزق ضاع فيه رفق الابوّة : أتعرفينه ، يا خالعة الحياء ؟... وكيف عرفتِه ؟..وأين ؟

واشتدّ به اللهاث . وتولّت الرعدة ميمونة فعقد لسانها وارتجفت ركبتاها. فضغط ابوها يدها حتى كاد يسحقها. وتفتّحت شفتاه عن نواجذ حداد، وأعلن بصوت عميق راعب كوحشة الليل في الأرماس : لا كنت عبدالله ابن علي إن لم اقتلك الساعة اذا مضيت في صمتك . أين عرفت الفتى ؟.. وكيف ؟

وساد ذهنه ان بين الفتاة وعبدالرحمن بن معاوية صلات حب وهوى . وخشي ان تكون صلات اثيمة فاختبط عينيه الدم . ولم ترّ ميمونة بدّاً من الايضاح ، فقالت بصراحة لا تبالي فيها نقمة والدها ، وقد زانتها نصاعة الجبين: لا يقلق عبدالله بن علي . ابنته لا تبرح معتصمة بتراث الشرف المتسلسل الينا كابراً عن كابر . عرفت عبدالرحمن يوم دللتني عليه في نزهتنا على ضفاف بردى . ووقعت منه موقعاً رضيّاً فدفع إليّ من يحدثني بميله إليّ وشغفه بي !

لكأنها خلعت قلبه . فانتصب على قدميه وقد فارت ضغائنه ، وغشيت موجة من النار عينيه . فرفع يهدد ابنته ويكاد يهجها بقبضته ، وجلجل بزعقة الموتور : أيهواك فتى أموي،انت ابنة عبدالله بن علي؟.. يا لفضيحة الهاشميين!... ماذا فعلت بعصبة التيه المطوّقة هامة أبيك ؟... لقد ثلمت فيها المنعة واطفأت اللألاء . ووالله ، لاقتلكِ واغري بك النار . وهل لقيت الفتى ؟

وشاء ان يخفف في نفسه من ألم الخطب . فاذا لم يجمع بين الشاب والفتاة موعد فلا ضير على فؤاد أحبّ ولم يتمتع بلقاء . وأبت ميمونة ان يشوب خلقها كدرة ، وان تجبن في حبها ، فملكت الجرأة على القول : عوّدني أبي الصدق في القولة ولن يسمع مني غير الحقيقة المجلوّة . لقيت الفتى الأمويّ ، ولكن على عفّة ونبل !

فاطارت منه نزقة الصواب . وغرزت أظفاره في راحتيه اضطغاناً وحنقاً .

Twitter: @ketab_n

وضاقت به انفاسه فكاد يختنق . وهمّت يمينه بأن تقبض على عنق هذه الابنة الهاتكة عرض الهاشميين فتقصفها، الا ان الحيرة في اليقين، وفي التدبير، رجحت نقمته، فبات كالمشدوه . فما يصدّق انه فُجع بكرامته في ابنته ، ولا يؤمن بان ما يقع في مسمعه على ذرة من الصحة ، وما يجهل عفة ميمونة . ومضت ابنته في الحديث تقول بوضوح في الخبر ، كأنها على اعتقاد مبين انها ما ارتكبت اثماً ولا شوّهت مصوناً : أجل ، لقيت الفتى الأموي فيما نسكن دمشق ، وتبادلنا أحاديث الوجد . فان يكن في ما اقدمت عليه غضاضة ومذلّة فليقطع عبدالله بن علي رأس ابنته المستهترة ، وليس لها على حكم يعلنه ابوها اعتراض !

ووقفت منه موقف الصدق والاقدام يزينه الامتثال للمشيئة المقدورة ، فزادت في ارتباكه ، وامسى لا يدري ما يعتمد فيها . أيسفك دمها ، واقرارها بفعلتها يهيب به إلى سفك دمها ، ام يعفو عنها وفي العفو ما يبيح التمادي في المضلّة ؟

ولم يستطع ان يعيب عليها هيامها بفتى دون مقامها . وعبد الرحمن بن معاوية لا بالنكرة ، ولا الحشرة ، وهو ابن اقيال واقطاب سادوا ولا يبرحون على جلالة . اميرة شغفت بامير . وكل ما نقم عليها فيه ان تهوى عدواً من اعداء ابيها واسرتها . قال والالتباك يروّض فيه الغضبة : ميمونة ، لا كنتِ !... هدمت معقل الشموخ في ابيك . كان عليّ ان اذبحك كالنعجة ، ولكن صراحتك مالت بي الى الايمان بانك استبقيت طهارتك وما خدشتها بشين . انت بعد اليوم اسيرة في هذه الدار ، لا تبرحينها ولا تخاطبين احداً فيها . واني لامنعك من المثول امامي . فلن تأتي اليّ بسوى دعوة مني . ولن تخاطبيني كابيك . انا لست اباك ، وقد جنحت الى عدوّي . وأقمت عتبة ، أمتنا النجاشية السوداء ، حارساً عليك ، فتحمل اليك مأكلك ومشربك وتبلغك امرنا فيك . الى « حلقة الحديد » ، يا مشؤومة الجبين !

وصفق ، فاطلّ احد خصيانه . قال والجهامة تنحت في اساريره : اين عتبة ؟... جئني بها الساعة !

Twitter: @ketab_n

وجهل ما يقول وما يفعل . ابنته ميمونة ، أحب الناس الى قلبه ، سميره ونديمه في محلولك الدجية ومخضوضر الانس ، كأنها لديه مستشرف الدنيا ، تهوى عدوّه ، وابن عدوّه . وأحسّ بالفجيعة تلوكه بطواحنها العراض، فرهب فتكتها . فمن الصعب ان يجفو ، ومن الويل ان يعفو . على ان القصاص بدا له خيراً من الحلم !

ولم تضطرب ميمونة وحكم ابيها ينزل بها . هذا جزاؤها منه وانها لراضية بجزائها . غير انها شاءت ابلاغه رسالة عبد الرحمن بن معاوية مهما أصابها من بطشه . قالت بصفاء في النبرة : ابي قضى وانا رهينة قضائه . واذا أباح لي الكلام اطلعته على خطاب عبد الرحمن بن هشام بن معاوية اليه . فهو يسأله لماذا يتطاحن ابناء الأعمام ؟

فنضنض مقوله : دعيني من ترّهات النكس . كان على الباغين ان يذكروا العمومة وهم يبطشون بنا . مصيرك أُبرم فامشي الى مصيرك !

واقبلت كهلة سوداء ، شمطاء ، تقبل الارض بين يدي عبد الله بن علي . فتنكّر عبد الله ازاءها لكل عاطفة من عواطف الابوّة وقد صاح بصوت نفور اجشّ : عتبة ، دونكِ الحمقاء الطائشة . سيري بها الى « حلقة الحديد » واسجنيها فيها وامنعي عنها رؤية النور والمخالطة . لا تطعميها الا بمقدار ، ولا تسقيها إلا بمقدار . واياك ومساقطتها الحديث . إذا باغتّكما في مكالمة ، هدمت عليكما الجدران !

فنظرت اليه عتبة بذهول ووجل . ماذا تسمع ؟... هل جُنّ عبد الله بن علي فقضى على ابنته بالانزواء حيث يعاقب الشذّاذ الانكاد ؟... ولكن ميمونة ريحانة نفسه ، فما به يقسو عليها حتى الموت ؟... قالت عتبة وهي تكاد تكون في خبل : نفسي فدى سيدي ، أجادٌّ هو في ما يدعو اليه ؟

— الجدّ كله ، يا عتبة . إنقذيني من مرأى الشقيّة البغيض !

فقلبت شفتيها وقد ازدادت تعجباً مما ترى وتسمع ، وقالت مستطلعة كأنها

Twitter: @ketab_n

لا تزال ترتاب بما يلقي اليها : والى أين اسير بها ؟

فدمدم عليهـــا بفحيح : أتجهلين مفر الجهّال ؟... الى « حلقة الحديد »، يا ابنة الاثم !

فتطايرت صيحتها بدامغ الهول : أإلى حلقـــة الحديد ؟... محبس العصاة والشذاذ ؟

– سيري بها اليها واحذري اعادة السؤال ، لا أمّ لك !

فمانعت في الاذعان واعترضت برطانة عذبة : ابنة عبد الله بن علي اسمى من ان تهوي الى هذا الحضيض !

وهي ذات دالّة عليه . فنفرت به اليها الحفيظة يكاد يدقّ عنقها ورعـــد : أتعاندين، يا فاجرة ؟... ألا أطيعي وإلا سحقتك نعلاي !

فبرطمت . غير انهـا امتثلت وهي تجمجم : سيدي عبد الله بن علي أضاع عقله . فويل الابناء من الآباء !

وامسكت بذراع ميمونة تجرّ ابنة سيدها الى « حلقة الحديد » ، وهي تقول بلوعة وطفاء : تعالي، يا ابنتي . مشيئة أبيك نافذة وان يكن فيها على مستفحل الضلال !

Twitter: @ketab_n

- ٦ -

الباب يُطرق في دار سليمان بن هشام بن عبد الملك في الرصافة وقد التفّ الليل بجلبابه الفاحم ، وعرا النجوم الخاشعة في كبـــد الفلك شحوب السقم . فكل من اظلته تلك السماء نام او جرّ قدميه الى المرقد مستسلماً الى تهويم هنيء . غير ان سليمان ما برح ساهراً يقلّب الرأي في مصير الدولة الاموية القلقة المثوى، المهدّدة بالفتن من جوانبها جميعاً ، الصائرة الى الانهيار . وغمغم بحرقة : أضاعنـا مروان !

وساورته الشماتة . الا انه ودّ لو قبض بيمينه على الصولجان الاموي فيصونه من التحطيم . وسليمان حاقد على مروان الجعدي وقد جاوزه في الشوط وتسنّم ذروة الخلافة وسليمان يطمع فيها . فناوأه وحالف عليه الهاشميين،وابو العباس ، شقيق ابرهيم الامام ، السجين في دهاليز الجعدي ، في طليعة من ظاهره سليمان من خصوم السلالة الاموية ومناكديها !

وعرف سليمان القهر والخيبة . وعاتبه بنو أميّة في جنوحه عنهم ، فما أصغى الى عتاب . قالوا : أيفتك بعضنا ببعض ، يا سليمان ، فنهدم مناعتنا بايدينا ؟

فاجاب : اذا رضيتم بان يسودكم هذا الحمار ، فوالله ، لست ارضى به سيداً. ولا عبداً . فاما انا او هو !

وزاقه لقب « الحمار » يُطلق على مروان لطول صبره ومضاء جهاده. وتشهّى ان تستعر فتنة عريضة الملاءة ، بعيدة الامد ، يهوي بهـــا الجعدي عن أريكته لتنتهي الخلافة اليه،هو سليمان. وفي يقينه انه بها أحقّ الناس، وابوه هشام خليفة،

Twitter: @ketab_n

وجده عبد الملك خليفة ، وجد أبيهم مروان بن الحكم خليفة ، واعمامه خلفاء . وقد استقرت الخلافة بمثواهم زمناً طويلاً . فلماذا لا تواليه ؟ وعضد ابا مسلم في قلاقله . وحرّض في العراق على الثورة. ودرى به مروان فضحك منه واستخف به . مقهورٌ يتعثّر بحقده . وزادت سخرية الجعدي في ضغينة ابن هشام. فزمجر سليمان غيظاً على غيظ يكويه الالم المجتاح .

وما تعجب وهو يسمع الباب يُطرق ، ونصف الليل ينشر اذياله. فقد تعوّد ان يرى الناس يهرعون اليه في العتمة ، ولا سيما الى مأواه في الرصافة ، الى قصر ابيه . وهو مأوى من النـــادر ان يبيت فيه ، ومروان يبثُّ عليه الارصاد ، ويجاهد في إمساكه . الا ان سليمان كان يلمُّ بالرصافة كعابر سبيل ، لرؤية نسائه وابنائه ، او لتدبير مكيدة ينسف بها دولة مروان الحمار !

انه لأشبه بعبد الله بن علي في هذه الناحية . فكان عبد الله يستقرّ بدارين ، دار في الكوفة ، ودار على ضفاف الفرات فيقف منها على اخبار عاصمة الامويين. بل كان يتورط احياناً فيقيم بدمشق ، ولا سيما عندما ينتقل منها الخليفة الجعدي الى حرّان مقامه المختار ، وقد انشأ فيها قصره الانيق !

وأبى سليمان ان يستطلع امر القادم . فمشى بنفسه الى البـــاب يفتحه على حذر ، ويتبيَّن الزائر المفاجيء. وعرفه فقال مستوضحاً ببشاشة رضيَّة: من؟... عبد الرحمن ؟... ابن اخي ؟

فعلا صوت يجيب بصفاء : انا هو ، يا عمّاه !

فامسك سليمان بيد الطارق وجذبه الى صحن الدار وهو يسأل بلجاجة : ما وراءك ؟

فمن المحال ان يقبل اليه ابن اخيه في مثل هذه الساعة من الليل دون ان يشدّه اليـه امرٌ ذو خطر . فاعلن عبد الرحمن بصوت يتقلقل لهفة : بطش مروان بابرهيم الامام ، يا عمي !

فنتأت عينا سليمان كمن بوغت بخطب جلل . واستبحث بشدة : هل سفك

Twitter: @ketab_n

دمه ؟... أأقدم الحمار على هذه الحماقة ، يا ابن اخي ؟

– أقدم عليها وهو الحمار . فطلب الى ابرهيم ان يكاتب ابا مسلم في قمع فتنة خراسان ، وما كاد ابرهيم يرفض حتى تدحرج رأسه في بهرة الايوان !

فتقلّب سليمان على غبطة وجزع . شاقه ان يبلغ الحمق بمروان هـــذا المبلغ الوخيم الوبال ، فيثير النار المغلّفة بالرماد ، وأوجعه ان يطير رأس ابرهيم اخي ابي العباس صديقه ، فيفقد الهاشميون ركناً أيّداً في مناضلة الجعدي الغاصب . إلا ان المسرّة لم تلبث ان رجحت في ابن هشام المساءة فقال : اذن لقد استفحل العداء . ولم يبق من سبيل الى دفع النازلة . ما أطيبها من بشرى، يا ابن اخي !

وبسمت له الآمال الجسام ، فأحسّ بالدنيا في قبضة يمينه . قال عبد الرحمن: ولكني لست ارى غير البلاء الاصمّ ، يا عمي !

فاستعلى سليمان هازئاً : أتشفق على مروان ؟

– بل أشفق على الامويين . فالفتنة نشبت في خراسان وقد اشعل حطبهـا أبو مسلم.ولا بد ان تمتد الى العراق بعد الفتك بابرهيم الامام . فيناحر الهاشميون الامويين ، ويقاتل الامويون الهاشميين . ابناء البيت الواحد يتصارعون والغريب يشمت بنا . ولقد جئت اليك ...

– في ماذا،يا ابن اخي ؟

– في اقناعك بالعدول عن مناوأة مروان والتوفيق بينـــه وبين الهاشميين ! فصاح في سليمان الغضب الفوّار وقد هالته المباغتة المستهجنة : عبد الرحمن ، هل اعترتك جنة ؟... أتنسى مـــا بيني وبين ذلك السلّ من إحن ؟... ولكني سبقت الهاشميين الى مقاومة الخليفة الحمار ، وسأظلُّ السبّاق . فمن العار علينـا ان يتبوأ المأفون المقام العالي فينا . عمك أولى منه بالخلافة وان يكن رهط من الامويين نصره عليّ في البيعة . عبد الرحمن ، لا تأسف على دولة من لا خير فيه. نفض سداد الرأي وحسن التدبير ايديهما من صاحبك الأخرق !

Twitter: @ketab_n

وضمّ ابن اخيه الى صدره وهو يقول : وتربة ابيك معاوية ، اخي ، وحق جدك هشام ، اننا لمغبونون في هذا الجلف المعتلّ النهية . لنهدمنّه ، يا عبد الرحمن ، بسواعدنا وسواعد الهاشميين ولن تطير الخلافة منا . فلا يبرح الامويون سادة المطمئن العربي على متمادي الوسعة . عدا ان بني هشام عاهدوني على المبايعة يوم ينجون من شبح الجعديّ الدميم !

— وهل صدقتهم ، يا عمي ؟

وضحك عبد الرحمن ضحكة عابثة ، شفّت عن ارتياب ساخر . قال سليمان : لم ألمس فيهم غير التأييد والمودة ، فلماذا لا أصدقهم ، يا ابن اخي ؟

وبلغا قاعة الدار واستقرّا بصدرها ينيرهما سراج تلهو به ريح لينة . وادهش عبد الرحمن ان يكون عمه على هذا الفيض من صفاء النية ، فيؤخذ بوعود خادعة قطعها له الهاشميون وهم يبغون هدم الدولة الاموية على بناتهـــا . وقد كادوا يختنقون في ظلها المضني . قال يعاتب ويشير : يؤلمني ان تثق بهم ، يا عماه ، وقد ناوأوا اباك وجدك وسلالتنا على بكرة ابيها . فمن قوّض زعامة ابي سفيان ، وفتك بعثمان ، وغالب معاويـــة ، وعصى يزيد ، وأقلق مروان ، وصاول عبد الملك ، وثار على هشام ، لن يعفّ عنك ، يا ابا ايوب ، وأنت فرع من أصل . صفاء طويتك يضللك ، يا عمي !

فانتفض سليمان واعلن بمرارة : اعتقد اني لست على مضلة . ومن ساء منكم نهجي فليربأ بنفسه من اقتفاء خطوي !

فما تنكر عبد الرحمن للهجة الاقناع اللينة والمحرّضة على طراوتها ، فقـــال يعتمدها : على الأمويين ان ينصروا الأمويين ، يا عماه !

ولكن سليمان الراكب طماحه ابى ان يتثني ويصيخ الى رشد . والرشد في معتقده ما يفضي به من رأي . فاستوضح بتهكم تجمح بـــه الزراية القارصة : أتريدني على مظاهرة مروان ، يا ابن اخي ؟

— اريدك على توطيد أسّ هذه الدولة المهددة بالفناء . فانك لذو امل بالوصول

Twitter: @ketab_n

منها الى حيث تشاء وهي منيعة الركن وليس مروان من الخالدين . امـــا اذا هوت فقد هوينا جميعاً وكان ابو ايوب في قافلة المتداعين !

ـ أنا ، يا عبد الرحمن ؟

ـ أنت ، يا عمي . فلا تركن الى الهاشميين . فانهم ليستضعفونك وأنت تميل عنـا لتنجدهم ، ويجرفونك وقد طمى سيلهم كما تجرف الساقية الهادرة مستدق الحصى ونثير القش . ولا يغرنك فيهم عذب المبسم ، وجميل الملقى ، وتحت لين الملامس مكر وغدر وبطش. وخير ما تفعل ان تستعين بهم على هدفك . فتوفق بينهم وبين مروان وتسند بهم الدولة الأموية الهاوية . مما يكتب لك الخلافـــة ويضمن لنا البقاء . لن يعيش مروان حتى ابد الأبيد ، يا عماه !

فصاح سليمان بحنق : عبد الرحمن ، انك لفائل الرأي . أتكون رسول مروان الى عمك ؟... لو حدثني سواك بهذا اللغو المنكر لجمعت بعضه الى بعض وطرحته من أعلى هـــذا الدار اخبط به الأرض . ولكنك ابن اخي . واني لاحتمل فيك الجرأة عليّ . غـير اني احذرك من التمادي . أتطلب مني التوفيق بين الجعدي والهاشميين وصاحبك لم يغسل بعد نصلة باتره من دم ابرهيم الامام ، قطب بني هاشم ؟... انك لغبيّ ، ويحك ... مروان جنى على نفسه بيـــده . فليذهب طعمة نار أضرمها . ما أنا عليه بالأسيف ، وحياة ايوب ، ابن عمك ، بكر اولادي !

فاعترض الفتى : ولكن انهياره يجر الى انهيارنا ، فتخزى انت قبل الجميع!

فدمدم عليه سليمان وقد ضاق بالاستطالة ذرعاً : أنا ؟... لا أم لك !

ـ انت ، انت ، يا سليمان بن هشام بن عبد الملك !

فارتفع من وراء ستار مسدول على احد ابواب القاعة صوتٌ عذب الرنّة ، مع كل خشونة تهدر فيه ، منتقصياً بنفرة: من هذا المندد بابن هشام بن عبدالملك؟

فارتعش عبد الرحمن . عرف الصوت . وتكلف سليمان الابتسامة فقـال :

Twitter: @ketab_n

زينب ، ابنتي ، خففي عنك . لا بأس على المندد بنـــا . هذا عبد الرحمن ابن عمك . ألا تزالين حتى الساعة مؤرقة الجفن ، يا نور عين ابيك ؟

فانفرج الستار عن قامة تشد صُعداً وتمشي الى صدر القاعة بخطى موزونة . ولما دنت من السراج لاح فيها وجه يتدفق سنى ، إلا انه بادي الكمدة . وحيت بجفاف ودلّ ، واستقرت بجانب أبيها . فقال عبد الرحمن : ألا تزالين ساهرة ، يا زينب ؟

وهي لم تكن تقوى على النوم . فالخيبة في حبهـــا رمتها بالأرق وشراسة الطبع . وتمثلت عبدالرحمن فيما الباب يُطرق كأن همساً خفياً أسرّ اليها ان الفتى أقبل. وما مشى ابوها الى الباب يفتح للطارق ويقوده الى صحن الدار حتى نهضت من فراشها وأطلت من كوة في حجرتها تتبين المفاجيء ، وراعها ان يصدق حدسها. هذا ابن عمها الفاتر في مودتها وقد امتد صوته الى مسمعها . فاختلجت وشعرت بالبرد يتغلغل في دمها . فارتدت ثيابها على عجل . ورغبت ، بفضول ملحّ ، في ادراك الباعث على مجيء عبد الرحمن . فاي ريح قذفت به في مثل هذا الموعد ، والليل في بهرته ، مسترخي الاردان ؟

ولاح لها بارق امل رفّه عنها ، على ضؤولة وميضه . ولمـا جلس الرجلان في القاعة حبت الى ما وراء الستار المضروب وانصتت الى ما يدور عليه الحديث . فعادت اليها خيبتها . عبد الرحمن لا يتحدث عنهـــا . وشاءت ان تظهر إزاءه بنفرتها فصاحت تلك الصيحة المتوعدة . ولما سألها الفتى ألا تزال ساهرة اجابت بامتعاض واضح الكشرة : سمعتكما تتحدثان ، وكأنكما تتناقران ، فألقيت اليكما اذني ، وادهشني ان ينسلّ الينا من يعارض ابي في ما انتهى اليـه من هوى ورأي . فاستطلعت أمر الوقح السليط !

فاحتمل عبد الرحمن الوخرة على مضضها . وحاول ان يصرف ابنة عمه عن حنقها فقال : ألا اكون على صواب في ما ادليت به ، يا زينب ؟

فهاج فيها الحقد وابن عمها يسوق اليها الكلام عفواً كأن ليس بينهـا وبينه

Twitter: @ketab_n

أشياء . وضحكت ضحكة يموج في قهقهتها الاحتقار ، تعمدت بها ذبح هـــذا القاسي ، الممعن في الاعراض . وقالت : أتطلب مني الحكم لـك على ابي ؟... ولكني اخشى اذا اعلنت حكمي ان افضح فيك سمو الادراك . فاي شأن للغرّ حيال الناضج الرأي ، يا ابن عمي ؟

فلسعته الاهانة في كبده ، وصبر عليها بطول أناة . وساء اباها ان تستطيل على ابن عمها ، فقال ممسكاً بجماحها : زينب ، أتجهلين من تخاطبين ؟... هـــذا عبد الرحمن ابن عمك ، فما بالك تزجين اليه القول الجافي ؟... ألا يزال لغشية النوم سلطان عليك ؟

فتمادت في خشونتها لا تبالي نهي ابيها . قالت : اعرف ان لا حق لمن لم يعجم عود الدهر بان يعظ من خبر الايام وغاص على حكمتها !

فتجلد عبد الرحمن والوخزة تتلو فيه الوخزة وقـــال : زينب ، لستُ بمن يجرؤ على الادعاء انه بمقام ابيك . فان اباك لعميدنا ومرجع الامر فينا . ولكني لا اجد من الهضيمة عليه ان أُبادله الرأي بصدق واخلاص وانا اقرب الناس اليه، وأوفاهم له !

فاجابت بقسوة : هذا لجاج في فرض المشيئة ، لا مبادلة رأي. واني لاتعجب من سليمان بن هشام كيف يرضى ان تجبهه بغلاظة وقاح !

فلم يجد سليمان بداً من الشدة يعتمدها في حسم الجدل . قال بنبرة حزوم : ابنتي ، دعي عنك الغضب . لابن عمك علينا دالة الابن على ابيه . فليتكلم بما شاء ولن يسطو علينا حتى يمسك بنهيتنا عن رذل الفاسد واستساغة الوضيء !

فما فاءت الى الحلم ، وقد ظل حبها المقهور يلدغ فيها رحابة الصدر . فان اعراض عبد الرحمن عنها ، وهي البعيدة الزهو ، التيّاهـــة على فتيات العرب لروعة في الحسن ورفعة في المنتمى ، اقلق صفاء ضميرها ، وحطم منعتها . ولو استطاعت ان تستصفي دم هذا المدلّ عليها ، الهائم بابنة عدو الامويين الانكد، بميمونة بنت عبد الله بن علي ، لوثبت عليه تطفىء فيه جذوة الانفاس . قالت

Twitter: @ketab_n

وهي في جائح السعير : لا اعتقد ان سليمان بن هشام بن عبد الملك يجيز لمخلوق ، مهما سمت منزلته ، الطعن عليه في رأيه والرأي ما يبدي ، والصواب ما يقول !

فمضى عبد الرحمن في الصبر على المناكدة . وقال باسراف في اللين : أحسنت ، يا زينب . كلنا يرى في عمي الغمامة الصادقة الهَطَل . وجلّ ما دعوته اليه ان نتناسى ، نحن ابناء العشيرة الواحدة ، ما بيننا من محنة وبغضاء . يكسر قلبي ان تقيم قريش على منابذة وخصام !

فزادتها كلماته الخضلة غضباً ونفاراً . وتشهّت ان يتحطم قلبه ، بل ان يتحطم كله ، وهو أول من أحبت ، وأول من تجبر عليها . وقالت بسخر : زحزح مروان عن سرير الملك وعمك كفيل بتحقيق الطلبة !

فاكتفى بان يميل عنها الى ابيها قائلاً : ما هي كلمة عمي ؟

فما خرج سليمان في مقاله عما اعلنت ابنته . فقال عبد الرحمن بلهجة جازمة : لست ارى الخلافة تعود الى الامويين اذا هوى مروان عنها . فالهاشميون فتحوا لها اشداقهم ليتلقفوها ويبتلعوها . فاذا سادوا وهوينا ، فالخلافة لهم ما نعموا بالسؤدد والسلطان . فلنكن ذوي عقل ونظر !

فجبهه سليمان بلهجة الجزم نفسها : ولا انا ارى التوفيق بين الهاشميين والامويين مستطاعاً ومروان على سرير الملك !

– ألا سبيل الى اقناع بني هاشم بضرورة الالفة والوئام ، يا عمي ؟

– هم يرضون بالمسالمة حين ابدو لهم قابضاً على زمام الخلافة ، يا ابن اخي !

– واذا لم تظفر بهذه البغية ؟

– تظل الأمور كما ترى ، يا عبد الرحمن !

– أيهوي مروان ونهوي معه ؟

– بل يهوي وحده ونرتقي فنسود ، يا ابن اخي !

Twitter: @ketab_n

– كلامٌ باطل ، يا عمي !

فأعلن سليمان بتأفف : قل فيه ما شئت . قولتك لا تخرج به عـــن كونه حقيقة نطّاحة !

فسكت عبد الرحمن حيال المعاندة . من المحـال ان يسعى عمه للتوفيق بين مروان والهاشميين . وفي هذا التوفيق القضاء على آمال جسام . فان سليمان ليطمع في الخلافة . ويتراءى له ان بقاء مروان في دستها يحرمه اياها ، فعليه ان يجاهد في اقصاء مروان عنها .

وابنته زينب من هذا الرأي . وزادها استمساكاً به نفورها من عبدالرحمن. ولقد كانت تؤيد زحزحة أبيها عن معتقده لو حباها ابن عمها بعضاً من أُنس . أما وهو لا يحفل ببهرج الطلالة فيها ، وقد جاءها انه يهوى ابنة عدوهم الأكبر عبد الله بن علي ، فثارت عليه حفائظها ، وكرهت مرآه . ولن تمينه عـــلى الأرب . وللحب المجفو نقمة لا تهدأ وسلاحهـــا المعاكسة والكيد والدعوة على الجاني بالعثار والموت . والقلب اليائس اشبه بعقرب لا ترحم ومطلبهـا اللسع والبضع . وتأججت في زينب غيرتها ، فقالت : ولماذا لا تتولى ، يا عبد الرحمن، بنفسك ما تدعو اليه ؟..أفلا تكون على صلة مورقة بعبد الله بن علي ؟.. قيل لي انك من حلفائه ، ومن المروّجين له في الامويين . بل قيل لي انك تظاهره علينا. فما يقف بك عن اقناعه بالحد من ايغار الصدور علينا ، والامساك عن مناهضتنا؟

فلم يطق عبد الرحمن هذا الغمز المحموم من قناته ، فثار للكرامة وقـــال بغيظ يجاهد في كبحه ولا يستطيع : زينب ، خففي من فحيحك . اذا جاش فيك السم فلا تنفثيه في من يستهين باذاك . عبد الله بن علي ليس ألعوبة نلهو بها . حسبك ان تعلمي اننا في مقام رزانة وجد !

فبلعت ريقها وكاد يثب من عينها الدمع لفرط قهرها . إلا انهـــا تماسكت وقالت بمرح مصنوع : لست اراك تثبت على السم ، يا عبد الرحمن . لو شئت ان اكيل لك منه لصرعتك نفثة . غير اني اشفق على مثلك ان اداويه بما يجب في

Twitter: @ketab_n

مثله وانت في الامويين تفاهة ، وسخافة لدى الهاشميين مع هيامك بابنة عبد الله ابن علي . فلا تقضي هنا ولا تمضي هناك ، كالغمر الغرّ !

فصاح بها أبوها وقد أوجعه مقالها الخبيث : زينب ، هلا طويت لسانك العضوض ؟

فقال عبد الرحمن بهزء ناتىء كالمخرز : دعها في هرائها ، يا عمي . فهي تستطيب اللدغ كالصلّ !

فأضاع ظاهرة الصبر فيها . وطفر دمعها على كره منها فكادت تختنق بنشيجها . فحار سليمان في ما يرى وما يسمع . ما بال ابن اخيه وابنته على خصام ؟... فان ما يتبادلان من حديث داعر يدل على حفائظ دفينة . ووقف منها في شده لا يدري به من يستوضح ، ومن يلوم . وألقى يده الى خصر ابنته يضم اليه هذه الباكية الجازعة ويقول : زينب ، كنتِ على عبد الرحمن أشد منه عليك ، فما يحملك على البكاء ؟

قالت ودمعها يلمع في خديها : ابن اخيك يلعب بدمي . هو يريد موتي !

فهالته كلماتها وحسبها تهذي . واستعادها ما تفوّهت به مستفهماً : ماذا ، يا ابنتي ؟

فجلجلت بغمرة من نواح : ابن اخيك يريد ذلي . ألا ترى مبلغ استهانته بي ؟

فاعلن بارتباك انتصر به لابن اخيه : بل اراه وافر الصبر على الاهانة ، فما بكما في اصطدام ؟

فازدادت نحيباً . وادرك سليمان ان الامر بينهما أبعد مدى . زينب احبت عبد الرحمن فصدّ عنها . واحس ابوها فيها بالوهن فخشي ان يغمى عليها . فرفعها وقادها برفق الى حجرتها وعاد الى ابن اخيه وقد تبدل منه موقفه . فاضحى ازاءه ليناً ، رخو الشكيمة . وألقى يده الى كتف الفتى وقال بلهجة يبللها الألم : عبد الرحمن ، اصدقني الخبر ، بحياتي . لمست في حديثكما ما اقلقني . اذا صدق ظني فقد احبتك وسلوتها !

Twitter: @ketab_n

فخجل عبد الرحمن من عمه وندم على مجيئه اليـه . قال يتحامى الايلام : عمي ، دعني من التصريح ، فليس فيه جداء !

– بل تكلم ، يا ابن أخي . يجب ان اعلم . فلا تبخل عليّ بالحقيقة الصراح ، وقد لاح لي اني وقعت منها على ما لا اشتهي !

فتنهد الفتى وألقى رأسه بين يديه واجاب بزفير : الحديث ذو شجون ، يا عماه !

فازجى سليمان قولته بتؤدة يستدرج بها الفتى الى البيان : ولكن لا تخش منه على عمك الصلب العود . فكم لقي عمك من صدمات وكم سوف يلقى !

فاعلن عبد الرحمن بجهد من يسلّ من حنجرته الشوك : زينب اسمعتني انهـا تهواني ، يا عمي !

فتعجب ابو ايوب من هذا المدلّ على زينة فتيات العرب وقد حبت اليـه تعرض عليه قلبها فازرى بالعطية المثلى ، ونغص على الواهبة صفاء المنحة ، ونبالة المهزة . واستطلع الاب المجهود بلهجة ينضنض فيهـا الألم ولا يخفوها السخر : وانت ، أفلا تهواها ، يا عبد الرحمن ؟

فتمتم بخجل : كنت قد عقدت هواي على سواهـا وهي تطلعني على خفيّ ميولها . سبق السيف العذل ، يا عماه !

فاضطرب سليمان . فالامر خطير . إلا انه شدد من عزيمته وقال بصفاء نبرة : ومن تهوى ، يا عبد الرحمن ؟

– ليست من اهوى بمقام زينب ، يا عمي ، الا اني اهواهـا على شقائي في هيامي بها !

فطاب لابي ايوب الوقوف على الخفيّ واستقصى بجمجمة تنتابها الغصة ولا تخلو من خضاب التهكم والمضض : ابنة من تكون هذه الممتنعة عليـك ، يا عبد الرحمن ؟... انا اتولى تذليل مـا دونكما من صعاب . زينب اخطأت وهي

Twitter: @ketab_n

تسألك في نفسها . اما وقد احببتك فيجب ان تشفى من حبـــك . ولن تشفى بسوى زواجك بمن تهوى . لا أريد ان تمسي داري ملعباً لكارثة لي عنها غناء !

فتلعثم عبد الرحمن . فصاح به عمه : هلا اسمعتني اسم من تهيم بها ؟

وتهدج صوتـه . وشفّ مقاله عن إلحاح في الاستيضاح . ولم يرَ عبد الرحمن من سبيل الى الاعتصام بالكتمان فقال باستحياء لوى هامته : اهوى ابنة عبد الله ابن علي ، يا عمي !

وغارت نظراته في الارض . فهو لا يجرؤ على الالتفات الى عمه . وتراءى لسليمان انه خولط في عقله فصاح قلقاً : من ؟

فمن المحال ان يهوى اموي مرموق فتاة هاشمية ابوها من اعدى اعـــداء الامويين وامضاهم كيداً لهم ودساً عليهم . فاجاب الفتى بصوت مهلهل كالخيط الرث : ميمونة بنت عبد الله بن علي ، يا عماه !

فارتعد سليمان وقال وهو يمد انفاسه بغبطة من فضّ غلاف السر : ادركت الآن ما يهيب بك الى التوفيق بين الهاشميين والامويين ، يا ابن اخي . كن قرير العين . عبد الله بن علي من اصدقائي . وكلمتي مسموعة لديه . سيزف اليك ابنته فلا تيأس !

فهتف بجذل : وهل رضي عمي ان يوفق بيننا ؟

فضحك سليمان بمرارة : التوفيق بين ابناء الاعمام المقيمين على بغضاء شديـد الصعوبة ، يا ابن اخي ، عزيز المرتقى . ومن الاهون ان توفق بين الاعداء جميعاً قبل ان تجمع بين اخوين متنابذين . الا اني ساقنع عبد الله بن علي بان يزفّ اليك ميمونة . وهذا كثير مني !

ـ أتفعل ، يا عمي ؟

ونطق فيه حبه الجارف . وشعر سليمان بقوة هذا الحب وهو يسمع السؤال واللهجة المعلن بها فاجاب : على الفور ، يا ابن اخي !

Twitter: @ketab_n

فراعته السرعة واستفهم : وما يدعو الى العجلة ، يا ابا ايوب ؟

– حملٌ ثقيل أُريد ان ألقيه عن منكبيّ !

وهمّ عجلان بالرحيل الى مصب الخابور من الفرات ، وليس يخفى عليه اين يثوي اليوم عبد الله بن علي الهاشمي الحقـــود . خلاص زينب في ان تقطع كل رجاء من ابن عمها . وشرفها وشرف ابيها يفرضان عاجلاً هـذا الخلاص . واذا صيحة ، بل صيحات ، تعلو في حجرة الفتاة . فوثب سليمان الى الحجرة ونهيتـه تكاد تفلت منه ، وهو يصيح ملهوفاً : واإبنتاه !

فكأنه ادرك ان زينب على تلف . وانه ليحبّ هذه الروعاء الوثابة ، الفطنة ، حبه لابنه ايوب قائد جنده . ولاحت له النساء يولولن حول فراشهـا فحسبها ماتت تحت وقع الالم . فدنا منها هاتفاً وقـــد عمي ناظراه ، وارتجف قلبه ، وهانت قواه : ما بها ، ما بها ؟

فاجابت امها بنواح قاصم لاطمة خديها ، ناتفة شعرها : ماتت ابنتنـــا ، يا سليمان !

فاعول : هل ماتت ؟... هل ماتت رجاوة ابيها ؟

وانحنى على سريرها منادياً بصاهل الحرقة : زينب ، زينب ، اجيبي أباك !

وكاد يمزق باظفاره صدره . وبدا له عبد الرحمن بجانبه فرشقه بنظرة ودّ لو يسحقه بها . ونضحت نظراته بالتهمة الصافعة : انت قاتلها ، ايها المجرم ، انت المودي بها ، ايها الجلف المتحجر الفؤاد !

وأحس عبد الرحمن ، بما يرميه به عمه من ظنة فهاله ان يكافح ، في منازعه ، على جبهتيه . والحب أقوى من ان تحتمله مهجة انسان !

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

٧

– ميمونة ، مولاتي ميمونة !

وشاعت الكلمـــات في شبه همس ، في حفيف ادنى الى الوشوشة منه الى الجهـــارة . وكانت ابنة عبد الله بن علي في لجة من بحران . فهي تفكر في قسوة ابيها عليها بحؤوله بينها وبين من تميل اليه . وشاقتها التضحية و « حلقة الحديد » تضمها في سبيل عبد الرحمن . ولكن اقلقها ان يعتقد الفتى ، وقـــد غابت عنه ، سلوّها اياه واستخفافها بما وكل اليها من مفاوضة أبيها .

واختلجت وعتبة تناديها . والتفتت الى الزنجية كمن يدفع عنه عبء نعاس كابس . فقالت عتبة بهمســـا المكبوت تفضح به الأسرار : سليمان بن هشام ابن عبد الملك على خلوة بابيكِ . وهو يحدثه عنك وعن عبد الرحمن !

فاتسع ناظر ميمونة ونبأ هذه الخلوة لينفذ الى مسمعها . وقالت بنأمة صافرة كالضجيج : أيحدثه عني وعن عبد الرحمن ؟

فغمزت الامة السوداء بعينها ان نعم ، ونضنض مقولهـا : وغضب أبوكِ !

– غضب ؟... هـــل غضب وسليمان بن هشام يخاطبه ؟... ألا باي كلام تلفظ ، يا عتبة ؟

– باللعنة . لعنكِ ولعن عبد الرحمن !

فاهتز قلبها وبلعت ريقها وأطرقت ملتاعة . غير ان الفضول وقد ثار فيهـا شدّها الى الوقوف على ما يتبادل الرجلان من كلام يتناولها في قلبها وفي غدها قالت تعالن الزنجية بلجوج الشوق الى الاستقصـــاء ، والفضول لا يكسل ولا ينـــام : عتبة ، اريد الاطلاع على الحديث بحروفه . فالتقطي لي ما يتخاطبان به كلمة فكلمة !

Twitter: @ketab_n

ولم يكن لعتبة إلا ان تجيبه : حباً وكرامة ، يا مولاتي !

ووثبت الى حيث استقرّ الرجلان وثبة الكلب الأمين في اثر الطريدة المحطمة الجناح . وعبد الله بن علي رحب بسليمان بن هشام بن عبد الملك وقد وفد عليه في مطلع صبح اغبر . ولم يتعجب من مرآه وقد تعوّد ان يجالسه ليديرا الرأي في الموقف . فهما على وحدة في المذهب والمشرب . ينعيان على مروان سوء تدبيره ويسعيـــان لهدمه . قال عبد الله : كأني واياك على موعد ، يا سليمان . لفظ القدر كلمته وبتنا على أُهبة . وسنشخص الى العراق للقاء ابي مسلم المقبل من خراسان بجيشه الضخم . فالنار تقضقض في الهشيم اليبيس ، يا ابن عمي . ومن السفال ان نصبر على الخزية بعد مقتل راعينا ابرهيم الامام !

فاستطلع سليمان : أتكونون على استعداد لضربة الاجهاز ، يا عبد الله ؟

فأجاب باعتداد تتنفس عنه طلعته ولهجته وبيانه : ان سيوفنا لتتواثب في اغمادها شاكية طول الثواء ، يا ابن عمي . وقومنا مجلببون بالحديد يرقبون ، بنفاد صبر ، ساعة القحمة . فما من موعد اصلح لاضرام الفتنة وهدم الحمار !

فقال ابن هشام بن عبد الملك : انا ورجـــالي نتشهى النزال العجلان ، يا عبد الله . فاعلنوا اليوم ونحن في طليعة من يثب الى الميدان . على اني ما جئت لاباحثك في الموقف ، بل في أمر خـــاص ، ذي خطر ، أبغي استنجازك اياه ويضيمني ان ألقى فيه الخيبة !

فساءل عبد الله بن علي نفسه : ألا اي امر يهيب بسليمان الى الاستعانة عليّ به ، ويحاذر فيه الصدود ؟... هل من نكبة تهدد ابا ايوب في روحه ، أيكون بحاجة الى الرفد ؟... وهتف عبد الله : وما يدفعك الي ، يا ابا أيوب ؟... اقلقتني . سلمت من البلبال !

فغص سليمان بمقاله كأنه يغمس ألفاظه في دمعه وجمجم : قذفني اليك مـــا يقض مضجعي ، ويهزني في كرامتي ، فلا تخذلني !

وظهر منه انه يحترق . فاشفق عليه عبد الله وصاح : أتتوجع في كرامتك ،

Twitter: @ketab_n

يا سليمان ؟... والله ، ما انا من ابناء امام النبي إن تخاذلتُ عن نصرتك . سل ما تشاء . اني لاطلق يدك في امري ، ومستثناي الاوحد ابنتي ميمونة !

فزفر سليمان وقال بحسرة : ولكني لاجلها جئت ، يا عبد الله !

فجحظت عينا عبد الله بن علي وهو يسمع من سليمان انه جاءه في ميمونة . فمن اذاع في الناس ان الفتاة مضطهدة ، محبوسة في « حلقة الحديد »؟... ثم ما شأنها في مس كرامة القطب الاموي سليمان بن هشام بن عبد الملك ؟... ورقب عبد الله ذريع الايضاح . فقال ابو ايوب يبثه ما اقبل فيه من استجارة بصوت لا يزال يموج في مطاويه الألم البئيس : بين ابن اخي وابنتك طرف من مودة ، يا عبد الله !

فزوّى عبد الله ما بين عينيه وتولته جهامة الغضبان . ماذا ؟... ماذا ؟... بمَ ينضنض مقول ابي ايوب ؟... أتجلجل هذه المودة الشائنة في اصقاع العرب ويكون عبد الله آخر من يلمُّ بها ؟

ونخعته المصارحة فكاد ينشقّ . ومضى سليمان في قولته كأنـــه لم يبصر بالانقلاب المخيف الطاغي على جليسه : وهذه المودة يجب ان ترسخ على دعامة . فنعقد لابن اخي على الفتاة !

فهاجت في السيد الهاشمي نقمة جائحة . أيزفُّ ابنتـــه الى اموي ؟... يا للشنار !... على انه ادرك انه في حضرة أموي ، فامسك بحقده عن الانفجار وملك نفسه في القول الحاسم معتصماً من الرزانة بمقدار مع كل ما يتلظى فيه من دميم النفار : اؤثر ان أسدَّ اذنيَّ عن هذه الطلبـــة المحرجة ، يا سليمان . فليس الزمن بالمؤاتي لعقد هذا الزواج !

فاستفهم سليمان ببعض الدهش : أتمانع ؟

فاوضح عبد الله وقد زحفت الى فمه اوتاره : اذا انا رضيت ، فالدم الجاري في عروقي يخيبني في الموافقة ، يا ابا ايوب . وماذا ترى الناس يقولون في عبد الله بن علي وقد وقع في مسامعهم اني زففت ابنتي الى اموي ؟... نحن فروع دوحة

Twitter: @ketab_n

واحدة ، يا ابن عمي ، ولكننـــا نحبو على ضغن فائر ، وعداء كاسح ، وتلال جماجمنا المتناثرة تحت ضربات سيوفكم ، ولا سيما في كربلاء الزاخرة برمم شهدائنا الابرار ، تأبى علينا المصاهرة . فمن المحال ان نلتقي على تقارب وصفاء !

فهتف سليمان يعترض على المصارمة : ولكن ابن اخي يليق بميمونة ، وانا صديقكم الاوفى !

— ابن اخيك قد يرجح ابنتي شأواً ، يا ابن عمي . فالعقبة ليست في منزلة الفتى ، بل في ما بيننا من قطيعة وبغضاء !

فاستطلع سليمان بفيض من حماسة : وهل سألتَ ميمونة عن رأيها في الفتى؟.. عدا اني لست ارى ما يمنع ان تكون ارحبنا صدراً وانقانا خيراً ، يا ابن علي !

فاجاب عبد الله بحدة المولى الحريص على سلطانـــه : انا صاحب الرأي في ابنتي ، يا سليمان . فما أقرُّه فيها مقدور عليها . واني لابعد من ان ازفهـــا الى أموي . فلا تستعطفني بطيب السريرة !

فأبى سليمان ان يتراجع ، واعلن يمهد الى البغية : لنخاطبها في الامر معاً ، يا عبد الله . فقد تملك من الحجة ما يهيب بك الى الاذعان !

فهدر الهاشمي الغضوب : لست أبيح لاحد ان يخاطبها في ما تنكر نفسي فهي في « حلقة الحديد » تكفِّر عن حبها لابن اخيك ، يا ابا ايوب !

وصالت فيه ضغائنه . والتفت الى القطب الاموي برأس يتشامخ وعينـــين تلتهبان حدة . فصاح سليمان وقد اغضبته هذه القسوة الدهماء في أب على ابنته ، بل على كبده : هل طرحتها في « حلقة الحديد » ، يا عبد الله ، ولم تذكر انهـا بعضك ، وهي من لحمك ودمك ؟... ألا مـــاذا ابقيت للاشرار الاشراس ، يا غليظ الجنان ؟

فاذلّ منه عجبه ، وهو يعيِّره جوره على ابنته . فاطرق عبد الله بن عـــلي وقـــد تقلقلت فيه عنجهيته ، وتمتم بالم مستفيض : دعني مما كتبت علينا الايام ،

Twitter: @ketab_n

يا سليمان . ابنتي ليست على ضلال في هواها ، ولكنه ظلم الاقدار ، يا ابن عمي . ابى الزمن ان يخضب بالوئام سواقفنا ، وقد عبث باصابع اليد الواحدة ، ينثرها اباديد !

وكاد هذا المشطور من صخر يتعرفّ الى لغة الدمع لولا صلابة في الطبع تندّ به عن مسايرة هواه . فما حبس ابنته في « حلقة الحديد » الا مكرهاً، اضطراراً الى مواءمة بيئته والخضوع لسخائم اخوته ومشاربهم . والا فما كان يحول دون الجمع بين ميمونة الهاشمية وعبد الرحمن الاموي ، وكلاهما على رجحان في كرم المحتد ، وسمو العرق ?... وسليمان بن هشام بن عبد الملك لوى ظهره وهو يسمع مقال عبد الله . وتذكر ابنته زينب . فهي ليست على جهالة في هواها ، وقد شاقتها مهزة الشمم في ابن عمها ، الا انه ظلم الاقدار ، وما ألأمه !

وران على الرجلين سكوت طويل ، حزين ، تقلبا فيه على قواصم . ولم يطق سليمان الابقاء على سره فافشاه بلوعة المنكوب . قال يذيع بليته الهاتكة : عبد الله ، ابن عمي ، لا بد ان تسائل نفسك عن موضع الحط من قدري وانت تخذلني في العقد لعبد الرحمن على ميمونة ، ألا فاسمع. وسافضي اليك بالمصونات. زينب ابنتي تهوى عبد الرحمن ابن عمها ، يا عبد الله ، ولكن الفتى صدّ عنها وقد مال الى ميمونة . فكادت زينب تنهار ضحية هواها الجديب . واني لاخشى عليها ان تذوي في حرقة صبابتها العاثرة وهي مني في مودة اخيها ايوب، فألقى فيها بسمة النداوة الطهور ومستساغ الغبطة . ولم اجد سبيلاً الى انقاذها من اللجة بسوى العقد لعبد الرحمن على ميمونة . فتقطع عند ذاك ابنتي الامل وتسلو ، وقد نفذ القضاء . كادت لايام قلائل تجود بروحها استيئاساً من هواها !

فراع هذا المنطق البائس عبد الله بن علي . سليمان يعالنه بدخائله ، كأنه له اصدق الناس واصفاهم ، غير انه تعجب من هذا المستجير به منه . ميمونة هي الداء ، فكيف اقبل سليمان ، مع إلمامه بالواقع، يتداوى بها ?... قال عبد الله : ولماذا لا تعقد لعبد الرحمن على زينب، يا ابا ايوب ، وتنيل الفتاة طلبتها ويطمئن خاطرك ولا تكلف نفسك ما لا تطيق ?

Twitter: @ketab_n

فجمجم : ليس يريد زينب وقد هام بميمونة . وينحر فؤادي ان تقضي ابنتي وان يذيع في الناس ان حبها العقيم اودى بها . هذه هي وصمة العار الماحي ، يا عبد الله وقد جئت استغيث بك منها !

فلم يجد عبد الله بن علي في الاستغاثة الملحاح ما يفرض عليه النجدة . قال لا يتزحزح عن مذهبه : سليمان ، انت تعرف حبي لميمونة . فما هو دون حبك لابنتك زينب . الا اني اؤثر ان اراها تموت في « حلقة الحديد » على ان ازفها الى ابن اخيك !

– وتجني عليها ؟

– لتمت . موتها اشهى اليّ من رؤيتها في مضجع أموي !

فغمغم سليمان بلجلجة مرتاعة : يا للحقود الجبّار !

فوثب عبد الله بن علي من مكانه وقد هزه مطلب سليمان في كبده ، واحس بنفاد همته في الامساك بنزواته ، فصاح : سليمان ، ما لنا والحديث شائك لن تخرج منه بجدوى . لك ان تحسب ابنتي من الاموات . فليس في كنف عبد الله ابن علي فتاة للزواج . أتتقي العار بان تعصب به جبيني ؟... لتمت الاثنتان ، ميمونة وزينب ، ففي موتها راحة لي ولك !

وتجلت يبوسته . واستطال في شراسته وقد اضطربت لحيته الكاسية صدره كأنها في مهب اعصار . ورهبه سليمان ولم يكن يحسبه في هذا الجنف الطحون على ابنته . الا انه لم يقطع منه الرجاء فقال : عبد الله ، ان سليمان بن هشام بن عبد الملك ليخاطبك . لا تكن فظاً عاتياً . في عقدك لعبد الرحمن على ميمونة تنفذ خمسة قلوب من النار ، قلبي ، وقلبك ، وقلب ابنتي ، وقلب ابنتك ، وقلب عبد الرحمن !

ولكن عبد الله مضى في صيحته الغضبى لا يبالي : لم اتعوّد ان اشفق على نفسي ، فكيف اشفق على الناس ؟

Twitter: @ketab_n

– اتقتلنا بغلاظتك ؟

– لا بأس ان تكتووا بما اكتوي به من ألم ، يا ابن هشام !

– ولا ترحم ؟

– لست أرى الرحمة في ما ترتجي مني . وكان عليك ان تلتمسها من يزيد بن معاوية في ضحايا كربلاء !

فغضب سليمان ووثب على عبد الله بن علي مهدداً بقبضته ، مزبداً في قولته: والله ، لو لم اكن من حلفائكم لسفكت الآن دمك . الا ان تشيُّعي لكم يغل يدي عنك . فما كنت اعتقد اني ألقى فيك جلفاً من اجلاف العرب . ان ابنتك لشقية فيك . ولو حدثتُ الحجر بما استعدي به عليك لنبض بالاحساس . ولكن الحجر دونك غلاظة . استودعك الله . اقتل ابنتي وابنتك معاً وقد خلوتَ من كرم الطبع . سلمت يمينك ، يا ابن عمي . فلا بد ان نتلاقى والحساب عسير !

واولاه ظهره وانصرف على غيظ سخين . وجمد عبد الله بن علي تحت وقع المفاجأة الشادخة وهو في خبل المشدوه . ماذا يسمع ؟... لم يكن يرقب هذا الوعيد المهين . ورافقت عيناه بذهول سليمان المعرض عنه بتيه وازراء . وتمتمت بخفوت شفتاه : اجل ، سنلتقي . وسيكون الحساب شاقاً عسيراً . اذا ابقيتك حياً ، يا ابن هشام ، فلا ابقاني الله . ما نسينا ما كان من ابيك في اخي زيد بن علي ، ولا ما كان من جدك في الاشعث . فالى اللقاء . انت اليوم حليفنا فلا بأس عليك . اما غداً ، غداً حين تنثر مواضينا رؤوسكم ، فلن نبقي على رأسك يحلو حلكة الزمان !

ولكن سليمان كان قد توارى ولم يسمع. وساءل عبد الله بن علي نفسه لماذا لم يمتشق باتره لرد الاهانة، وهو السريع الى الفتكة في رد الوخزة. ولكن المباغتة صرعت فيه المبادرة . وتأججت احقاده فحفظ على سليمان بادرته . ليفتكنّ بكل اموي لدن تتمكن من نواصيهم قبضته . كلهم سيلقى حتفه . وأبصرته عتبة الزنجية في حنقه واتقاد عينيه فارتعدت وفزعت منه عليها ، مع ان خشب

Twitter: @ketab_n

النافذة يفصله عنها . وانحدرت الى « حلقة الحديد » في ناخع الهلع . وبلغت باب الحلقة على خور في العزيمة . فارتمت عند الباب تتلفت الى ما وراءها مخافة ان يكون عبد الله بن علي ابصرها في مخبإهـا ، وراء النافذة ، تصغي من ثقب في الخشب الى ما يتبادل وسليمان من قوارص ، فشهر سيفه واندفع في اثرهـا يبغي ان يضرب عنقهـا شفاء لغيظ ألهبه في صدره ابن هشام ، وإرواء لغليل ظامىء الى الدم الرويّ .

ولم تنهض من كبوتها . فما سمعت ورأت لوى فيها مفتول الهمة ، ورهيف الادراك .

والهول مصدرٌ من شرود !

Twitter: @ketab_n

٨

– عتبة ، عتبة ، ما بك صماء ، بكماء ، عميـاء ؟... هل من ويل دهمك ، هل شعر بك سيدك ، فانتهرك ؟

وانطلقت الكلمـات من « حلقة الحديد » في ما يعدو الهمس ترزح بالخوف والرعشة . والامة السوداء وقد ارتمت في الارض عقد لسانها وتولاها الغشيان . فعاد الصوت المرتجف ، القلق ، الى مناداتهـا بحذر واحتراس ، ولكن بنبرة ابعد وقعاً . فالتفتت عتبة بعينين يسودهما الرعب والبله واستطاعت ان تتمتم بأنين مذعور : مولاتي ميمونة !

فقالت ابنة عبد الله بن علي باضطراب : ما بكِ ؟... خلعتِ قلبي .هـل درى بك ونالك باذى ؟

وكانت ترقبها ثانية فثانية للوقوف منها على ما تجاذب الرجلان من حديث . فلماذا تناولاها في كلامهما ، هل من اساءة أبلغ ؟... هل من رحمة يبتهج بهـا الضمير ؟... ما سليمان بن هشام بن عبد الملك سوى والد زينب ، وزينب ناقمة على عبد الرحمن وهو يحفوها ، وناقمة على ميمونة وقد سلبتها عبد الرحمن ، فماذا جاء يفعل عند عبد الله ؟

والفضول الناشب في خاطر ميمونة دفعهـا الى اللجاجة في النداء : عتبة ، عتبة ! .

فأشارت الزنجية ان صبراً . فحملت ميمونة طاساً من المـاء رشّت به من الكوة الأمة الوفية المرتمية عند باب «حلقة الحديد» وهي تقول بارتباك وخشية:

Twitter: @ketab_n

ماذا أصابكِ ؟... أنكون حيال نازلة ادهى ؟

فانتعشت الامة السوداء ورشاش الماء يبرّد في عروقها لظى الحمّى . على انها ما برحت تتلفت الى الوراء برعب حديد الناب . وبجهد انفرجت شفتاهـا عن قول تغلّفه الوهلة : لكِ الله من ابيك ، يا ابنتي !

فأيقنت ميمونة ان في الأمر ما لا يبعث على المسرة ، غير انها لم تجزع وقد علمتها الشدة طول الاناة. قالت والفضول يزيدها إلحافاً في الاستطلاع : اوضحي لي ما تحادثا فيه . لا تكتمي عني منه حرفاً !

فرددت على مسمعها الحديث بامانة جلية الاداء . إلا ان الفتاة لم تصدق مـا يلقى اليها . فما اقبل سليمان ليطلب الى ابيها العقد عليها لعبد الرحمن. وخشيت ان تكون الزنجية تحت وطأة الغشيان فيما تفضي بالرواية ، أو انهـا لم تفهم فالتبس عليها البيان . قالت : أواثقة أنت انك سمعت سليمان يتفوّه بمـا تقصّين عليّ ؟

فجهرت : هذا حديثه كلمة فكلمة، يا مولاتي . وكأنه حشا به أُذني !

– وماذا كان من أبي ؟... ماذا كان من عبد الله بن علي ؟

– بطر ابوك في عناده . اي والله ، يا ميمونة . كان اشبه بالزيت على النار صانك الله من فظاظة ابيك ، ايتها السجوع المقصوصة الجناح !

– وخيّب سليمان ؟

فأجابت عتبة بمرارة تميع هولاً : خيّبه وحمـله على تهديده . فانصرف ابن هشام حانقاً يهيج فيه الغضب ويتلظى الوعيد !

– وأبي ؟

– وأبوك توعد ، ولكن بعد انصراف سليمان . فأقسم على ابادة الأمويين . أتجهلين أباكِ ؟

فتولى الاطراق ميمونة . وعاودها التفكير في هذا الأب الجافي . إلا انهـا

Twitter: @ketab_n

تحبه وتجله على جفائه الاسحم . ولكن اذا نقم على الامويين أفليس عليه ان يرفق بها وهو ابوها ، وان يرد كيده عن عبد الرحمن الفتى الاموي وهي تهواه ؟

وأكبرت في سليمان بن هشام طفرة النبل . جاء يسلخ من ابنته عبد الرحمن ابن اخيه ليهبه لفتاة تكاد تكون عنه غريبة وهي ابنة من خاصموا اباه ويكيدون لقومه . وأبت ميمونة ان تكون دون سليمان مكرمة وحميّة فاعتزمت ان تضحي بقلبها في سبيل من اقبل يضحي لاجلها بابنته . قالت بمستطير الاباء : ولماذا اكون دونه اريحية وقدراً ؟

ولم ترهب التضحية . عبد الرحمن لن يكون لها وأبوها يسدّ عليها الى الفتى الطريق . فلتنعم بحلاوة التضحية ما دامت لن تتذوق نشوة الهيام . لترحم قلباً تأكله الغيرة وليكن قلبها الفداء . فما أسمى الحياة في انفة وسماح . والتفتت الى الامة السوداء تقول بنبرة جازمة : عتبة ، أُريدكِ الليلة على براح هذه الدار ، فلا سبيل الى الرجرجة !

فاستوضحت الزنجية مدهوشة : ابرحها الى أين ، يا مولاتي ؟

— الى عبد الرحمن بن معاوية . أتستطيعين ؟

فاستفهمت بارتعاد : الى دمشق ؟... من ضفاف الفرات الى دمشق ؟... ألا ماذا يحل بك ولن اعود اليك إلا بعد شهر من الزمن ؟... أأنأى عنك ليقتلك ابوك ؟... لست ابالي دمي . فما لقيت من الحياة يزهّدني فيها . ولكن انت ، انت يا ميمونة . فمن يحمل اليك طعامك وشرابك ويلتفت اليك ؟

قالت بشدة في الاداء : هاتي لي زاد شهر وانصرفي . بل انت لست بحاجة الى قضاء شهر من الزمن في ارتياد دمشق والعودة منها . فامتطي ناقة توجزمدى غيبتك !

فادلت الزنجية بحكيم الرأي معلنة : ولماذا تبعدينني عنك وتعانين في انصرافي الى دمشق الضنى ؟... ساجيئك بمن يتولى المهمة على امانة وفطانة

Twitter: @ketab_n

فلا نخشى منه ولا نخشى عليه !

فاصاخت ميمونة الى صواب التدبير في عتبة واستبحثت : ومن لنا يحقق الرغبة ولا يكبو فيها ، هداك الله ؟

فافاضت الامة السوداء عفواً بالاسم : زين بن خالد رفيقي في الخدمة . ابوك نفسه سيوفده الى دمشق في رسالة ، ولن يتقهقر عن اداء الرسالتين معاً !

فابتسمت ميمونة ارتياحاً الى تذليل العقبة واعلنت بمسرة : اذن فاعتمديه. ارى الريح تؤاتينا . ولكن ليحذر الثرثرة !

فجهرت الزنجية بعهدة الضمين : تبعته في عنقي، يا مولاتي . بماذا ترين ان يحدّث عبد الرحمن ؟

– ليحدثه عن رغبة ابي في ان يزفني الى هاشمي . وليبلغ الفتى اني سلوته ورضيت بالهاشمي زوجاً ، واني اطلق له يده في اختيار من يشاء رفيقة له في الحياة !

فاصيبت الزنجية بالرعدة وصاحت : مولاتي !

وتوهمت انها حيال فتاة تهذي لفرط ما بليت به في قلبها من ثقوب . فلسعتها ميمونة بناظرين اهابا بها الى الوقوف عن الاعتراض . قالت ابنة عبد الله بن علي: التقطي مني كلماتي واعملي بها . أريدك على الامتثال لطلبتي !

فاعولت الامة : أتماكر عبد الرحمن ونسحق قلبه ؟

– لا بد من هذه التضحية، يا عتبة للتخفيف عن الفتى والميل به الى ابنة عمه زينب بنت سليمان !

فهال الزنجية ما تبدي ابنة سيدها . ولم يبق لديها ريب ان الفتاة تهذي . فقالت باشفاق تساوره الكدة : أترفقين بمزاحمتك، يا ميمونة ؟... هل جننت ؟

– ارفق بها وبابيها . فلماذا اكوي قلبها بالغيرة ولا امل لي بعبد الرحمن ؟

فتجهمت عتبة وهتفت بغيظ : ارى ان تعهدي الى سواي في اداء هذه

Twitter: @ketab_n

الرسالة ، يا مولاتي . فلست اراني املك القدرة على انجازها !

فاعترى الذهول ميمونة وازجت القول المقهور : وكيف، يا عتبة ؟

– ليس من الحق في ومضة تحطيم قلوب الاصفياء،يا ابنة الاكرمين !

– ولكن حبي لعبد الرحمن ليس من امل يحييـــه،يا عتبة . لا تخشي عليّ . فالتضحية عندي بمقام الظفر بهواي !

فبلغ اعجاب الامة السوداء بابنة سيدها منتهاه . قالت بتعتعة الاكبـــار : لتسمح لي مولاتي بتقبيل الارض بين يديها . ما كنت اعتقد ان تحت هذه السماء نبلاً يعادل هذا النبل القراح !

فقالت ميمونة بصادع الامر : اعملي بما ادعوك اليه . لينصرف زين بن خالد عاجلاً الى دمشق وليحدث عبد الرحمن عني بما يثير فيـــه النفرة والاعراض . وليس له ابلاغه انه رسولي ، بل ليزعم انه يلقاه عرضاً وليخدّش مسمعـــه بالمحرجات الموجعات كأن ينعى اليه اخلاصي ووفائي !

فماد رأس الزنجية ألماً وعيناها المملوءتان اعجاباً لا ترتفعان عن مولاتهـــا . قالت ابنة عبد الله بن علي : يجب ان تسرعي الى زين،يا عتبة . اخاف ان ينتقل بنا ابي الى العراق وقد اعتزم الهاشميون اذ كاء النار !

فماج في شفتيهـــا كلام يئنّ : سأكون الساعة في اذن الرسول، يا مولاتي ، وسينطلق زين الليلة الى دمشق لمجاراة ميولك الحوالك على نصاعتها !

وانتشر فيهما صمت كئيب . كلّ منهما انصرفت الى اشجانها . ودرجت عتبة الى رفيقها زين بن خالد تطلعه باسى على رغبة ابنة سيدها وتوصيه بالعمل بهـــا ، ولكن باحتراس وبعد نظر. فليس لعبد الرحمن ان يشعر بالمداورة . فوعد العبد ببذل الحنكة . فلن تكون ميمونة خائبة . وهو ممن يعطفون على الفتاة ويجدون فيها النور الوضّاء في دار سيده القاتمة . فلم يكن لولاها لمرتع عبد الله بن علي ان ترطبه نداوة من رفق . وغاظه ان يطرح هذا السيد الجافي ابنتـــه في « حلقة

Twitter: @ketab_n

الحديد » وليست تضم غير الشذاذ من العبدان والحشم . فان هذا الدهليز الحقير لينبو عن ميمونة مهما اوغلت في الاثم وابتدعت من منكر

وفي العتمة همَّ زين بالرحيل يطوي صدره على الرسالتين . بل هو لم يكن يدري ما تزخر به رسالة سيده عبد الله بن علي الى دمشق وقد وجهها العميد الهاشمي الى احد خلصائه في المدينة الوارفة المجد . اما رسالة ميمونة الى عبد الرحمن بن معاوية فلم تكن مكتوبة بل شفوية . ومن حق الرسول ان يزيد فيها او يوجز منها على ما تتسع له الذاكرة أو يسوقه اليه الهوى .

وضاق صدر ميمونة بانفاسها وقد ابلغتها عتبة ان الرسول اقتحم المفاوز الى دمشق على مطية سبوح . فكادت الفتاة تختنق . وخطر لها ان تصيح بالامة السوداء : « ألا فليقف زين بن خالد ، ليقف ! » وقد احست بحسامة التضحية ، وتراءى لها انها سترزح تحت العبء . غير انها امسكت على وهنها وأدارت وجهها عن عتبة لئلا تبصرها الزنجية في ترددها وجزعها فتشمت بها . اعلنت كلمتها وسترسخ فيها وان تكن تحس باضمحلال قواها والتضحية ترجح فيها على الطاقة . ولم تكد الزنجية تغيب عنها حتى سقطت الى الارض كالمطعونة في سويدائها . وعلا من صدرها رنين نواح . فهي تبكي حباً نعمت به زمناً ثم خلعته عنها وهو مكتمل النضرة لتهبه هبة خالصة للمنافسين . وهدأت سورة النشيج على التوالي . وأقامت ميمونة ترقب عودة الرسول مثلها لما أوفدت عتبة لالتقاط حديث عبد الله وسليمان . وشاق الفتاة الوقوف على حالة عبد الرحمن فيما يبلغه زين بن خالد نبأ الخيانة المختلق . أيتأثر ويتأوه أم يتلقى النبلة ببرودة غير المبالي ؟

واستطال الليل في الفحمة والزنجية لم تظهر حيال مولاتها فتؤانسها ، كأنها ذابت في الدهمة سواداً في السواد . ولم تكن ميمونة تقوى على براح « حلقة الحديد » والباب مقفل دونها ، وليس من منفذ لديها غير كوة ضيقة يبدو منها وجهها وتمتدُّ يداها وحسبها هذا المدى .

وأقامت على نار . ولم تجد قربها من يشفي فيها اكمداد البال . وإذا عتبة تأوي

Twitter: @ketab_n

الى السرداب بعد طول نوى . فتنفست ميمونة الصعداء وقد لاحت لها الامة السوداء وبادرتها بالقول بحدة : ماذا دهاكِ فقعد بك عني ؟

فأجابت وهي تلهث ، والعرق يتفتق في جبينها حبات تلو حبات : هالني ان يكون درى أبوك بما كلفنا زيناً اداءه فأطلق في اثره من يمسك به . سمعت عبد الله بن علي يتلفظ بما يدل على ارتيابه بالرسول !

فملكت الرهبة ميمونة وصاحت : وهل كان ما حسبت ؟

– لا،يا ابنة سيدي . ما لبثت الظنون ان خمدت في ابيك الموجس ابداً شراً حتى لا يكاد يثق بذي فضل وحفاظ !

فقالت ميمونة تستطلع امعاناً في الاطمئنان : وما يلوح لك من امر زين ، أيقتنع عبد الرحمن بما ازجيت اليه ؟

فقلبت شفتيها وقالت : من يدري ؟... علينا ان نرقب عودة ابن خالد ولست اراها تطول وقد شدد عليه ابوك في استعجال الوثبة !

وزين بن خالد لفّ الى عاصمة الامويين الصحراء على سنام بعيره . وثوى فيها يتولى ما عليه من مفروض الامانة. فانفذ رسالة مولاه عبد الله بن علي الى صاحبها وجدّ في البحث عن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام . ولم يكن عبد الرحمن بالنكرة . فلقيه زين يشرف على من يشحذ نصلة سيفه ويجهز سرج جواده كأنه على سفر . وراعته فيه نداوة الفتوّة ولهبة العزيمة فدلف اليه بالتحية اليانعة ، اللينة الاداء : السلام على الامير !

فالتفت اليه عبد الرحمن بعين حادة ، يقظى ، تستجلي الأسارير المجهولة واجاب باحتراز : وعليك السلام،يا هذا . ممن انت ، وماذا تبغي ؟

فاجاب زين بن خالد ببسمة عريضة فيما يفيض بالقول المراع كأنه يزف نفيس البشرى : انا رسول ميمونة بنت عبد الله بن علي الى مولاي !

فهتف عبد الرحمن وقد تبدل فيه احتراسه وهو يسمع باسم من طغى هواها

Twitter: @ketab_n

على جوانحه : رسول ميمونـــة ؟... انت ؟... ألا عوفيت . ماذا تحمل اليّ منها ؟

وانصرف عما يتولى شاخصاً الى شفتي الرسول . فاعلن زين بن خالد وقـــد ادرك من ازدهار لهجة الفتى واشراق سحنته بعد جمودها مبلغ شغفه بابنـــة عبد الله بن علي : ميمونة في اسر ابيها وسيدي عبد الله درى بما بينكما من وثيق مودّة . ولقد اوفدتني اليك تشكو جور الحظ عليها وتستنجد بوفائك كي تنقذها من المحنة !

وما استطاع زين حيال ما لاح له من نضرة الفتى ، وبليغ همتـــه ، وتأثره الوضّاح وقد اختلج مسمعه باسم ميمونة، ان يروّعه بما حثته عتبة على ابلاغـــه اياه من كاذب المقال . فالكذب بدا له عاراً يجلّ عنه نفسه في الامير النبيـــل الجلوة ، فاستباح العبث بآل الرسالة يروم الترفيه عن ميمونة وتوقايتها الضنى . وجلجل عبد الرحمن والنبأ يصدع سمعه ويخضخضه كفاجع الزلزلة : هل أسرها ابوها ، قاتلك الله ؟... بماذا تخلع كبدي من هادم دميم ؟

فاجاب زين بلوعة : لست اروي لك غير النبأ الصادق، حرس الله مهجتك. سيدتي ميمونة في « حلقة الحديد » منذ ما صدفنا عن دمشق . وان اباها ليرسو اليوم في مصب الخابور من الفرات ، في داره المتقلقلة في هاتيك الادغال . والفتاة ترجو عونك . فلا تصمّ عنها اذنيك !

فما برح عبد الرحمن على ارتياب بما يسقط اليه . قال يستقصي وكل ما فيـــه يفور : أتكون على بيّنة مما تذيع ، ايها المقلق فينا صفو المهجة ؟

وخشي ان يكون ثمة شرك منصوب لاغتياله اعدّه له عبدالله بن علي وقـــد نمي اليه ما بين ابنته والفتى الاموي من صلة . وكأن الرسول وقع على ما ينتقض في لب الامير من حكيم الحذر فقال بقوة في الاعلان : لمولاي ان يضرب عنقي ان اكن كاذباً !

فغرز فيه حفيد هشام عينين ثاقبتين صادعتين فمـــا ارتعش زين بن خالد

Twitter: @ketab_n

مما استدل به الأمير الأموي على سلامة الطوية وصحة الرواية . وأحس بما يملي عليه الموقف من طفرة فرعد : ان يكن ابوها جار عليها حتى اوشك ان يخنق فيها مجرى الانفاس فالويل له مني . اني لمنطلق الساعة الى مصب الخابور من الفرات اهدم على عبد الله بن علي طمأنينة المناخ . أما والله ان تنطق عن مماكرة فانظر الى جمجمتك تتشحط عند قدميك بدمك . فلن يرحمك حتى الله !

فأبدى زين بن خالد الاستنامة الى الوعيد وقال : لا يشفق عليّ سيدي الامير في انتفاضة من حسّ ان اكن اتفوّه بنأمة تشوبها علالة من موارية !

فهتف عبد الرحمن وقد تضرم به الحقد والحرد : إذن لننطلق الى مقر عبدالله نقوّضه عليه . كن رفيقنا في القحمة !

وأبى إلا ان يجعل من الرسول رهينة مغالاة منه في اليقظة . وصاح برجاله وقد احتشدوا على مقربة منه وهم يبصرونه والرسول على جدال : ألا امتطوا ركائبكم ولنسرع الى النجدة . علا صوت من ضفاف الفرات يستحثنا على الغوث . لن نبقي على عبد الله بن علي ان يكن الرسول اميناً في البلاغ !

وهو على أُهبة لهذه الغزوة . امير المؤمنين مروان الجعدي يدفعه اليها . فوقع في مسمع الخليفة ان عبد الله بن علي يقيم عند مصب الخابور من الفرات في منزل ضائع بين الادغال تعوّد ان ينتحيه وان ينفث منه احقاده لتقويض الدولة الاموية . فرماه مروان باحد قادته الانجاد ، بعبد الرحمن بن معاوية . فأمضّ عبد الرحمن ان يتولى مهمة يوجع بها قلب ميمونة الناعمة من صميمه بغمرة الوجد فتردد في الاجابة ، لا عصياناً ، ولكن خشية من الاساءة الى من يرى في رضاها بهجة الدنيا وزينة الآخرة . بل هو رغب في المسير الى عبد الله بن علي نزولاً على مشيئة مروان ، ولكن لانقاذ عبد الله من قضاء الخليفة لا للقبض عليه وجرّه الى حرّان مهزوماً ذليلاً . اما الآن ، وميمونة تستنجد بالفتى من ابيها ، فسوف يخلع عبد الرحمن قلب ذلك القاسي الحرون . أينقم على ابنته لميلها الى من يعادلها قدراً وفتوّة ؟... ان عبد الله لفظّ ، جلف . وألهب الامير الاموي في رجاله مضاء الهمة فامتثلوا لا يرهبون الصدمة . هذا الزحف في دنيا الرمال ليس لديهم

Twitter: @ketab_n

بالمستهجن وقد اذابوا فيه صفوة الليالي . ومشى فيهم الرسول وهو على رضا بالفعلة . لن يحطم قلب سيدته ميمونة ولا قلب هاويها ، اما قلب ابيها الغليظ عبد الله بن علي فلا بأس ان يتحطم . وتراءى له ان الفتاة ستعجب بما اقدم عليه فيها وتغفر له البادرة . وهمّ بان يفضي الى عبد الرحمن بن معاوية بما ارادته ميمونة على اذاعته في مسمع وديدها فسقط في يده . بات لا يطيق ان يحيد مدى انملة عما اعلن !

ونفض الركب منه تدمر ذات الصفّاح والعمد . وانهال على مصب نهر الخابور من نهر الفرات على حداء لعبد الرحمن الامير الاموي الرفيع العماد . وتطايرت ذوائب الفرسان في لوافح الهجير . وتلوّت رماحهم في ايمانهم كلما هتفوا للامير الفتى . ولم يكن عبد الله بن علي في عزلته على أُهبة للنضال وهو يكاد يكون وحيداً وجميع من حوله من الخدم لا يزيدون على العشرة . فيعتمدهم في التجسس وفي المراسلة وما دقت ساعة الفتنه ليحتشد في فنائه الجيش الرداح. وفي بكور يوم صافي الافق ، صقيل البشرة ، وقد وقف فيه عبد الله يستنبىء الفيافي امر رسوله زين بن خالد ، اذا به يفاجأ بكوكبة من الفرسان تنهب اليه الهضاب المعتصم بها . فاوجس شراً وغمزت يمينه مقبض سيفه . واذا النبال ترنّ عن جانبيه . فجال فوراً في ذهنه ان الخليفة مروان الجعدي تبين مكانه الخفيّ ورشقه بزهط من جنده وهاله الوقوع في قبضة عدوه ولن يكون مصيره في حرّان خيراً من مصير ابن اخيه ابرهيم الامام ، فيستأصل رأسه امير المؤمنين ويجتثّ جذعه ويقضي به على دعامة أيّدة من دعائم الثورة ، فلجّت به ركبتاه في الهرب وليست المقاومة موفورة . وجنح الى جواده الاشهب يعتليه في ومضة ويطلقه كالشرارة في التهام المفاوز صائحاً بخدمه : ابقوا جميعاً في اماكنكم واحرصوا على ابنتي ميمونة . هي في اعناقكم . هؤلاء جنود امير المؤمنين يطلبونني ولا يريدون بكم شراً . فاذا سألوكم عني فابلغوهم اني لا ارتاد هذا المقر ومنذ شهر لم تبصروني فيكم . إلحقوا بي الى الكوفة وقد أمنتم هول الغاشية . هناك موعدنا !

Twitter: @ketab_n

وغاب عن العيون كأنه غار في بطن الرمال . ورانت الوهلة على الخدم . ماذا سوف يلقون من رجال مروان ؟... على انهم شعروا ببعض العزاء وقد قبض سيدهم على مقود الامام . فلن يطوله جند امير المؤمنين . وهوت عتبة الى « حلقة الحديد » هاتفة بمكتنز البشر في اذن ميمونة : مولاتي ، مولاتي ، ضرب جند مروان نطاقه على الدار وفرّ ابوك !

فنخعت كلماتها ابنة سيدها . هل فرّ عبد الله بن علي وما تعوّد الركون الى الهرب ؟... وصاحت ميمونة بارتعاد مستفهمة لهفى: هل فرّ ابي، يا عتبة ؟... ألا بمَ تهزين قلبي، لا حيّاك الله ؟... أيفرُّ عبد الله بن علي ويلقي ابنته تحت رحمة اعدائه ؟... انك لتنعين اليّ فيه الانفة ، لا اطمأن لك بال !

فاجابت الزنجية على مديد ارتياح : نأى عنا واوصانا بك . هو منشود الجند لا نحن . ولقد سلم منهم فلن يمسكوه . وماذا علينا ولن يؤذونا ؟... فلسنا طلبة امير المؤمنين !

وهمست بجزيل الغبطة : من حقك ان تطربي . امسى طريقك مذللا الى عبد الرحمن !

ولكن ميمونة لم تطرب . هذه الاستهانة من ابيها بها ضعضعتها . فما به ينجو بنفسه ولا ينقذ ابنته وهي عصمة شرفه ، وهو ذلك المستمسك بعروة الشرف الوثقى ؟... وشعرت الزنجية بما يساور مولاتها من مخافة ووجع فقالت وهي تبتسم بخبث : لا تجزعي . خلا لنا الجو وتسنى لك مرأى من تهوين !

وفيما تزيل عنها أساها بوغتت الامة السوداء بمن يناديها بشدة تم على الفرحة : عتبة ، عتبة !

فلم يكن الصوت غريباً عن اذنيها . لا ريب ان زين بن خالد هو ذلك المنادي . والتفتت اليه فعرفته وقد بات على خطوة منها يصيح : عتبة ، عتبة ، هذا عبد الرحمن بن معاوية الضارب حصاره على الدار . هو هو . ابى ان يؤمن بما طلبت مني ان احدثه به فاقبل بنفسه يتبين الخبر !

Twitter: @ketab_n

فتبدلت حالة ميمونة وزين بن خالد يعلن المقال الوضاء . وتناست ما كان من ابيها فيها وعلا الابتسام والاعجاب محياها وهتفت بفيض من فرحة: أيكون عبد الرحمن هنا ، عبد الرحمن بن معاوية ؟... بيننا ؟

فشاق هذا التبديل في قسمات ميمونة عتبة الزنجية وقالت فيما تحطم باب « حلقة الحديد » لتنقذ من المعتقل مولاتها : هو بعينه . أما سمعت ما يجود به زين من بشرى ؟... اخرجي الى لقائه . اخرجي . حبيبك بالباب فهنيئاً لك !

ومضى زين بن خالد في الجهر الانيس : ساقوده اليك اذا ابيت ان تسيري اليه . فهو يهرع الى هذه المباءة لانقاذك من اسرك وقد هفا في مكالمتي لساني . فعالنته ان اباك وقف على ما بينكما من شغف فنقم عليك وحبسك في «حلقة الحديد » !

فغاظ ميمونة التواء الرسول في اداء الرسالة . الا ان الجذل طغى عليها لوقوف عبد الرحمن على خطوات قلائل منها ومحا من نفسها الامتعاض من ذلك العابث بما تولى من لزام الامانة . وسرّها ان ترى الامير الاموي النازل منها في ارفع مودة مع سعيها لابلاغه انها سلته واطاعت مشيئة ابيها في ان يعقد عليها لهاشمي . قالت واقصى مناها ان يقع في عينها الفتى : واين يكون عبد الرحمن يا زين ، اين يكون ؟

وهفت الى من تترنح اعطافها بهواه يقودها اليه أجير ابيها . ولذّ لها ان تقف على ما اذاع الرسول في سمع عبد الرحمن ، فاختلجت في مبسمها الكلمات الراشحة بالفضول الهنيء الممراع : ولكن بمَ حدثته يا زين عني ؟... كيف عميت عن ابلاغه ما اثقلت به وعيك من ايضاح !

فابتسم مبتهجاً بما اسفر عنه سعيه من جدوى وقد تكشف اخلاصه لابنة سيده عن انضج الثمار . قال والسرور يجري في ألفاظه فيهيب لها الجزالة والمواهة : هدّ حيلي ان تطبق عليك « حلقة الحديد » يا مولاتي فحقدت على ابيك وهو يغالظك . وهالني ان تجني على قلبك بمغالطة الامير عبد الرحمن في

Twitter: @ketab_n

ميولك فامسكني ولاني عن تصويح رجاوتك . وابصرت عبد الرحمن في وسامته وعزته وانا احبو اليه أثلم روعه بنبلتك فما اطاعني لساني في التضليل ، بل لجّ بي في الافاضة بالحق الابلج فاندفعت في طاعته لا يهدأ لي قرار في بيان مظلمتك . فما آمن عبد الرحمن وحسبني اكايده فيك ، بيد اني أبحت له دمي ان اكن على مماكرة . فلم يتمالك وقد سقط اليه اني صدوق ان هتف : « والله لاقوضنّ على عبد الله مثواه ! ». والخليفة دعاه الى مواثبة ابيك في هذه المعامي فداور . أما وما تولاك من ضيم يثقب اذنه فما اطاق مضضاً يعروك واقبل في نظيرة رجاله لدرء الغاشية عنك . وحبسته مودته لك عن ايذاء سيدي عبد الله ابن علي لئلا يفجعك بوليّ نعمتك ، فما ارتسم في عينه ابوك حتى مال بالجند الى ترويعه بسهامهم كي يفزع الى الهرب لا الى اصابته ومحوه . وما انفك يعالني في اقتحامه هذه المباءة العزلاء بقوله : « لتعلم ميمونة اني حافظ عهدها مهما استطال ابوها في التجني ! » . قلتُ وانا انحني اكباراً لوضاءة المهزة : « سيدي عبد الرحمن ، ميمونة لا تبرح على عهدها . الا ان اباها وقد وقف منها على حبها لك سجنها في « حلقة الحديد » . وخشيتُ ان تظن بها سوءاً وقد انقطعت عنك ، بل خشيت عليك ان تلتاع ولا سبيل بينكما الى لقاء بعد افتضاح خافية الهوى ، فاوفدتني اليك احشو اذنك بالمكاره لتنعم بالسلوان ! » . وقصصت عليه ما انفذتني اليه فيه وما عدلت عنه في الابلاغ الانكد ، فادركه الارتياح وقال وقد انبسطت اساريره والتمع جبينه : « أرأيت مبلغ الوفاء في ميمونة ، ايها الرسول النيّر اللبّ ؟... والله ما اراني في حبها على زيغان وعوج ! » . وحال دون ايغال جنوده في المكان ومنع عنهم اللحاق بابيك هاتفاً بهم : « اياكم ان تحرجوه ! » . ودفعني اليك لاعلامك انه هنا ، وانك في حرز مصون !

فتعاظمت في ميمونة النشوة . وما ادهشتها هذه النجائب في عبد الرحمن ابن معاوية وهو سليل قوم تنشقوا اعراف الجلال والندى فيما تختلج عروقهم برعشة الحسّ . وشدّت بها اليه عزماتها على غليان في الخطوة . ولاح لها عند باب السرداب كأنه يرقبها في النور ويحاذر ان يدهمها في العتمة فيلطخ نصاعة غلالتها

Twitter: @ketab_n

برشح من ريبة ، فهتفت له وقد جال فيه نظرها : « عبد الرحمن ! » ، بل هتف بعضها لبعض . فاهتزت شفتا عبد الرحمن بصيحة : « ميمونة ! » . ودنت منه كما دنا منها . وتماسكت الايدي ، ولكن دون عناق ولا تقبيل. بلى ، كان عناق وتقبيل ، الا انهما في الاعين والحواني . واقام الواجدان في حمّى من حبور باثا منها في شبه غيبوبة . فهما لا يطيقان كلاماً وقد عُقد منهما اللسانان وانهلّت في معارفهما نداوة وارفة كأنها في غلواء من حلاوة الرؤيا . وخشعت حولهما الابصار مأخوذة بروعة الفتنة . وتفتحت الافواه على شده بهيج لا تدركه نفثة . فان للحب الصادق ، الحميّ ، من قوة السيطرة على الارواح ما تحسب نفسها فيه على مشاركة . فكأن في كل ضمير منه نبضة

واذا فارس يقبل على باب السرداب برمحه ودرعه في قحمة عاصفة . فاقلق في الحشد غفوة السهو والخرس وصاح بالزنجية عتبة الواقفة بجانب سيدتها ميمونة على غشيان من مسرّة كأنها في أمتع سكرة : عتبة ، عتبة !

فارتاعت كمن شدخته الوهلة . والتفتت الى هذا الناعق في عرس وعرفته . هو ميسور عميد الخصيان في دار عبد الله بن علي . ونبرت بتعتعة من خوف : ميسور ؟

فاعلن لا يبالي الحفل : سيدي عبد الله بن علي كلفني انقاذكما . واذا عييت عن الانقاذ فعليّ ان اقتلكما واموت على مقربة منكما . هذه وصية مولاي واني لعامل بها !

فاعولت عتبة بمستفيض الجزع : أتقتلنا ؟

– قتلكما بيدي ولا وقوعكما في ايدي اعدائنا . كلمة سيدي عبد الله لا مردّ لها !

فصاحت ميمونة وقد سرّها هذا الالتفات من ابيها اليها: ميسور ، ها نحن ، ها نحن !

وافلتت من يدي عبد الرحمن واندفعت الى عميد الخصيان في دار ابيها

Twitter: @ketab_n

كأنها تروم معالنته انها لا تزال ترقب كلمة عبد الله بن علي فيها . فارتجف صوت الخصيّ بنبرة الاجلال والبهجة وقد اهتدى الى ابنة سيده وجمجم مستهيناً بجميع من حوله كأنه لا يبصر غير ميمونة : مولاي ، النياق بالانتظار . سيدي عبدالله وقع على ركب من انصارنا فيما يختار الفلوات فمال بي الى استلالك من الداهية وقد لحقته في وثبته العاصفة . فلنجاهد في النجاة !

فما كانت لتدري بما تجيب . وارتدّت عينها الى عبد الرحمن كأنها تستشيره في الموقف الحرج . فحبا اليها الفتى بصباحته ونبله يقول باريحيتـــه الراسخة في طبعه العيوف : ميمونة ، عليك بالاجابة ، اسرعي . ليس لك ان تسدّي الاذن عن نداء ابيك !

فتفاقم فيها له الاكبار والكلف وقد عفا عنها وهي من اسراه ، وعفا عن ابيها وكان بوسعه ان يقبض عليه وان يبدّد منه الانفاس . ونظرت اليـه نظرة تلتهب اعجاباً وحباً كأنها تفيض بالقول : « ما اكرمك نفساً، يا عبد الرحمن ، شكراً ايها المتربع في جناني والنابضة بحبه عروقي ! » . وان من الصمت لبياناً. وللعيون ألسنة تنطق بما تعيا عنه في بلاغته الشفاه . وما استطاعت ميمونـــة الا ان تسدّد الى ميسور قولتها على خفوت وغصة : هيا بنا !

فصاح عبد الرحمن وهو يجيل باصرتيه في خدم المنزل : هـــلاّ عجلتم ؟... اذهبوا بسلام . ابتعدوا عن انظار جنودي !

وهمس في اذن ميمونة : سنلتقي في احد الايام . لا عليك !

فجهلت ميمونة كيف تؤدي له بيان الشكر . غـير انه لم يكن بحاجة الى هذا البيان على جزالته وعذوبته،وكل ما نهد اليه ان يدفع كل ملامة عن ميمونة، فلا تقع من ابيها موقع الزراية والموجدة وقد تنكبت عن الطاعة . الا ان عبد الرحمن،مع جهده في ان يفسح لها الى ابيها،خاف عليها من مضي هذا الاب الخشن الروح في ايلامها ، فيسدّ عليها منافذ النور ويحبسها في بطن الارض ، فانحنى عليها يقول : ابلغيه ما كان فيك وفيه مني. فقد يخجل ويتحامى تعييرك

Twitter: @ketab_n

حبي، وايذاءك . لم تكن يدي قاصرة عنه ولو شئت فريتا هامته، الا اني اتقيت نسفه كرمى عينك . انتِ رددت عنه الهلكة . اسرعوا في الفرار !

ووقف ينظر اليهم والنياق تجتاز بهم الغياض وتنأى عنها الى البطاح وقلبه يخفق بالمسرّة . انقذهم بلا عناء . وأحسّ بقلبه يجري في اثرهم . وافعم ضميره رضا راجح الوزنة وقد توفّر على صون من يهوى من شائك التنديد . لن يعجز عنها وسيعقد له أبوها عليها مكرهاً اقراراً بوضاءة هذا الصنيع الحميّ . ولما اوشكوا ان يتواروا عن ناظريه كان المنديل الخافق بيد ميمونة آخر أثر منهم يدل عليهم . فقد شهرت ابنة عبد الله بن علي منديلها تلوّح به للحبيب المنقذ مودّعة واعدة . وتنفس عبد الرحمن بن معاوية بملء رئتيه وقد آمن بخلاص من يحب من كل ملمة . سيستحي ابوها ويقعد عن التضييق عليها ويبيح لها الانطلاق في مسالك هواها . فالجميل لا يذهب ضياعاً . ونادى اليه الامير الاموي رجاله وجمع صفوفهم وهو يقول : لنرجع الى دمشق !

وعاد اليها على متناهي الانشراح . قام بما عليه ومهّد الى غده . واوفد الى مروان من يبلغه ، بكاوي الالم ، نجاة عبد الله بن علي من الفخ، ووثبته الى فيافي العراق يعتصم بربوع بني قومه المتحفزين للاقلاق وهزّ الدولة الاموية في اصولها النخرة العابث باعماقها نهيم السوس !

Twitter: @ketab_n

٩

لم يندمل الجرح النازي في الصدور بل سخن ونغر . فالصيحة المنطلقة من حنجرة ابي مسلم في خراسان ردّدها العراق وسايره فيها شطر من الشام والحجاز، ولكن على حذر . وكشفت الفتنة عن جبينهـا فاحتشدت قوات الخراساني في الموصل تزيدها جحافل العباسيين والعلويين ضخامة ومكنة . وضم اليها سليمان ابن هشام كتائبه فاستفحل الخطب . وشمر مروان بحرج المأزق فرمى المناوئين بجيوشه يلوي منهم الشكيمة المستفحلة ويردهم على خذلان

وسليمان بن هشام غادر الرصافة ولم يكن يتحسّس فيها الامان بعد احتدام النار . فانسلخ منها يؤمّ الكوفة ويودعها نساءه وهو الملتاع المهجة على ابنتـه زينب الرازحة بكاسح اشجانها . فالخيبة في قلبها رمتها بالعلة فتوالت كربتها على حسرات زوافر لا يهدأ لها أُوار

ومع خوض سليمان المعامع المشبوبة وحسن بلائه فيها يعضده ابنـه ايوب، لم يكن يسلو زينب . فكلما اباحت له الحرب نهزة تدنيه من هذه الابنة الزكيـة النكهة، المندلعة السنى ، هفا اليها يستقصي اخبارها . وإن تشغله عنها المعارك أوفد اليها الرسل للاطمئنان عنها . ووثب ذات يوم الى فناء داره ريحاً عاتية . وترجّل عن جواده بسيفه ورمحه وعباءته وكوفيته وعقاله وقد أضاءت وجهـه مسحة من غبطة . وعلا قوله في خدمه : كيف زينب، ابنتي ؟... هل ملكَت العافية ؟

فاطلت من عليّة الدار وقد سمعت صوته وعلت شفتيها بسمة رخيّة . فصاح: أتكونين بخير ؟... يا للفرحة !

Twitter: @ketab_n

وقفز اليها السلام يضمها بين ذراعيه ويقول : اني احمل اليك اروع بشرى ! قالت وفي صدرها ابتهاج : هل انتصرتم ؟

– انتصرنا ودحرنا مروان . صدمناه بتسعين الفاً فاتقيناه بسبعين . وحالفه في البدء الفوز ورمى بنا الى الموصل . فجمعنا فلولنا ولويناه . وكانت المعركة الفاصلة على نهر الزاب ، فقهرنا الجيش الاموي وبددنا جموعه . وانه ليتراجع في هزيمته مثلوم الحد. على اننا ماضون في مطاردته حتى نبيده ولو بلغ آخر الدنيا!

– وربحتم الحرب ؟

– ربحناها ولن تقوم لمروان بعدها قائمة ، فابشري ، يا عين ابيك !

فتواثب الى شفتيها اسم عزيز عليها لم تقوَ على كتمانه . قالت وقد سبق لسانها رزانتها : وعبد الرحمن ؟

فقال يتباهى : كدت أشك قلبه بهذا الرمح على دفعتين . غير اني ذكرت انه ابن اخي فما أبحت ليدي ان تصميه . ولقد رأيته يغيب في تيار المهزومين . وربما قبض عليه الهاشميون وقتلوه !

فصاحت بوهلة : قتلوه !

– ليقتلوه . أتشفقين عليه وقد ذبحك باعراضه اللئيم ؟... فتك الهاشميون في معركة الزاب بثلاثمائة اموي ، فلا عجب اذا جرفه التيار وكان في مطاوي هذا العديد المنكود !

فجرضت بريقها . وشعر سليمان بالكآبة الأليمة تعروها . فالحب الاثيل غلب فيها الحقد العارض . قال ابوها : ألا ينقذك موته من مضض عبثه بك ؟

فأراقت دمعة واطرقت على لوعة . فهال اباها ان تظل تحنو على حبها البائس وغصّ كأنه يبلع الشوك . وساوره الندم على صون ابن اخيه . فلو اطاع فيه حرصه على زينب لاودى به وموته يخلع عنها هواها اليؤوس قال سليمان يحاول ان يخفف عن ابنته جزعها : ما لنا ولعبد الرحمن، يا زينب . فهو ميت

Twitter: @ketab_n

عندنا سواء هلك او عاش . وجلّ ما عليـــا ان نطرب للغد الثمين، الدرير . ابوك سيتولى مقام الخلافة في المسلمين !

وحدثهـــا عن موقعة الزاب ، وعن مجد الرايات السود المتلألئة في ايدي الهاشميين ، وعن خيبة مروان . قاد الجعدي كتائبه بنفسه فدارت عليه الدائرة . قال سليمان : وسوف يقبل بنو هاشم لمبايعي ، فقد ابتسم لنا الزمن بعد عبوس ولم يبق من اموي يزاحمني على الرجاوة . فاطربي . ستمسين ابنة خليفة وتهزين بيمينك دولة لا تغيب عنها الشمس . من الاندلس حتى الهند . انـه لملك ضخم عريض، يا بهجة سليمان بن هشام سيد العرب الصيد !

فتمتمت بوهلة نافض : ولكني اخاف من بني هاشم ألا يفوا بمـا وعدوا بعد هذا النصر السمين !

وجبهته بما جبهه به عبدالرحمن ابن اخيه . فصاح : محال، يا زينب . هؤلاء قوم اذا عاهدوا حقّقوا . سوف ترين انهم يصدقون !

فلم تجب . وسكوتها اثار في نفسه الريبة . فتضايق وخشي ان يكونوا صانعوه لبلوغ الارب . فيقاتل إلى جانبهم برجـاله ، وينصرهم على مروان ، وبعد ذاك يديرون له الظهور . وتلجلجت نهيته بالتساؤل : هل يصدق فيـه حدس ابنته وابن اخيه ؟

وقلق . فالتوى عن ابنته شاخصاً إلى ابي العبّـــاس صديقه الاوفى وقطب الهاشميين بعد ابرهيم . وهو مـا اطلّ في نادي سيد بني هاشم حتى وقف له كل من في المجلس ترحيباً واجلالاً . ومشى اليه ابو العباس يقول مصافحاً ومعانقاً : بشراك، ابا ايوب . هوى عدوك عن باذخ مثواه وانتهى الامر الينا . نعمنا بمـــا طالما سعينا له ونهدنا اليه !

وقاده الى صدر المجلس يفسح له الى جـانبه . فابتسم ابن هشام بن عبدالملك ابتسامة مستطلعة ورقب ان يبايعه ابو العباس ، فما وقع على البغية . واطـال ابو العبـاس الحديث عن النصر المبين كأن سليمان لم يشهد المعركة ، ولم يعرّض

Twitter: @ketab_n

صدره لطعنات الأسنّة ، ولم يخضّب يديه بالدم . قال ابو العباس : قواتنا تطارد مروان الى الشام بعـــد جلائه عن العراق . وسنلحق به الى حيث يلجأ . فلا هدوء الا وقد حززنا رأسه . عمي عبدالله بن علي في اثره وهو يتحرّق نقمة عليه !

فارتجف سليمان على كره منه وهو يسمع بعبدالله بن علي . فكأنه رسا على شؤم . وانتشرت فيه الكمدة . وكانت ترتعش آنـاً بعد آن في وجهه البسمة المتكلفة لئلا يقال فيه انه لا يشاطر القوم فرحتهم المستفيضة وقـد خلعوا عن رقابهم نيراً مهيناً عانوا مضضه الكاوي تسعين سنة راجحة .

واهتزّ المجلس بمن فيـه . وانصبّت العيون على رجل رهيب المنظر ، طويل القامة ، عريض المنكبين ، كثّ اللحية ، فاجأ القوم كالايماضة . ودلّ الغبـار الكاسي عقاله وكوفيته وعباءته انه مقبلٌ من رحلة بعيدة. فوقف له الجميع وقد فرضت عليهم طلعته الخشية اكثر منها المسرّة . وضغطت يسراه مقبض سيفه . فشقّ النادي الى ابي العباس باعتزاز وجرأة . وصافح قطب الهاشميين بدالّة ذي الحظوة الوارفة وعانقه بعنف ليجلجل بنبرة المتشامخ المستأسد : اقبـل الزمن يا ابن اخي ، فمرحى. اوصى لك ابرهيم الامام ، اخوك ، بالقيادة، وانت قائدنا وزعيمنا . وغداً سنبايعك بخلافة المسلمين بعد القضاء المبرم على مروان الحمـار ورهطه المناكيد !

فماج النادي بالضحكات المستطيلة وارتفعت صيحات تذيع : الا أي ما يقول عبد الله بن علي . اصاب عمك ، يا ابا العباس !

ولم يكن الرجل غير عبد الله نفسه . ولقد التفت الى سليمان بن هشام معلناً ببسمة ساخرة ، ذات اظفار خوادش: أليس كذلك، يا سليمان ؟

فارتج على الأموي . انها لمفاجأة صاعقة زعزعت فيه مثوى الامل واعمت البصيرة . نحره عبد الله بن علي في أعزّ صبوة . هذا أبعد ما يبلغ الحقد من رهافة في الكيد والانتقام . وأحسّ ابو ايوب باضمحلال الأماني فكاد يمحى . غير ان الموقف لا يدعو الى السكوت والسكوت يفرض الريبة . فجاهد سليمان مقوله

Twitter: @ketab_n

في الكلام يجره اليه الاستدراج المتقطّر لؤماً وقال بكشرة مغتصبة ، مريضة ، أشبه ببسمة الطائر الانفاس : كلنا يقرُّك على ما تبرم،يا عبد الله !

وارتفعت حنجرته وهبطت . وفشا في اساريره الاكفهرار . وبلغت كلماته المسامع اشبه بالحشرجة . اكرهه عبد الله بن علي على مبايعة ابي العباس بمداورة محرجة طغى عليها الدهاء الحاطم. فانكر سليمان بن هشام حقه في الخلافة بخجل واستخذاء وقد انتزعه منه عبد الله بن علي في انكد موقف بكلاً بـة مستأصلة ضروس ، وزفّ الخلافة الى الهاشميين كالعروس المجلوة تفيض طلالة وسنى . فما تعب الهاشميون منذ تسعين سنة في ادراكه ولم يبلغوه ، يوم ركوب معاوية بن ابي سفيان سدة الخلافة والتواء علي بن ابي طالب عنها ، دان لهم في مخاتلة اجاد حبكها عبد الله بن علي وقد تحيَّن لهـــا الفرص ووفق في الاغارة وفي الظفر بالضلول !

واطرب هذا الفوز عبد الله وقد اقتنصه على غير موعد واخزى به سليمان ، الا أن حقده ما اشتفى ولا تبرح اهانة سليمان له تحزُّ في قلبـــه . قال متوعداً : أُعيد الحق الى نصابه في الدولة العربية ، يا بني أُمي. واستوى الهاشميون على المنصة الموقوفة عليهم وقد شيَّدوها بسواعدهم ، الا ان الغلبة لن تستقر على مداها بين ايدينا الا وقد نكلنا بمروان تنكيلاً يطفىء فيـــه علالة الروح . ولن نكتفي بمروان نجهز عليه وسنطلق للسيف حكمه القاطع في كل أموي !

فتعاظمت الصفرة انتقاعاً في وجه سليمان . هدر دمه عبد الله بن علي الجبار الحقود . غير أن ابا العباس استدرك يدرأ عن صديقه وحليفه هول التهديـــد فاعلن : باستثناء خدينا الأوفى سليمان بن هشام،يا عمّاه

فلم يجب عبد الله بن علي . ولكن بريق عينيه المتأججتين بالنقمة والكره ، وقطوب جبينه الناطق بالتيه والاعتداد ، دلاّ على انـــه لن يرحم . فلن يبقي لاموي منخرين يتنفسان . هذه ساعة الابادة الصادعة . فلا تبرح مأساة كربلاء تنهش كبده وتهيب به الى الاخذ بالثأر . يا لثارات بني هاشم ! ولا تنفك رؤيا

Twitter: @ketab_n

هامة زيد بن علي بيمين هشام بن عبد الملك ، هشام والد سليمان هذا الراغب ابو العباس في صونه من البلية ، تلطم خياله فتثير فيه الضغن الاكول . وعبدالله ابصر بعينيه شفار الامويين تحصد هامات العترة الهاشمية ، وسمع باذنيه السخر والتنديد وعاهد على شفاء قلبه من الحرقة العضوض والتنكيل بالجفاة المغتصبين ، ولن يرجع عما عاهد وقد بات الظفر ملء يديه وانتكس اللواء الاموي . فالايام مؤاتية والابله من لا يغتنم موفور السوانح . ثم ان له عند سليمان ديناً يطمع منه في الاستيفاء وفي الابراء . فهل غاب عن سليمان ما هدده به في عزلته ، عند مصب الخابور من الفرات ، وقد توعده بالقتل لولا حرمة الموالاة ؟... بل هو اضمر له الشر وانذر بالحساب يوم ينجلي الافق وتنجاب الغمامة السفعاء . ولقد صحا الافق وانقشعت الغمامة ، وليس عبد الله بن علي بمن يتوارى ويجبن في الحساب. فلن يصفح وقد اذلّ الرقاب وقبض على النواصي . ولولا وقار المجلس ، ورهبة الساعة ، لاطار فوراً رأس سليمان . على ان الاقدار مسعفة ، وسليمان في قبضة اليد ، فلن ينجو من قتلة حاسمة تنثره غباراً في الهوجاء

وانطوى سليمان على مذلة . صدق ابن اخيه وصدقت ابنته في ما عُالناه . استعان به الهاشميون على مقاصدهم ، ولما تمت لهم البغية رذلوه . وعدوه بالخلافة ليثيروا الشقاق في البيت الاموي ، حتى اذا ما توطد لهم الامر لم ينجزوا والخلافة جلّ ما تحنُّ اليه النواجذ . وندم سليمان ، وقت لا يجدي الندم ، على تشيعه لاعداء اسرته . ليته أصغى الى نصح عبد الرحمن ووفّق بين الامويين والهاشميين ، فتظل كفة البيت الاموي راجحة وترسخ فيه دعامة الخلافة . ولا بد ان تنتهي هذه الخلافة اليه هو ، سليمان. وان لم تكن اليه فالى ابنائه وحفدته. وودّ لو يلحق بمروان فيقاتل بجانبه ، ولكن اخلاصه لكرامته قضى عليه بان يبقى حيث أقام . فلن يرجع عن مذهب نادى به وينكص عن طريق شقه بيديه وان افضى به الامر الى الاخفاق ، فالهلكة !

ومال ابو العباس الى مسايرته ليخفف عنه اللذعة الكاسفة ، الكاسحة . فشعر سيد بني هاشم بوقع النبلة الغارزة في كبد سليمان وقد رشقه بها عبد الله بن

Twitter: @ketab_n

علي يتعمد القهر والذبح . على ان الجرح ما كان ليندمل في سويداء المولى الاموي والمضض يلتمع في الحين بعد الحين في جهامة طلعته وحلكة عينيه !

ولم يطق البقاء في مجلس ابي العباس. فاعتذر وانصرف وفي ضميره الخذلان وفي جبينه النار . وبحث في منزله عن زينب ابنته ليطلعها على ما لقي من هاصر الهزيمة ، فلم تكن زينب في دار أبيها وقد يرحتها الى حيث لا يدرك لها قرار !

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

١٠

اضحت الكوفة موئل قادة الثورة الهاشمية . فهي حمام الآمن وفيهـا رسا القوم بالنساء والاطفال واللفيف . وعبدالله بن علي لجأ اليهـا في نأيه عن مصب الخابور من الفرات . فاستقرّ بمنزله فيهـا يردّ عن اهله الخطر ، واندفع بنفسه الى الموصل يلقى ابا مسلم الخراساني المقبل اليها بكتائبه للقتـال تحت الراية السوداء .

وعبدالله تولى قيادة احـد الجيوش الهاشمية وهو من المجربين في الكفاح . ولا يكاد يذكر ما قضت عليه ابنته ميمونة مما كان فيه وفيها من سماح عبدالرحمن بن معاوية حتى يزوّي مـا بين عينيه ويغضب على ابنته المقلقـة وعيه بهذه المروّعات . ولقد ادار لها ظهره يكل امرها إلى ميسور عميد الخصيان في داره امتهاناً لمكانتها منه . ووقفت ميمونة على انباء القتال فهالها ان ينهزم الامويون بتلك العجلة الفاضحة وخافت على عبدالرحمن من ابيها . فلن يذكر له عبدالله بن علي فضله بل سيطيحه وينجو به من شبح مقيت يسدُّ عليه رحابة الانفـاس . وخوف ميمونة على الفتى المتبطن حوانيها أهاب بها الى مناداة ميسور تستوضحه ما يعلم من خفايا النزال . فاعلن الخصيّ بطرب : وماذا اعلم منها ، يا سيدتي غير ما اتصل بك من بشائرها ؟... قهرنا الامويين ورددناهم على اعقابهم فلولاً تنوء بهزيمتها . وابوك مـا بدا فينا حتى انطلق للامعان في تهشيمهم . اقسم على محوهم لا يشفق منهم على ان يوم !

فواثبتها الغصة وتمتمت بالتياع: أتجهل، يا ميسور، ان منقذنا في مصب الخابور من الفرات ينتمي إلى هؤلاء الامويين ؟

Twitter: @ketab_n

فاجاب بنبرة العارف الموقن : لا،يا مولاتي،لست اجهل انه منهم وانه يدعى عبد الرحمن بن معاوية !

فاستطلعت بلهفة : وماذا وقع في اذنيك عنه ، يا ميسور ، ماذا جاءك عن عبد الرحمن ، هل دارت عليه الدائرة في معركة نهر الزاب ؟

فاجاب بعنف في التفكير ينضو به ذاكرته الغبشة : سمعت انـــه نجا من المكروه، يا مولاتي . فقد سلم من المحنة كما سلم منها اخواه. غير ان اباك لن يذكر فيهم رحمة الله وسينثر لحومهم في مهب السوافي . لن يبقى اثر لاموي يعيث في صحوة الجو اعتكاراً وسيدي يغلي حقداً على تلك السلالة النكداء ويأبى الا أن يجلو بدمها نفائات الارض !

فقالت وعيناها تثقبان عينيه كأنها تحاول ان توقظ فيه حاسة هاجعـــة : وماذا يجب في المنقذ، يا ميسور ، في من فسح لنا الى النجاة ؟

فادرك مرماها ونثل بصوت خافت ، حالم ، وهو يزمّ باصرتيه ويسدّدهما الى ناظري ابنة سيده كأن ما حارلت ميمونة بعثه فيه قد تنبّه وانتعش : وضح ما ترنجين ، يا مولاتي !

فاعلنت بشدة في الاداء : يجب انقاذه كما انقذنا،يا ميسور . صارحتني عتبـة بما تصارحني به عنه . لا يزال في بسطة الاحياء . فما حصده السيف في قافـــلة الأمويين الثلاثمائة المتطايرة ارواحهم في المعمعة الدارسة . فاذهب اليه وعامله بما عاملنا به . حذار ان تطرحه في البركان الهاشمي المذيب !

فابطأ في الجواب ، وغارت باصرتاه وقـــد تولاه التفكير المرير . وساءل نفسه : أيجيب ابنة سيده الى ما تدعوه اليه ، ألا يغضب أبوها إذا درى بالسعي الذي تبذل لخلاص الفتى الأموي ؟... ولكن هذا الفتى رد عن ميمونة وعن أبيها الأذى واباح لهما النجاة ، فلماذا انكار يده الخيرة والاعراض عنه في موقف الاقرار بالجميل ؟

ورقبت ميمونة بشوق وخشية ما سيجاهرها به . فقال بعد تردد شائك ،

Twitter: @ketab_n

ممضّ : سيدتي ميمونة ، اوصت السماء بالمعروف ، والمروّة دين واجب الاداء !

فهتفت راجية أكثر منها قلقة : وعلى مَ عوّلتَ يا ميسور ، على مَ ؟
— على انقاذ الفتى يا مولاتي . كوني من الامر على يقين !

فراعتها فيه رجاحة الخلق . وما تمالكت ان انتزعت من جيدها عقداً من اللؤلؤ الناصع تهديه اليه جزاء حميّته ، فرفض ان يلمس العقد وهو يقول : دين عبد الرحمن بن معاوية يلزم عنقي كما يلزم عنقك ، فدعيني أجاهد في وفاء ديوني!

فزادها اكباراً له واعجاباً بنبيع شممه . فالنبل ليس وقفاً على كبار القوم وفي الصعاليك احياناً من شوامخ الرفعة ما يتخاذل عنه ذوو الخطر . قالت تضرم فيه لهبة العزم : إنطلق اذاً في أثر أبي وهو ينصب للامويين شركاً للايقاع بهم وانتشل عبد الرحمن من الورطة . وابلغه ان يكفر بكل ما يخاطبه به الهاشميون من القول الدميث !

فاندلع شرارة طائرة . وأقامت ميمونة بانتظار ما سوف يكون . ولم تضمّها في الكوفة « حلقة الحديد » ، وهي بعيدة فيها عن عبد الرحمن ، بل نعمت بمطلق حريتها . وأبوها عبد الله بن علي ندم على ما كان منه فيها . واشتد به الندم وهو يفر من داره في مصب الخابور من الفرات ويدع ابنته غنيمة رخيصة لانياب الامويين . ولم يصدق انه يراها والصحراء تزفها اليه . فضمها الى صدره وقال بحنان خرج فيه عن صلابته المأثورة : ميمونة ، اقلقتِني وأنت في مهب الدواهي فوق ما اقلقني مروان الجعدي !

على انه تنكر لها وقد أذن بما لقي ولقيت من حلم عبد الرحمن . وودّ لو لم يكن لهذا الاموي المشؤوم هباءة من فضل عليه تزيد في شغف ميمونة بالفتى الخصيم وتضرب عليه ، هو عبد الله بن علي ، ذلة الملاينة . واذابت سمية ، أمّ ميمونة ، الجهد في التوفيق بين ابنتها وزوجها فما أوتيت الطاقة . واقتحم عبد الله غمرة القتال ونفسه تنزو اضطغاناً . فآلمه ان يقيم من ميمونة ، ريحانه نفسه ، على جفاء حزين . ومضى للفتك بالامويين وبعبد الرحمن بن معاوية في

Twitter: @ketab_n

طليعة الجيش . على انه لم يوفق لقتله في غليان المعركة مع بطش الهاشميين بثلاثمائة أموي . فاعاد عبد الله الكرة ونفسه تصبو الى الاشتفاء النجيع . فيدرأ عن نفسه كدرة تنغص عليه صفو شرابه وترميه بالكمدة ، وينشط لمعانقة زهرته الغيداء ، ابنته ميمونة ، وهي وحدها تحيي فيه الشعور الرفيق ...

ولكن من هي هذه المقبلة الى دار عبدالله بن علي تسأل عن ميمونة ؟... من هي هذه الممشوقة القوام ، النبيلة الطلعة ، المتهادية الى دار الزعيم الهاشمي على قسوة في الملامح وحزم في الخطوات ؟... ودعيت ميمونة إلى اجابة الزائرة الوثّابة العين ، الصارخة الاناقة ، فما ابطأت ابنة عبدالله بن علي يسوقها كابس الفضول ، غير انها شدهت وهي تبصر القادمة وتلجلجت في الكلام . هذه زينب ، بنت سليمان بن هشام . فما جاء بها اليها وهي منافستها في عبد الرحمن الحبيب الأريب ؟

وسألت ميمونة باصرتيها . أتكون المائلة تجاهها زينب بعينها ؟.. وظلت ترتاب مع يقينها انها ترى حيالها مزاحمتها . واندفعت اليها الاموية الروعاء تحييها وتقول بجهير المؤانسة : ميمونة ، لست اجهلكِ ولا انت تجهلينني وقد اظلتنا معاً سماء دمشق ومغانيها . وجاءني عنكِ كما جاءك عني ان القلبين ينطويان على حب عبد الرحمن ابن عمي . ومع اقراري باني اهوى عبد الرحمن وهو يميل عن مودتي ، وقد وقعتِ منه موقعاً ارفع ، فلا يسعني وانا اراه عرضة للخطر الا ان اقبل اليك متناسية غيرتي وحبي كي تلتمسي للفتى من ابيك الامان وقد سقط إليّ ان اباك يلجّ في استئصالنا . ليشفق وليبقه ، يا ميمونة . فانت تعلمين مثلي ان عبدالرحمن بريء من مشاين الامويين !

ونزفت عيناها الدمع الصبيب . وتلاشى فيها زهوها فباتت في موقف المستجدي . اين عجب زينب بنت سليمان ؟... أذواه الحب الجديب العصيّ فبدّده في متناوح الريح . قالت وهي تتقلب على هلع قاصم : ميمونة ، انقذيه وليكن لك ، على ان ينجو من المهلكة . أؤثر ان اراه حياً وليمت قلبي . حقدي عليه في ازوراره عني لا يهيب بي الى الراحة وعبد الرحمن يعاني سكرات الموت !

Twitter: @ketab_n

واشرق الصدق في كلماتها . فالتضحية بلغت فيها مداها . وتعجبت ميمونة مما تأذن به من الهوادي فابدت بتأثر بليل : زينب ، بقاء عبد الرحمن حياً هو كل مـــا أروم . اصبحتُ لا ابالي امر هواي مثلي سلامة الفتى . واني لاضحي بحياتي لضمان ايامه . ليكن لكِ على ان يسلم من الاذى . انت أحق به مني . غير ان ابي لن يلين في القسوة . فقد صمم على الانتقام من جميع الامويين، وفي الطليعة عبد الرحمن . وشفاعتي تزيد في احراج موقفه وفي نقمة ابي عليه . الا اني انافح عنه بمـــا في وسعي . فاوفدت من ينقذه من بطش والدي بعدما انتهى الي انه ينعم بالوجود !

فناح في زينب الخوف على ابن عمها وقالت مستعطفة : انقذي عبد الرحمن ، يا ميمونة !

فاعلنت ابنة عبدالله بن علي بعزم صليب : أنا ساعية لانقـــاذه فلا تقلقي . سأدفع عنه الشر بحياتي !

ووطنت النفس على التضحيـــة . وانتظرت عودة ميسور للوقوف على امر الفتى . وميسور توغل في ضفاف الفرات وقد غارت في مطاويهـــا فلول جيش مروان . فايقن الامويون ان النصر افلت من ايديهم وان الغلبة للهاشميين . وهذا اليقين حمل شطراً منهم على اجتياز النهر سباحة خشية الوقوع في أسر المعقودة لهم رايات العزة

وعهد مروان إلى القوة المالك امرها عبد الرحمن بن معـــاوية في حماية مؤخرة الجيش . ومروان على ثقة بالامير الاموي الناشىء وقد اثبت له في مواقع الشدة انه خليق بالمعالي ، كفيء في التدبير . ووقف عبد الرحمن على ضفـــاف الفرات يرد عـــن الجيش الأموي المدحور عادية الهاشميين ويتّقي بصدره وثبات الاخوين عبدالله بن علي وصالح بن علي . الا ان الرعب فشا في جنده فعمد اكثره الى عبور النهر فراراً من النضال . والتفت عبد الرحمن الى من بقي حوله من رجاله فاذا بهم حفنة لا تدفع خطراً ولا تمسك على منعة . فاوجعه مـــا صار اليه وأبى أن يعود ممزق اللواء فثبت في الموقعة . واذا جنـــد عبد الله بن علي

Twitter: @ketab_n

يلتف عليه ولا يدع له غير النهر منفذاً للنجاة .

ودرى عبد الله ان عبد الرحمن بن معاوية ، غريمه ، يقود الفنول المحطمة ، فشاء القبض عليه حياً للفتك به بيده . فيقطع رأسه ويروي منه الاوتار العطاش ويحمله إلى الكوفة منـادياً في الاعوان والخصوم : هذا رأس عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، حملناه اليكم ليعتبر بصيره من تختلج في قلوبهم نضاضة من حنين إلى العهد البائد الخسيس !

فمـــا مثل هشام من مأساة في الرصافة على مرأى من عبدالله ، يوم انتضى بيمينه رأس زيد بن علي الثائر على الامويين ، رغب عبدالله في اعـــادة تمثيله في الكوفة بانتضاء هامة حفيد هشام المضروبة العنق بالسيف الهاشمي المنصور . وتراءى لعبد الله وهو يدحرج رأس عبد الرحمن بن معاوية انـــه يبلغ هدفين ، فيظهر للمرتابين بعظمة بني هاشم انتقامهم الحاصد وقد ساروا فيه على شرعـــة « سن بسن وعين بعين ! » ، ويسلخ من ابنته ميمونة حبها العقيم !

وأوفد الى جند عبد الرحمن من يعلن فيه : ايها القوم ، ضاق بكم كل أمـل بنصر وكل مهيع الى نجاة ، فارأفوا بانفسكم واستسلموا الى مولاي عبد الله بن علي . مولاي يذيع فيكم : « من استسلم سلم ! » . فالقوا السلاح وانتم بامان !

فصاح عبد الرحمن بن معاوية متطيراً : من هذا الناعي الينا انفسنا ؟... اقبضوا عليه واقتلوه !

ولكن الموقف لم يكن يأذن في النهوض بالعزائم الخائرة . فالجنـد الاموي المضطرب الروح طمع في الاستسلام ما دامت النجاة موفورة . وكل مـــا بذل عبد الرحمن من مجهود للحؤول دون الانهيار أفضى الى الخسف . فالشطر الاوفر من قواته مال الى الخلاص بحياته ، بعدما رأى النصر يفلت من الامويين ، مهما أدى بدل هذا الخلاص . فلماذا الكفاح الخاسر العاقر ؟... واظلمت في وجـه عبد الرحمن الدنيا وعز عليه ان يخيب في ما عقد عليه مروان من رجاء ، فناشد رجاله ان قفوا ، اثبتوا ، ناضلوا !... فضاعت صيحاته كقطرة في غمر . وشعر بالموت يهزه وهو يبصر رجاله ينصرفون عنه الى معسكر عدوه وغاض فيه كل

Twitter: @ketab_n

ولم يبق في سوى رهط ضئيل من الخلّص . وخجـــل من النظر الى هؤلاء الشجعان فانطوى على نفسه وكاد يفقد رباطة الجأش . أيدفع هذه البقية الصالحة من المجاهدين الابطال الى الموت وليس في الموت عائدة ، أم يدعوهم الى اللحاق باخوانهم ويسير في طليعتهم الى استمطار رحمة عبد الله بن علي، العدو المسرف في الانتقام ، الصلود في الرأفة ؟

وما نسي عبد الرحمن انه ذو فضل على عدوه . فلو شاء ان يودي بـــه في مصب الخابور من الفرات لاستطاع . فما عليه اذا ذكر هذا الفضل وهو يرتمي في عطف عبد الله ؟... فانه لينقذ جنده وينقذ اخويه السائرين في ظله . وهالتـــه المجازفة بمن رسا في ركابه من الشوس النجداء.فالتفت اليهم يقول برفق في النبرة وبوقار العزيز المقهور : ايها الصيد الميامين ، لا بد مما كتب الله . عبد الله بن علي أكثر منا عدداً وأمضى عزماً . فاذا ناوأناه فالموت نصيب كل منا . ولست أبخل على الموت بروحي ، وهو سيدها في الحين المتاح ، الا اني أبخـــل عليه بارواحكم تذهب سدى وانتم ذوو غد وعيال . لقد استشرت فيكم ضميري فأبى عليّ ان أهبكم للفناء ضحايا رخيصة . فلنمشِ الى عدونا واثقين بنبله ومروءته ، والاتكال على الله !

واندفع في المقدمة ممتطياً جواده . واذا برجل يثب عليـــه ويقبض على شكيمة الجواد ويصيح بـــه : ماذا تفعل ؟... أترجو الحياة وأنت تنطلق الى النار تحترق في أتونها ؟

فجمـــد على صهوة جواده . وتذكر انه ابصر الرجل . ولكن اين ؟... فغمغم وقد اتسعت عيناه : من انت،يا هذا ؟

فاجاب المنذر بالويل ونبرات صوته تموج صدقاً : أنا من يسعى لوفـــاء دين طوقتَ به جيدي !

فألهب عبد الرحمن ذاكرته كي تنجلي عن معرفـــة هذا الساعي للوفاء .

Twitter: @ketab_n

وانتفضت شفتاه بلجلجة تخشى الزيغان : أسائق النياق من مصب الخابور إلى الصحراء ؟

فصاح مخاطبه وقد سره ان يعرفه القائد النبيل : اني لهو !

وما برح قابضاً على الشكيمة . فذكر عبد الرحمن الموقف الطريّ الصفحة وقال : من اوفدك إليّ ؟... أإبنة سيدك ؟... ميمونة ؟

— هي بعينها ، يا مولاي !

فخفق قلب الفتى الأموي . هذا رسول شقيقة الروح . قال يستقصي : وإلى مَ تدعونا ابنة سيدك ؟

— انها لتصبو إلى اقالة العثرة ومقابلة الجميل بالجميل . انقذتنا من الدهمة وسننقذك منها . اذا شاء رجالك أن يسيروا إلى عبدالله بن علي فليفعلوا ، لا خوف عليهم ولا ضير . أما أنت فحذار أن تحدثك النفس بخطوة . فالقائد الهاشمي في ظمأ إلى دمك ، كن منه على احتراس الفطين !

— ولكن عبدالله بن علي يقول : « من استسلم سلم ! » ، ونحن نجل فيه الصراحه ونكرم سمو القولة !

فاعلن الرسول بجلاء لا يتلعثم بلكنة من موارية : عبدالله يستعين عليك وعلى اخويك بالخدعة . اصرف رجالك عنك والحق بي . هل فاتكَ ان القائد الهاشمي اقسم على اراقة دم جميع الأمويين ؟

فمال عبدالرحمن على رجاله يقول وقد آمن بكلام رسول ميمونة : من رغب منكم في الاستسلام فليقدم عليه . انتم احرار في مصيركم ولم يبق لي عليكم سلطان. صونوا ارواحكم وامشوا في ركاب الهاشميين !

فصاحوا بحماسة أيّدة وكأنهم ينطقون بلسان واحد : نحن بجانب الأمير ولن نحيد . الموت في ظله احب الينا من العيش في احضان الخصيم !

فجرت في عروقه رعشة اعجاب كادت تندى بها عيناه . فلا يزال حوله

Twitter: @ketab_n

قوم يبطنون له الولاء . قال : أتسيرون في خدمة من تتوعده منيته ؟... صرعة الموت على مدة ذراع مني . فانجوا بانفسكم . كتب الله لكم العمر الطويل !

فهتف بهم رسول ميمونة ، وان هو إلا ميسور عميد الخصيان في دار عبدالله بن علي : تعالوا ، نحن بحاجة اليكم . علينا ان نشق نطاق الحصار المضروب علينا للفرار بالامير واخويه إلى الملجأ الآمن ، أتفعلون ؟

فنبروا : ارواحنا فدى الامير !

وماجوا إلى حيث أشار ميسور ومهجهم على أسنّة رماحهم . وثلموا النطاق الهاشمي في ومضة طائرة كأنهم الشرر . وكُتبت السلامة للأمير وأخويه ورجال عبدالله وصالح بن علي في غفلة . قال ميسور : بوسعكم الآن ان تتفرقوا . فاذا طاردونا فلن يدروا بمخبإنا !

فاطاعوا مكرهين ، وما كانوا ليرضوا الانسلاخ من الأمير وهو عنوان عهد وشعار عز . وقاد ميسور الفتيان الأمويين الثلاثة إلى كوخ ضائع بين القصب النامي على ضفاف الفرات وهو يقول : حققتُ فيكَ مشيئة سيدتي ميمونة ، يا عبدالرحمن . انقذتمونا فانقذناكم . انتم في هذا الكوخ بأمن من الخطر المستدبب الكفور !

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

١١

– ميسور ، هل نجا الأمير ؟

فكفتها ابتسامته المرفرفة على أساريره الملس شر القلق. فالنجح يتكلم فيه. قالت ميمونة بشوق إلى الاطـــلاع على الصنيع : اسرع في الإيضاح . اين عبدالرحمن ، هل اتقى البلية ؟

وأصاب زينب من ظمأ الفضول ما أصاب ميمونة . فالاثنتان في حنين إلى بيان ميسور . قال الخصيُّ بدلال الظافر الجم التوفيق : جرى الأمر كما تشتهي مولاتي . عبد الرحمن واخواه يستهينون بالاذى . فهم في حمى مأمون !

وقص عليها مأتاه بانسجام وتنميق . فصاحت : أحسنت ، أحسنت !... بماذا استطيع ان أكافئك ايها المغامر الأمين ؟

فأجاب بابتسامته الرويّة : حسبي من سيدتي رضاهـــا عني . أنا شريكها في وفاء الفضل . فالأمير الأموي انقذنا معاً من المكروه !

وقلقت زينب في مثواها وقد هاجت فيها الصبوة إلى رؤية ابن عمها . قالت: هل لك أن تدلني على مقر عبد الرحمن، يا ميسور ؟

فقال وهو يعرفها : لست بمن يدفعك إلى اشداق النار يا سيدتي !

– لا تخشَ عليَّ . أنا راضية بان ألقى من الضنك ما يلقى ابن عمي !

وقالت ميمونة متحمسة : أجل ، سر بنا إلى عبد الرحمن ، يا ميسور !

فالاثنتان رغبتا في رؤية الأمير الأموي . واستيقظت الغيرة في القلبين

Twitter: @ketab_n

والفتى يحبو بأمان ، إلا انهما ذللتا من جماحهما والموقف يقدر التضحية. وعانقت زينب مزاحمتها وهي تقول : ميمونة ، انت انقذتيه ، وإني لابارك لك فيه !

فهتفت ميمونة بمسرة بريئة من الحقد : بل هو لك ،يا زينب، ولا محيد !

وتعانقتا طويلاً والتضحية عرفت طريقها الى الروحين . وحملهما هودج إلى الكوخ الضائع على ضفاف الفرات يقودهما ميسور

وكانت فلول مروان الجعديّ تتراجع الى دمشق والاردن وعبد الله بن علي يضرب السيف في قفاها وينجده عليها صالح اخوه . وكيفما مالت الاذن هدرت فيها الصيحات الزاعقة : الموت للأمويين !

وعلى صدى هذه الزعقات طوت ميمونة وزينب المراحل الى عبد الرحمن وبدت لهما جثث القتلى تعض الرمل المخضب بالنجيع . وحامت العقبان والغربان على الاشلاء المنشورة تمزقها بمناسرهـــا فتزيد المشهد الفاجع قتمة وهولاً . وأناخ ميسور الناقة بباب الكوخ . هذه هي المحجة . وما لاحت لعبدالرحمن الفتاتان معاً ، يضمهما هودج واحد ، حتى انسابت فيه خلجـة الشك . فالضدان يجتمعان انها لرؤيا بعيدة التصديق !

ولكنه يبصرهما ازاءه تدلفان اليه . ورسختا في عينيه وظـل لا يصدق

محال . انه لسراب خادع . وصاحتا بشوق : عبدالرحمن !

ودنت منـه ميمونة تقول : مصيرك اقلقنـا . شاءت زينب أن نقبل اليك لنتابع معاً مهمة الانقاذ !

فحُلّت عقدة لسانه وقد ضعضعه اليقين وغمغم: أتعرّضان روحيكما للخطر في سبيلي ؟... انكما لتروّعانني مع كل ما تنفحانني به من عزاء بليل !

وصافحهما بقوة وكاد يضمهما إلى صدره . فلم يكن يرقب هـــذه المؤاساة في المصيبة العاوية . قالت زينب : الفضل فضل ميمونة،يا عبدالرحمن . لولاها لحصدك الهاشميون !

Twitter: @ketab_n

فقال ببشاشة حافلة بعرفان الجميل : ما غاب عني سمو الصنيع !

فاعلنت ميمونة بسماحة ذكور : عبد الرحمن، كل ما نقدم عليه لا يفي يدك علينا . فلقد منعت عن أبي الهلاك كما منعتـه عني . فاذا قابلناك ببعض جميلك فلا نبرح مثقلين ازاءك بالدين الوزين !

وزادتها صراحتهـا نضارة ووسامة . ومضت في القول برصانة وعذوبة فيّاحتين : الآن ، والحالة تنذر بتفاقم الضرم ، والخطر يواثبك هادراً ، رهيف الناب ، أريد أن تصغي إلي في رأيي . الهاشميون طامعون في القضـاء عليك . وكل محـاولة في دفع الشر عنك لا تجدي ، الا اذا قدرت على الهرب ونجوت ، او تزوجت الساعة ابنة عمك زينب ، فيشفع ابوها فيك لدى الهاشميين وكلمته فيهم مسموعة نافذة ، فتملك الحرية وترتع في الأمان !

فنظر اليهما معاً بحيرة نافض . وقالت زينب تعترض : لمـاذا أنا ولا انت يا ميمونة وابوك من دعائم الهاشميين ؟

فاوضحت بجلاء سديد : اقتران ابن عمك بي يعرضنا معاً للهلاك ، فهل يخفى عليك عناد أبي ؟

وأمسكت بيد عبدالرحمن وهي تعلن بقوة : ايها السيد ، لستُ لك . فلا تطمع في نظرة مني . أبي لا يرضى بان يعقد لك علي وأنا على دين أبي . ابنة عمك وحدها تنقذك من المحنة . عيشا بسلام مديد !

فاكبر تضحيتها . غير ان زينب مانعت شديداً في فصل قلبين متحابين بعضهما عن بعض . وخاف يحيى ، شقيق عبد الرحمن البكر ، مفاجأة الهاشميين والوقت ينقضي في بث اشواق ومجاملة فقال : تدبير النجاة قبل اعداد الزواج ، عمرك الله . نحن في مخبأ عرضة للعيون الفضّاحة . فاذا ظلّ الهاشميون اليوم في غفلة عنا فلن يضلوا غداً عن المكن الخفي . أليس الى النجاة سبيل ؟

واذا ضجـة تعلو الكوخ . فتلفت القوم بعضهم الى بعض بهلع . وسألت ميمونة مرتاعة : من الركب ؟

Twitter: @ketab_n

فاطل ميسور من كوة في الجدار واضطرب كمن أصيب في كبده . وأدار وجهه الى ميمونة وقد انتشرت فيه صفرة الموت وقال متعتعاً كأن في لسانه شللاً : أبوك، يا سيدتي ، ابوك !

فوجم كل من حواهم الكوخ وفشا فيهم الذعر . وصاح يحيى بن معاوية مستوضحاً بخشية صارخة : عبد الله بن علي ؟

— هو ، هو !

فلسوا بايديهم الموت . وظلت ميمونة على فضلة من ادراك فقالت : عليكم بالفرار ، طيروا الى حيث تسلم أرواحكم . أبي لن يبقي على أحد منكم . هذا نهر الفرات فاجتازوه الى شط السلامة . ساشغل أبي عنكم ريثما يتم لكم الخلاص المأمون !

وانطلقت الى لقاء أبيها تميل به عن ارتياد الكوخ . وهفا عبد الرحمن يصحبه أخوه الصغير الى ضفة النهر وهما يحسنان السباحة . فارتميا معاً في مياه الفرات يعبران الضفة الى الضفة صائحين ببحيى اخيهما البكر: إلحق بنا، يا يحيى!

ولم تكن ليحيى على السباحة طاقة . فظل بباب الكوخ يرقب الموت وهو موقن ان لا نجاة له من الوهلة . ورأى ان يتعادل وميمونة في مداورة عبد الله ابن علي حتى يتفق لعبد الرحمن واخيه الأصغر ان يجاوزا مرمى النبال ويأمنا ويل المطاردة

واعتزم يحيى ألا يموت جباناً . عاش على سخاء في النبل وسيموت على فيض في الاقدام . فما دامت صرعة الموت تغالبه فلماذا يلقاها بمذلة ؟... ورقب ما سوف يكون من ميمونة . فقد يلين لشفاعتها قلب أبيها المنحوت من صخر . وعبد الله بن علي وقد جاءه ان عبد الرحمن وأخويه لجأوا الى الكوخ المتواري في سيقان القصب نفر بنفسه الى دمغ الهامات تواكبه ثلّة من رجاله . واطمأنت فيه أحقاده . سيروي سيفه بدم عبد الرحمن الوبيء . ولكن من يرى ؟... انه ليغالط عينيه . أإبنته هذه الواثبة اليه ؟... أهي ميمونة ؟... يا للشؤم

Twitter: @ketab_n

الناخع !... أي اعصار قذف بها الى ضفاف الفرات ؟

وعاند في تصديق ما تجلو الرمال . ولكنها ميمونة بكل قسمة فيها . وهذا صوتها . انها لتناديه : أبي ، أبي !

فانقلبت سحنته وقد أيقن انه يبصر ميمونة ، ابنته . وازداد شراسة على شراسة . فاضحى في متناهي العطش الى الدم . وشهر رمحه يريد ان يخرق برأس السنان القلب الفتيّ المستهام . لا كانت ميمونة. وراعه ما تتقد به نفسها من هيام بعبد الرحمن وقد هفت اليه تبحث عنه في مضطرب الدم ومستجاش الصراع . وعرّضت صدرها للفتكة وأبوها يشهر عليها رمحه وصاحت بجرأة تسلسلت اليها منه ومن بني هاشم أجدادها : اقتلني ، اقتلني ، يكفي ما ازهقت من أرواح . لا بأس ان يعيّرك الناس قتل ابنتك وانت لا تعرف في تهالكك على امتصاص الدم الارتواء !

فتصاعدت انفاسه مما وزمجر : من قادكِ الى هذا القفر، يا خالعة العذار ؟

فأجابت بضاء أنوف : اما خالعة العذار،فلا،وحق من جاد عليك بالقدرة . ميمونة لا تبرح ابنة عبد الله بن علي . وأما من قادني الى هذا المهمه فما جـاء بي اليه سوى خوفي من امعانك في استئصال الارواح . هلاّ اشفقت واكتفيت ؟

فظهر له مرماها . هي تشفع في عبد الرحمن . وتناسى انها ابنته فصـــاح برجاله : اقتلوها !

فهتفت تغريه بدمها : بل اقتلني بيدك ، برمحك ، ان تكن عبد الله بن علي!

فأحرجته . وهي تبغي من احراجه الوقوف به عن عبد الرحمن ريثما يتسنى للاموي عبور النهر . وانتشت بحب التضحية فيما تدفع أباهـــا الى خطف روحها وتبديد انفاسها . ليعش عبد الرحمن ولتذهب غير مأسوف عليهـا . ولم تسعف عبد الله بن علي يمينه في الطعنة . ولم يطعه رجاله في الفتك بابنته . فأدار وجهه عنها وهو يصيح بمن حوله : أبعدوها عن طريقي !

وأحس في نفسه بالموت . وبات لا يطيق رؤية هذه الفتاة الناشزة ولا يبيح

Twitter: @ketab_n

لرحمه اختارامها . ومال عليها رجاله يبعدونها عنه . فأبت ان تتزحزح ومناهـا ان تطيل وقفة أبيها لتتسع أمام عبد الرحمن فسحة الهرب. قالت بحدة : دعوني هنا ، ازاءه ، اني لأشتهي ان تصرعني يمناه !

فلم يقوَ على امتلاك غضبه حيال استفزازها الجيَّاش وصرخ بهـا والسخط يضيع فيه الرشد : خذيها، يا قبيحة العرض !

واهتز في قبضته رمحه وقد سدد الى ابنته طعنة نجلاء خطمت صدرها ورمت بهـا في الارض ملتوية الصواب . وعمي عبد الله بن علي فدفع جواده يضرب جثمانها بحوافره ويثب الى الكوخ وقد تعامى الفـارس عن دمه المسفوك بيده . وبباب الكوخ وقف يحيى بن معاوية مستهينـاً بالموت . فهو على أهبة للمنايا يشرب منها سلافتهـا قبل ان يسقيها دمه . والتفت عبد الله بن علي الى رجاله والنقمة معقودة في جبينه ، والحقد يتضرَّم في عينيه ، وصاح بهم بصوت أجش: دونكوه !

فانقض اربعة منهم على يحيى، وطوّقت جماعةٌ الكوخ لئلا يفرّ منه المختبئون فيه . وإذا النبيل الأموي يقدّ بضربة سيفه هامتين ويشقّ طريقـه الى والد ميمونة وهو يرعد : والله ، لاسقينّ الارض دمكَ ، أيها الزنديق !

وأهوى عليه بالطعنة . فضحك عبد الله ضحكة المقتدر وقد أخطأه يحيى . فكال له الاموي الفائر ضربة سديدة اتقاها عبد الله بترسه وحطم نصلة السيف في يمين يحيى المستميت في الفتك بعبدالله العدو الالد . وتخاطفت سيوف الهاشميين المجاهد الاموي فانبطح مثخناً بالجراح والقائد الهاشمي يمضي في ضحكة الشماتة والجبروت . وتوالت الضربات على يحيى ففلقت هامته وهشَّمتها لا تبقي منهـا على سوى نثير من لحم وعظم يغيب في غلاف من الدم

وألقى عبد الله بن علي نظرة ازدراء وانتفاخ على الجثمان المهشم وقال وكلماته تنغمس في الاحتقار الشامت : نال اللئيم جزاءه !

والتفت الى الكوخ يقول على حثيث شوق الى البطش : وأين الآخران ؟

Twitter: @ketab_n

واقتحم الكوخ وسيفه الغائص في النجيع لم تنقع له غلّة . بيد ان الكوخ لم يشفِ ظمأه . فالجدران العارية جبهته بالخيبة . وطحنت أسنانه بعضها بعضاً لفرط اللوعة . هل نجا عبد الرحمن ؟... وإذا أحد رجـــال القائد الهاشمي يصيح : ها هما في النهر يلتمسان الفرار، يا مولاي !

فطفر عبدالله بن علي بجواده الى الضفـــاف يعلن في رجاله : اذيعوا فيهما الوعد بالنجاة إن هما استسلما الينا . اهتفا بهما ان في الاستسلام الطمأنينة !

فأعاد رجاله النغمة الخادعة : من يستسلم منكما سلم . مولانا عبدالله بن علي يعاهدكما على الأمان . فارجعا !

وتعددت صيحات العفو. فلم يثق بهـــا عبد الرحمن وظل جاداً في السباحة يطلب الشطّ الآخر . وتعب أخوه الصغير وآمن بمـــا يسمع من خالب الوعد فانكفأ إلى حيث يتعالى النداء الغرّار . فتألم عبدالرحمن وهو يرى أخـــاه يقع في الاحبولة وناشده أن يتابع طريقـــه : سيقتلونك ، وتربة أبيك . فالوعد يبطن الغدر !

فلم يسمع أخوه الواهي العزمـــة وارتمى في قبضة مماكريه فطرب عبدالله ابن علي وهو يراه ، وشزره بنظرة صاعقة قفّ لهاشعر الأموي على ابتلاله بالماء . وصاح الهـــاشمي برجاله وهم يدفعونه اليه : أتحملون إليّ سليل الأفاعي كأنكم لا تدرون ما يجب فيه ؟

ففرعته السيوف في ومضة لا تجيز له فتح شفتيه في استرحام . فقال عبدالله واشلاء الغلام الأموي تتطاير على شفار المواضي : يجب أن نفنيهم حتى لا يبقى منهم من تشرق عليه الشمس . يفجعني أن ينجو الآخر منا !

وهو لا يجهل من الآخر . وكان يبغيه بمستفحل النقمـــة . فليس يحقد على أموي مثله على عبدالرحمن وقد لعب بفؤاد ميمونـــة . وسأل عبدالله بن علي عن ابنته وهو يتلظى حرقة لنجاة عبد الرحمن من قضاء النصلة الباترة . فماذا حلّ بابنته ؟... ولما قيل له انها لا تزال على رمق من حيـــاة ، وان ميسوراً عميد

Twitter: @ketab_n

الخصيان في داره ازجاها الى الكوخ يعتني بها ، صرف باسنانه وزعق متوعداً : أيكون ميسور هنا ؟

إذن هناك مكيدة مدبرة في ليل . وأجابه مخبره بسرّ الكوخ : هو هنا وزينب بنت سليمان بن هشام ، يا مولاي !

فرفع عبدالله كوفيته عن رأسه حَنَقاً معربداً . ضعضعه سلطان الحب على النهى . أتجرّ ابنته وزينب بنت سليمان كل ما تحملان من اسم ضخم وجهارة نيّرة إلى كوخ تائه على ضفاف الفرات لرؤية شاب تقيمان منه على جوى ؟... وكاد يكفر ابن علي بخالقه وقد حار في تفسير قوة الحب الغشوم . وزمجر وكل ما يتراءى له يهزه في صميم الروح : احملوا إليّ ميسوراً وزينب !

وميسور وزينب فوجئا بنبأ مصرع ميمونة فيما يمهدان على الضفاف فرار عبد الرحمن وأخيه . ولما اطمأنا إلى مصير النبيلين الأمويين ارتدّا الى الفتاة المطعونة برمح أبيها جازعين باكيين . وحملاها إلى الكوخ يغمرانها بالعطف والأسى . وتناست ميمونة جراحها وقد ظهرا لها لتستوضحهما ، على كل خور ولعثمة فيهما ، أمر من تهوى . قالت زينب : لا تقلقي عليه ، أضحى بنجوة من الهلكة !

فشاعت في وجهها المسرّة ، وارتفعت عيناها الى السماء وهي تجمجم بحشرجة تنبىء بالاضمحلال : بوسعي الآن أن أموت براحة . زينب ، اوصيك خيراً بعبد الرحمن !

واعياها الجهد فسكتت واغمضت عينيها . وهفا إلى ميسور وزينب من يدعوهما الى عبدالله بن علي . فتولى الذعر ميسوراً وأحس بالارض تميد به . حان أجله . غير انه تماسك وبدا في حضرة سيده ثبت الجنان كمن لا يخشى لومة . فرشقه عبدالله بناظرين يمور فيهما السخط ، ولسعه بصرخة يرتعد لها قلب المغوار : يا عبد السوء ، أتغرّر بنا وتقود ابنتي الى مواضع الخسة ؟... افصلوا رأسه عن جسده . انه لوغد زنيم !

Twitter: @ketab_n

فقال ميسور دون ان يجبن : سيدي ، دمي لك حلال . غير ان ابنتك أقبلت الى هذه الضفاف لدفع الغاشية عمن انقذك وانقذها . انت مدين بالحياة لعبد الرحمن بن معاوية الاموي . فلو شاء ان يقبض عليك وهو يفجأك في مصب الخابور لخلت الأرض من عبد الله بن علي . ولكنه آثر ان تنجو بنفسك وان أنجو وابنتك وعتبة من كارثة الفناء على أن نقع تحت رحمة مروان . وعتبة الزنجية شاهدة على ما أقول . ابنتك رامت وفاء دين يرسو في عنقك وعنقها !

فردّد زعقته وقدّ تعاظم فيه مرير الحقد : اقتلوه!

فاتقدت في ميسور الجرأة ونبر مستهيناً بالموت الفاغر الشدقين : ابلغتك قبل أن أموت ما أنت مدين به لعبد الرحمن بن معاوية ، وما حمل ابنتك على ارتياد هذه الضفاف ، ولا بأس أن تغتالني وقد فتحت عينيك على ما يرسو في عنقك من لزام الوفاء . دم الخصي ميسور ليس أغلى من دم ابنتك وقد صرعتها عدواناً وبغياً، يا غليظ الفؤاد !

فتدحرج رأسه عن منكبيه يشكو الجور الطاغي . وراع زينب بنت سليمان ما يحوك عبد الله بن علي من مبيد الفواجع فصارحته بالقول الحاطم لا ترهب فيه صولته الطحون : أيها الظلوم ، اضرب عنقي بحسامك . ليكن رأسي بين هذه الهامات المنثورة ارضاء لعنجهيتك . لا بأس أن تساويني بميمونة ابنتك . اللهمّ ، اقبضنا اليك وانقذنا من مرأى البغيّ المقيت !

فتفاقمت فيه نقمته حتى كادت تودي به . على انه تماسك حيال ابنة سليمان ابن هشام بن عبد الملك والهاشميون بحاجة الى سليمان . فاحتمل تنديد زينب به مكرهاً مع نفرته اللهبى من أبيها ومن كل أموي . غير انه قال بسخرية مرة يحاول بها الازراء بالفتاة الوثابة الطماح : ما قضيت على ابنتي ، يا زينب الا ليتسع لكِ المجال الى الاستمتاع بمن كواك بصدوده . فانت ترين انّا لك من الانصار !

فارتعش صوتها تألماً وقد قضقضت أضالعها الكلمات الجائحة وقالت بغيظ مزبد : عبد الله بن علي ، انك لرجل نبا عنه الاحساس وطاش فيه الحلم !

Twitter: @ketab_n

فأجاب بلهجته الساخرة نفسها : شكراً لحسن ظنك بنا، يا زينب . أتريدين أن نسير بك الى أبيك ؟

فأعلنت بعنف لاطم شاءت ان تغمد به في قلب عبد الله نصلة قاتلة : بل اؤثر أن أبقى هنا ، بجانب ابنتك المطعونة بيدك ، أيها الأب المستهين بجلال الابوّة وقاتل الابرياء !

فتضاءلت عيناه حتى كادتا تمحيان من صفحة وجهه . وسدد من فرجة اهدابها المتعاقدة نظرة تهدد ابنة سليمان بن هشام في أيامها . أضمر لها الويل . وبلع ريقه وادار وجهه عن الفتاة وهو يخاطب رجاله بصوت كميد أبحّ : لننصرف !

واندفع في الطليعة دون ان يحفل بابنته المندثرة في الرمل على نزع متلاف . لتمت ما دامت شوّهت فيه عذرة الكرامة . وحاول نفر من رجاله مخاطبته في أمرها فخانتهم الجرأة . وعاد الركب يتبطن الصحراء وقد أبقى بعده ثلاثة رؤوس تعبّ الرمل المجبول بالدم ، وفتاة تحشرج وقد أوشكت أن تطبق عليها يد الموت ، وأخرى تتحرّق وقد التهب في أعصابها القهر وهبّت في نفسها ثورة جموح تريد اطلاقها وليس ما يسعفها في اذكاء النار !

Twitter: @ketab_n

١٢

زينب بنت سليمان في شبه دوار . فما شهدت من نوازل ، ومـــا سمعت من قوارص ، ذهبا فيها برهافة الادراك . هي أشبه بالضائعة ، تكوى بنار الشمس ولا تملك العزم على الحركة وقد جمدت مكانها مقعدة مصعوقة . فأيُّ تجربة مشؤومة تعصف بها ؟

وإذا خلجة البكاء الاسيان تعروهـــا وقد انتابتها ازمة من سخيّ النواح . ووقعت عيناها على الاشلاء المطوقة بها فجاهدت في دفع خبلها عنهـــا تذكر ما تقلّبت فيه من رزايا . وتدفقت عفواً بالدعوات تصبها على عبد الله بن علي: ربي، اقتله بسلاحه . انتقم منه لليتيم والارملة والثكول . امنع عنه الهنـــاء كما منعته عن الرجيم اللعين !

وما نسيت ميمونة . فهزّ فيها التذكر وهنها ودفعها الى الكوخ تشاهد مـــا حل بالفتاة المحتضرة . ودنت منها تلامس جبينها الشائعة فيه نقعة الموت واللهفة في سحنتها والدمعة في ناظريها . وفتحت ميمونة عينيها وتبسمت وقد أبصرت زينب وجال في شفتيها السؤال عن ميسور . فلم تشأ زينب اطلاعها على الحقيقة المضة واكتفت بان تجيب : لحق بعبد الرحمن !

فسرّ ابنة عبد الله بن علي ان يلحق عميد الخصيان في دار ابيهـــا بمن جادت عليه بايامهـــا كي يسلم وقالت بصوت واهٍ تنسلّ منه الحياة : زينب ، وأنتِ الحقي بعبد الرحمن . فهو بحـــاجة اليك . إلحقي به وابلغيه اني قضيت فداه . أنت به جديرة وهو بك حقيق . اني اموت . عيشا بهناء !

وأذابت كلماتها انفاسها . فلطمت زينب خديها وأخذت في الصيـــاح :

Twitter: @ketab_n

واميمونتاه !

وروّعتها الوحشة . فودّت لو تلقى الموت فتتعادل بذات التضحية المنيفة . لماذا لم يبطش بها عبد الله بن علي كما بطش بابنته وهو يحصد الأرواح كأنه يطلق سنانه في الهشيم اليبيس ؟

وأبت ان تبيح للوحش وللطير جثمان ميمونة . فحبت الى الرمال تحفر فيها بنصلة السيف المحطم بيد ابن عمها يحيى قبر المستشهدة على وفاء ونبل . وأنكرت ان تكون ميمونة من صلب عبد الله بن علي . فان ذاك البـاغي لا ينجب هذا السماح . وأعياها نبش الرمل فوهت يمينها وتولاها الغشيان . واستفاقت من اغمائها على وقع حوافر . فانتفضت بارتياع وساءلت نفسها : هل عاد عبد الله ؟

وخشيت شر الركب المقبل . وانتظرت الموت . لا عليه اذا اختطفها . ولكن لا . هذا ليس وجه عبد الله بن علي المقبل في النظيرة . هذا وجه حبيب اليها اذا صدقت عيناها . وجه ابيها سليمان بن هشام . أيكون الرجل أباها؟... ومن قاده اليها في الموقف الوعر ؟

وما أخطأت باصرتاها . هذا ابوها سليمان . فتمتمت : ربي ، جل جلالك ، ما أرحمك في تفريج الكروب !

وزاد الفرح في عيائها كما هدّ الترح عزيمتها . ووقف حولها الركب خاشعاً مشدوهاً . وترجل ابوها يضمها الى صدره وهو يصيح ببهجة تمازجها اللوعة : زينب ، زينب ابنتي !

فالتفتت اليه بعينين ذابلتين وملكت الهمة على الغمغمة بفيض من الاستبشار : جئت في الأوان !

قال متلهفاً : أفلتّي الصحراء في البحث عنكِ . ولولا عبدالله بن علي لضللت عن مثواكِ . فما قذف بكِ الى هذه المعامي ؟

Twitter: @ketab_n

فاسندت رأسها إلى صدره وجاهدت في القول : طفرت اليها لانقاذ عبدالرحمن ابن اخيك !

فاتسعت عيناه حيرة واستفهم : لانقاذ عبدالرحمن ؟

— لهذا توغلت في متنائي الفيافي. ولقد نجا ابن عمي. ولكن عبدالله بن علي فاجأنا وقتل ابنته ميمونة ، واخوي عبد الرحمن ، وعميد خصيانه ميسوراً . وأنا احفر ههنا قبر شهيدة الحفاظ . فاني للجانية عليها ولولاي لما ارتادت هذه الانحاء !

فسادت الرهبة الجميع . أيقتل عبدالله بن علي ابنته ؟... يا للغلاظة المفرطة في الغلواء !... قالت زينب : وجثة الفتاة في الكوخ . غير اني أبيت على الطير والوحش نهشاً فاندفعت احفر لها قبرها بيدي لئلا تشنّع في طلالتها المناسر والانياب !

واشارت الى الكوخ الملتفّ بالقصب . فجزع سليمان بن هشام وهو يقف على جليّ النبأ . وهاله أن يملك الوالد الجرأة على قتل ولده . وجالت في خاطره اقوال عبدالله بن علي وهو يرشده إلى زينب . قال عبدالله : سليمان ، ابنتك على الضفاف شاردة باكية . وقد تكون تشكو وجعاً في قلبها . عبثاً تعبت في ان اردّها اليك ، فكأنها تشتهي الفرار . ادركها قبل ان تغيب في الداهية الدهماء !

ورنّت غنّة اللؤم في مسمع سليمان . عبد الله يعيّره شرود زينب . على انه وهو يبحث عن الفتاة ، ولا يطيق فيها نوى ، استوضح : في اي مكان من الضفاف ،يا عبدالله ؟

فأجاب متمادياً في الذبح : بجانب كوخ قد يكون لها فيه رفاق !

فعصر قلب سليمان باستذئاب كلماته وأساريره . فكأنه يتهم زينب بالغيّ والضلّة . وامتدت يمينه باشارة تائهة الى الكوخ وهو يبتسم ابتسامة هازئة امعاناً في ايلام سليمان ، فتنكب القطب الأموي عن المضي في الاستيضاح ودفع رجاله

Twitter: @ketab_n

الى حيث دلّه عبدالله بن علي وهو يتلظى خشية وحنقاً. خشية على ابنته وحنقاً على عبدالله الملحّ في التهشيم والاذلال . وتنفس وقد اهتدى إلى زينب . غير ان ما حدثته به أرهف ضغينته على القـــائد الهاشمي الفاتك بابنته . وشخص إلى الكوخ منحني الهامة . ووقف ازاء الجثمان المبسوط في الأرض يحيّي فيه الاخلاص والإباء معلناً بفارع الاسى والغيظ : هذه الشعلة الخيّرة ليست من تلك الظلمة النكداء !

ودعا رجاله إلى متابعة ما تولت ابنته من حفر . وحمل بيديه جثة شهيدة التضحية الى مرقدها الأخير يذكر فيهـا الله . وهال عليهـــا التراب وهو يتلو آيات ربه : اياك نعبد واياك نستعـــين . اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين انعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالّين!

وتوسدت ميمونة بطن الرمال وأبوها عبدالله بن علي لا يريد أن يعرف من امرها انها كانت تعيش . فقد ماتت لديه منذ ابصرهـــا على الضفاف . الا انه صمم على الانتقام من جميع الامويين وقد فجعه بها أموي تهواه . فلن يبرّ منهم حتى بالاموات الثاوين في رحمة الارماس

ومضى في مطاردة جيوش مروان الى أبواب دمشق يستعدي عليها أخـاه صالحاً . وفاجأ العاصمة الأموية واجلى عنها الجعدي وكل من يقيم من الجعدي على بعض صلة . واندلعت فيه حفائظه المهتاجة وهو يجول في دمشق ويذكر ماضيها القريب . هنا جال معاوية ، واستأسد يزيد ، وتنمّر عبدالملك وهشام ، وماع يزيد بن الوليد . ولاحت له قبورهم فدعا الى نبسها صارخاً بزبانيته : روّعوهم حتى في مطمئن ضرائحهم ، فكم روّعونا في هانىء أكنافنا !

وظفر بهيكل هشام فرفعه على صليب في صدر دمشق وهو يرعد : زيد ، زيد بن علي ، انتقمت لك من ذلك المفاخر باستئصال هامتك والطالع بهـا على الناس يقضّ مضاجعهم بصلف المستنسر العاتي . عاهدتك على أن أثأر لك من الجلف ، يا ابن زين العابدين وها اني أبرّ بوعدي . لترقد عظامك آمنة في مثواها . هذا هو اليوم الانور وقد استعدنا به المجد من مغتصبيه . فالدولة العربية هاشمية

Twitter: @ketab_n

العرق . السلام على الهاشميين !

وأغار على قبر معاوية ويزيد وأحرق فيه العظام البالية ونثر رمادهـــا في مهب السوافي . ولم يكن لديه لضريح حرمة ولا شفاعة . ففضّ اختامها جميعاً ومحاها كأن القوم ما كانوا ، بل كأن بوسعه محو التاريخ . وما اكتفى. فلا يزال عبد الرحمن بمأمن من الويل !

وعبد الرحمن حرمه لذيذ النوم . فهدر بهياج ملتاع : أيكرهني المجرم على الفتك بابنتي وينجو مني ؟... هذا منتهى النكراء !

وتعب في الاهتداء الى حيلة ينتقم بها ممن كواه في قلبه . فما يخطو خطوة في الدنيا الاموية حتى يستقصي أخبار الفتى دون ان يظفر بهدية .ومال على فلسطين وفي نفسه من عبد الرحمن كل سخيمة . فلن يرضى بان يقتل ابنته دون من دفعها الى الهلاك

واستقر من فلسطين في الرملة ، على نهر أبي بطرس. وسأل عن بقايا الامويين فقيل له انهم لا يزالون كثرة وفي جوانحهم حنين الى المسالمة والتكفير . فهتف ينضو عنه أوتاره الغُلُف ويكشف فيه عن نزعة من سماح : لهم عفوي. ليقبلوا. ما أنا بالجلف الارعن . فمن مدّ إليّ يد الاسترحام نعم مني بوارف الصفح والحلم!
وعاد الى ندائه : من استسلم فهو آمن ، ومن ابى فله النار !

فاطلّ منهم ثلاثـــة وثمانون أموياً هم بُقيا سلالة السؤدد في قريش مثلهم في صدر الاسلام . هؤلاء أبناء أعمـــام عبد الله بن علي الناظر اليهم ببسمة تصارع الريبة وتجاهد في التماسك لستر النيات . فصافحهم واحداً واحـــداً يبدي لهم سخيّ المودة ويرحب بكرام الانسباء . هوس السياسة لا يقوى ، مهما اشتدت رعونته ، على حجب آصرة القربى ووحدة الدم . وأقلقه ألا يجـــد فيهم عبد الرحمن . قال بوازن البشاشة : مرحباً بأبناء عمي . ما كنت أريدها فينـــا ناراً آكلة ، إلا ان الشهوات دفعت جهّالنا ، سامحهم الله ، الى تحطيم راســـخ اللحمة بيننا . وانكم لابرياء من الفعلة وقد لبستم ما خيط لكم . فارتعوا في أمني

Twitter: @ketab_n

وعفوي . فانتم في أنيس الحمى . يشهد الله ان مكانكم مني لفي الحفيّ من صميم الضلوع . ولكني لا اهتدي فيكم الى عبد الرحمن بن معاوية ، فأين عبد الرحمن وأنا منه بمنزلة الاب الرؤوف من الابن الحبيب !

فلم يظهر الفتى . فتململ عبد الله وقال في نفسه : أأظفر بالجميع دونه وإياه أريد ؟

وشبح عبد الرحمن لا يفتأ يحرق كبد والد ميمونة ومضجعه . وآمله ان يخدمه التوفيق في مطالبه جمعاء وان يبخل عليه بالمطلب الاثير . وانطوى على مضض خدش فيه نفخة الظفر الابلج . وأمر بان تنصب الموائد على ضفاف النهر تكريماً للانسباء المهتدين . فأهلاً ومرحباً بابناء الأعمام الأصفياء المهج ، الأعزاء الجباه !... ودعاهم الى الطعام في حلقات منظمة . لا عليهم اذا لاذوا بحلمه الوسيع . وتصنع البشر فلاطفهم وسايرهم حتى اطمأنوا وأيقنوا ببسمة النعمة بعد كالح الجهمة . فإذا نأى عنهم السلطان فلن تطير الارواح . وأكلوا وهم لا يكادون يصدقون ان في الهاشميين قلباً يخفق حيالهم بخلجة من ندى . وفيما نفوسهم تخلع عنها القلق والوحشة ، وأيديهم تغوص على الاطعمة فتتلذذ بها الحلوق وتسيل هنيئاً في الغلاصم ، اذا جند عبد الله بن علي يضرب عليهم نطاقاً من الشفار المسنونة ، وإذا جماعات من هذا الجند تنقض عليهم مخترطة السيوف والأسنّة . فشدهوا وتفتحت افواههم على ارتياع ، وجمدت أيديهم في الصحاف أو ممسكة على اللقمة ، وعاندت المبالع في الالتهام . أيعروهم الخطر حيث يتعللون بالسلام ؟.. ألا أين ذمام عبد الله بن علي في ما لوّح به لهم من ميثاق ؟... أتكون العهود أخاديع ؟... وملك بعضهم القدرة على الصياح الملهوف : امانك ، يا عبد الله !

فحزّت قهقهته في عظامهم وعلت صفرة الهول وجوههم وتعالت فيهم دمدمة الرعب . فتمادت في عبد الله قهقهته الحاطمة ، الذابحة ، كأنه يريد ان يقتلهم مرتين ، بشماتته وبحسامه . وأفاض بالقول الساخر ، الناحر : وماذا ترتجون يا بني أمي ممن طوى السنوات على السنوات يرقب ان يمتعه الله بيوم يبيدكم فيه على بكرة أبيكم ؟... ألا ودّعوا دنياكم وتوبوا الى ربكم واذكروا فاجعة كربلاء

Twitter: @ketab_n

فينا . فتاكم يزيد بن معاوية بطش منا بالحسين بن علي وبرهطه الأخيار حتى أتاف منا على المائة والخمسين. وهذه أخت كربلاء إن كنتم تذكرون. فالهاشميون ذو صبر طويل الامد، يا ابناء أعمامي، إلا انهم يتحينون للانتقام النهزة الموفورة. فلا يدهشكم منا الجبروت بعد اكراهكم ايانا على الاستكانة المهينـــة والاستخذاء الذليل !

فارتفعت صيحات الذعر ، وجحظت العيون ، وارتجفت النفوس والاجساد كأن البرداء تهزها جميعاً . وتصاعدت الصرخات من حناجر تغص بالاستجـارة واللقمة : أخدعة، يا عبد الله؟... أين برّك بيمينك ؟

فصاح يجنده مزمجراً : اقتلوهم . اقتلوهم كالنعاج ، بل كالذئاب ، حرام ان نعدل النعاج البريئة بهم وقد عاثوا فينا ذئاباً ناهشة . اقتلوا ولا ترفقوا. ولتطب نفوس الهاشميين المستشهدين بايدي هؤلاء الكفّار في سبيل الله . لتقر عين علي ابن أبي طالب ، وعيون الحسن والحسين وزيد ويحيى وابرهيم الامام. ضحـــايا العدوان والطغيـان الامويين . يجب ان ننتقم من الجميع للجميع . اقتلوهم . لا تبقوا فيهم على رمق . هؤلاء هم أعداء الله الانكاس !

بيد انه مع رضاه عن الدم المسفوك ، وعن اختناق صيحات الرعب والهول في الصدور المطعونة بالسيوف والرماح ، لم يكن هادىء النفس وعبد الرحمن ابن معاوية في نجوة منه. آه لو يدري أين الفتى !... وتململ . فالأمويون باجمعهم تساقطوا تحت شفرة السيف الهاشمي مـــا عدا مروان وسليمان وعبد الرحمن . وسليمان هالك، ومروان في طريق الهلكة ، ولكن من يضمن اهلاك عبدالرحمن؟

وشاء عبد الله ان يخلع عنه قلقه وأن يتلذذ بصره وسمعه بالمجزرة المتعالي فيها فحيح القتلة والقتلى وقد اختلطت الاستغاثة بالسبة واللعنة : عفوك، يا عبدالله!... لك الويل ، يا من حنث في اليمين ونكث الميثاق !... لا عرفت ايها الغادر يوماً يشرق على نضرة !... قتلك الله بخدعة اوديتنا بها، يا حليف النار !

وتفع هذه الصيحـــات في اذنيه فيطرب ويرعد : اقتلوهم ولتغرق جثثهم

Twitter: @ketab_n

في الدم . كان لهم زمن سادوا فيه وهذا زمننا . انها لنهاية الضالين !

ورضيت نفسه والرؤوس تتناثر ازاءه ، والامعاء تندلع ، والصدور تتفتق عن دفقات سخية من فائر الدم . فبدا في نشوة ميلاء ترنح بهـــا عطفاه كأنه المخمور . هذه اسعد ساعة في العمر وكم تلفتت صبوته إلى وقفة ناجعة تمحو الذلة من النواصي والألم من الارواح .

وما بالى صيحـــات الشتم ولا نظرات الحقد المسددة اليه . اقسم على ابادة الامويين وها هو يبيدهم بلذة المنتقم المشبوب الرجاء ، القرير الضغن . ربما اوجعه سحق نملة اكثر من هذا المضطرب من الاشلاء المخضب المياه المنسكب فيها بالحمرة القانية كأن نهر أبي بطرس مسيل حشاشات واكباد .

وظل عبدالله على صيحته : اقتلوهم واشفوا منهم حزازات قلبي . منذ الساعة بدأت اعيش . اقتلوهم . أنا اسعد الناس !

ولما سقط آخر أموي في مستنقع النجيع انقطع في عبدالله الوتر المرنّ وهو يود لو تدوم المجزرة اياماً وأسابيع ، بل شهوراً وسنين ليزداد تحسساً بهـا . فلا ينسل لها خيط ولا يقف بها حد . على انه لم يعدم السبيل الى اطالة النشوة فهتف برجاله : مدّوا لي على هذه الجثث بساطاً اجلس عليه وازدرد طعـامي . ففي الاستواء على اشلاء الخصوم وهي تختلج بارماقها ما يزيد في شهوتي الى الطيبات !

ومُدّ البساط على الجثث ولم يكن الروح قد طار عن معظمهـا . وجيء للقائد الهاشمي بالطعام فجلس يلتهم الزاد النهام الجشع كأنه طوى ليلة في جوع عربيد . واتسعت غبطته حتى بات منها في غمرة . فما عرف صنواً لهـذا الحبور الاريض . ويتراقص به البساط ، على ركام الجثث المصطرعة وفضالات الانفاس المتطايرة ، فيختمر بمسول الانتفاضة كأنه يمضغ الأفاويه . ويثب أحيـاناً من مجثمـه ويرقص على الجوارح المهشمة مثله في عرس هَزِج وهو يردد ابداً : هذه أخت كربلاء . انتقم الهاشميون !

ولم تكن تعلو الكمدة اساريره الا وهو يذكر عبدالرحمن . أيخيب في هدم

Twitter: @ketab_n

من حرمة أسنى زهرة في اضمامة الانس ؟... كان بحاجة الى ميمونة ابنته لتصفو له دنياه فلا تدهمه شائبة ، ولكن ميمونة أخرجها من حلمها فتى موفق السعي فوهبت له حتى علالة الروح . وعبس عبدالله بن علي . فجيعته بريحانته تكاد تطغى على نشوته باخت كربلاء

وكتب إلى العباس يبلغه ما أصاب اعداء الله من العقاب المبيد . قال : حلقتهم حلق الموسى لا أبقي منهم على ذي حياة . ان تكن تعرف أُمويا يتنفس فاخطف حياته ودمه في عنقي . انتقمنا لشهدائنا الأبرار !

وأشار الى سليمان بن هشام دون أن يسمّيه يغري بدمه أبا العباس. فالانتقام السانح يجب أن يبلغ أقصى الأمد . ومشى عبدالله متبختراً في رجاله آمراً : والآن، لنلحق بمروان الحمار !

ومروان كان قد اجتاز فلسطين متراجعاً إلى مصر . ففيها المجال الرحيب لخلاصه واتقاء صدمات اعدائه . وطارده الهاشميون يريدون موته . فلا خلافة فيهم والخليفة ناعم بالحياة !

وفزع مروان في مصر الى بلدة بوصير على ضفاف النيل . فاطبقت عليه الرايات السود واجتثت رأسه بواتر بني هاشم يدفعها صالح بن علي الى الاحتزاز . وما انتفض نعي مروان في مسامع من في الشام والعراق حتى نودي بابي العباس خليفة في المسلمين . وكانت السنة المائة والثانية والثلاثين للهجرة . غير ان عبد الله بن علي ظل لا يكتفي . فاذا هلك مروان فهنالك سليمان وعبد الرحمن ، والاثنان يجب نسفها لخلوص الجو من كل لهاث أموي كريه . وسليمان يقيم في الكوفة ، بجانب أبي العباس صديقه ونجيّه ، والى الكوفة شخص عبد الله . فلا يبرح يذكر ان له عند سليمان وتراً مع كل ما انتقم به من القطب الأموي وقد حرمه الرجاوة واقلق فيه التيه والأمان .

وعبد الله يعرف في أبي العباس ، ابن أخيه ، شغفاً بالشعر وتأثراً ببليغ البيان . فما انقض على الكوفة حتى نادى اليه سُديفاً الشاعر يقول : سديف ،

Twitter: @ketab_n

هذا يومك . واني لمستعين بك فيه . ادخل على ابي العباس وانشده في الامويين ابياتاً من الشعر تستأصل فلولهم وحثالاتهم فلا يطلع الصبح على من يهنـــأ منهم بالبقاء . هلا تفعل وجائزتك عندي الف دينار ؟

وسُدَيْف من عبدة الدرهم . فسال لعابه للعطية وقال بوقدة الجشع : روحي فدى سيدي ، ما انا بمن يتردد في امتلاك رضاه !

فقال عبد الله ببسمة الاغتباط : سأكون غداً في حضرة العباس ابن أخي يا سديف ، فاستأذن عليه وانشده اخبث شعر في أشأم قوم !

وخدم الحظ عبد الله . فما أن مثل بين يدي أبي العباس ، يسلم عليه بالخلافة وينحني باجلال ، حتى ارتفعت الصيحات بباب الخليفة بالتكبير . فأطـــلّ أبو العباس يقول : ماذا ؟

فاعلن حاجبه : بريد مصر ، يا أمير المؤمنين !

ولكن بريد مصر لا يفرض هذا الهتاف الطروب . واذا ثلاثة من الفرسان الطوال القامة ، العراض المناكب ، الضخام الهام ، يقبلون على الخليفة ويقبّلون الأرض بين يديه ، وتنطلق شفاههم بالتحية باعتزاز من اجـــاد الصنيع وفاز بالجدوى : السلام على أمير المؤمنين !

فقرأ أبو العباس في وجوههم خطورة ما سوف يعلنون . وخطا أكبرهم شأناً الى الخليفة العباسي الاول وهو يقول بفخامة في النبرة تضارع مستطيل العجب : نحن رسل صالح بن علي الى أمير المؤمنين . وقائدنا المظفر يعالن الخليفة الجليل ، زاد الله في رفعته وبقائه ، ان قضي على الأمويين كبيرهم وصغيرهم . فـــلم يبق منهم في وادي النيل من تخفق فيه روح . وهذا رأس مروان ينبذه اليك . وها هو البرد والقضيب والمخصر ، شعار الخلافة ، بين يدي أمير المؤمنين . دفنهـــا مروان في الارض لئلا تنتهي الى الهاشميين فارشدنا اليها عبدٌ من عبدانه . ليهنأ مولاي بالخلافة وقد أقبلت اليه تجرر اذيالها وتحتمي منه بحصن حصين !

وتناول من رفيقيه رزمتين . فافتضّ الأولى واذا الغلاف ينجلي عن البرد

Twitter: @ketab_n

والقضيب والمخصر فتقلدها أبو العباس واذاع في جلسائه : الحمد لله رب العالمين وقد أعاد الينا حقنا كاملاً لا حيف فيه . اليوم تهنأ بقايا الأجداد في أضرحتها ، ويطمئن العدل في حرزه ، وترتاح ضمائر شهدائنا مما تتقلب فيه من ضنى وغلّ . فالخلافة استوت على ركنها الاركن . ليقرّ عيناً حفدة النبيّ !

فعلت أصوات التأييد حتى كاد المكان يميد . ورجّعت الكوفة صيحات الاستبشار تشاطر الخليفة العباسي الاول فرحته وتدعو له بالعزة واليمن . ومال الرسول على الرزمة الاخرى ينضو عنها غشاوتها واذا هي تنكشف عن رأس مروان . فنتأت العيون في المحاجر برعدة خاطفة ، ثم ببشر مستفيض . وجالت الابصار في الرأس المقطوع . هذا هو مروان الجعدي بلحيته وشاربيه وجبينه ، قاتل ابرهيم الامام أخي أبي العباس . وانفرجت الصدور عن صيحات الابتهاج . وسجد أبو العباس فأطال وقال : الحمد لله الذي لم يبق ثأري قبلك وقبل رهطك . الحمد لله الذي اظفرني بك وأظهرني عليك . ما أبالي متى طرقني الموت . قد قتلت بالحسين وبني ابيه من بني أمية اربعمائة . وأحرقت شلو هشام بابن عمي زيد بن علي . وقتلت مروان باخي ابرهيم

لو يشربون دمي لم يَروِ شاربهم ولا دماؤهم للغيظ ترويني !

وقبض عبد الله بن علي على الرأس من شعره ووثب به الى شرفة المكان يعرضه على الحشد الحفيل المكتظة به الساحة وهو يجهر بصلف وتيه : أيها الناس ، يأبى الله إلا ان يقتل الظالم بسلاحه . استضعفنا الأمويون فأعملوا فينا السيف حتى كادوا يطمسون منا جرثومة الوجود . ولكن الحق اغاثنا عليهم فطحناهم وذررنا رمادهم في الفلوات نهباً لمتناوح الريح . وهذا رأس مروان الجعدي يشهد على استئصالنا اياهم . فالخلافة هاشمية والسيف هاشمي فاستعبروا وعوا . أمير المؤمنين ، أبو العباس ، يقرئكم السلام !

وهز الرأس بيمينه فماج الحشد بصيحة : الله اكبر ، عاش ابو العباس الخليفة الميمون !

واستطال عبد الله بن علي في وقفته وقد اشتهاها منذ ما رأى في الرصافة

Twitter: @ketab_n

رأس زيد بن علي معروضاً في شرفة القصر وقد تدلى من قبضة هشام. وأُعيدت الصيحة واستعيدت وعبد الله في زئير وسعير . هـــذا هو المنشود يدركه بنو هاشم بعد طول استبسال !

وانكفأ الى الايوان يدعو أبا العبـــاس الى الظهور بشعار الخلافة في الجموع المنتشية بسناء الفوز . فبدا أبو العبـــاس بابهته وجلاله يحيي الحفل . فتلاطمت الرؤوس لفرط ترنحها بمرآه ونقشت هتافها العالي في حواني الفلك. قال ابو العباس يخطب فيها : هذه مشيئة الله . الظلم لا يدوم وهو الوشيك الانهيار . أيها القوم، سأسوسكم بالعدل ، واعاملكم بالحسنى ، وأدفع عنكم العدوان . فمن نزلت في قلوبهم مودتنا فأولئك هم المهتدون . ومن لجُّوا في الغواية والعنـــاد فليتعظوا بما كان منا في اعدائنا المهزومين . الحمد لله الذي أظفرنا بهم وأظهرنا عليهم !

وتجاوب الهتاف في مسمع سليمان بن هشام ، والد زينب ، فأقبل يستوضح . وشق الجموع الى الايوان فوقف له كل من في المجلس حتى عبد الله بن علي الحقود وأبو مسلم مضرم النار . وأدناه منه أبو العبـــاس فأجلسه عن يمينه . وأشار الى رأس مروان الجاثم في صدر المكان على طبق من فضة وقال بلهجة لا ينتفي منها اللين الطامع في المداراة : هذا رأس عدوك يا سليمان ، نبذه الينا صالح بن علي، عمي ، وقد اقتطعه فور القبض على مروان . وهذه هي بردة الخلافة ومخصرتهـــا وقضيبها تهادت الينا من مصر مع الرأس المبتور . مروان بات في ذمة الله، يا ابن عمي وقد تولّينا الأمر في البسطة العربية بالاعتماد على الغفور الرحيم !

فعلت الصفرة وجه سليمان . تحققت فيه كلمة فكلمة نبوءة ابن اخيـــه عبدالرحمن وابنته زينب. فالهاشميون وقد سادوا رذلوه . غير انه في مقام المكره فقال : زاد الله في ايام أمير المؤمنين ووطد دعائم الدولة الطالعة . بلغ بنو قومنا من المنى مـــا عقدوا عليه الأمل . وعليهم أن يتعظوا بمصير من هوى ويحيدوا المسير في رضا الله ورسوله وطاعة خليفة الرسول . وليس أحق من أبي العباس بامتلاك الأمر في العهد المشرق، كتبت له القدرة دوام التوفيق وسعة المجد !

وأصغى عبدالله بن علي بقطوب أسارير . فما اطمأن الى كلمات سليمان وقد

Twitter: @ketab_n

تراءت له تنبض بالمكر . فما يحول دون انتفاض سليمان على ابي العباس شأنه في مروان ؟... وهتف عبدالله في نفسه بلجاجة : اين سُدَيْف ؟

هذا أوان الشاعر الخبيث . وما ابطأ سديف . ها هو يطلّ كالثعلب ويقف بين يدي أبي العباس منشداً ، غامزاً على سليمان :

لا يغرّنك ما ترى من فعالٍ ... ان تحت الضلوع داءً دويّا
فارفع السوط واشهر السيف حتى ... لا ترى فوق ظهرهـا أمويا

فارتعش سليمان رعشة الموت وجمجم : قتلتني ، يا عدو الله !

واطرق ابو العبـاس لا يطيق كلاماً . هذا دسّ منكر . وردد من حوله البيتين فاحرجوه . قال وهو يغص بكلماته ، بل بحروف كلماته : أتغرونني بسليمان ويدي لا تساعدني على الفتك به ؟... والله ، انكم لكفرة . سليمان صديقي وله علينا الأيادي البيض . فاذكروا نضاله في سبيل الهاشميين !

فوجموا . وتنقلت فيهم عينا أبي العباس تستفتيان ، بل ترجوان السماح . وأسر في اذن سليمان ان انصرف . فلملم السيد الأموي نفسه وتوارى كالطيف . واستطاع أبو العباس الكلام برحابة . فقال يردع المطامع عن غلوائها : أنسفك دمه وهو ذو فضل علينا ؟... اذكروا ، ففي الذكرى نفعٌ للمؤمنين !

فتكلم الجميع ما عدا اثنين ، عبد الله بن علي وابا مسلم . فقد انتظرا ما سوف يعلن رفاق الجهاد . ورفاق الجهاد اعلنوا : ليمت سليمان . بقاؤه يؤذي . أيأمن منه أمير المؤمنين على نفسه والحنين الى الخلافـة يدب فيه الى مستوقد الشهوات ؟... السيف ، السيف ، صدق الشاعر . لا تبق فوق ظهرها أمويا !

فعاد أبو العبـاس إلى اطراقه . واذا به في خشية من سليمان القرم العنيد . فساوره منه ما ساور عبدالله بن علي . قد ينقلب عليه يومـاً ويثأر لبني قومه كما انقلب على مروان ، ولا سيما بعد خذلانه في الخلافة مطلبه الأفضل . وجلجل أبو العباس وقد اعتكرت عيناه : ردّوه اليّ !

Twitter: @ketab_n

غير ان سليمان كان قد وثب إلى انصاره يجمعهم وهم بجانب الكوفة على أهبة . فدفع اليه أبو العباس قوة من الجند فظفر بها سليمان. فاردفها أبو العباس بقوة أمضى فكان نصيبها من الغنيمة الأياب . فغاظ أبا العباس أن يتوالى الخذلان في رجاله ورمى سليمان بجيش حفيل . فوهنت عزيمة الأموي حيال الكثرة وتفرق عنه جنده فوقع وابنه ايوب في القبضة الهاشمية . ومانع ابو العباس في رؤيتهما مخافة ان يجود عليهما بعفوه وهما يمثلان بين يديه . ونضنض مقوله عجلان ، هتوفاً : اصلبوهما على باب الامارة في الكوفة ، عجلوا قبل أن يثوب إليّ حلمي فاهب لهما الحياة !

ولقد عجلوا في صلبهما وكأن غشاوة انزاحت عن باصرتي أبي العباس فتنفس بارتياح . ومر عبدالله بن علي بالصليبين ضاحكاً بشماتة تقلقل الدعائم الايّدة. وقال بلذة من دانت له الدنيا : والآن، يا سليمان، من الظافر منا، أنحن أم انتم؟... هذة نهاية كتبتها لك بيميني، يا ابن عمي . فتجبر بعد اليوم وهدد ما تشاء . فقد وهبتك تراباً للتراب !

ولكن ما للضحكة في فمه تغيض ، ما به يتشنج بعد انبساط ؟... تراءى له ان المصلوب يتكلم ، وان شفتيه تهمهان : اذا نحن ذهبنا فقد بقي منا من ينتقم لنا منكم . عبد الله[1] ، لا تنس عبد الرحمن ؟

---

(١) لما كانت هذه السلسلة من القصص العربي تتحرى التاريخ في القصة فقد رأينا لزاماً علينا البيان ان عبد الله بن علي هذا ليس أخا زيد بن علي كما أثبتنا في مستهل الكتاب ، بل هو من بني أعمامه العباسيين . أما عبد الله بن علي أخو زيد فليس له في هذا المقام مجال !

Twitter: @ketab_n

الجزء الثاني

في مهب الاعصار

- ١ -

على بساط الرمل المنشور كأنـه الأبد ، وفي خلاء يقسم على الكون باجمعه مهمه قفر وما تحسس ذا روح ، درج زنجيان تطغى عليهما حلكة العتمة . نهك الهجير اللافح قواهما فارتفعت ارجلهما ببطء ، وحرقت الرمال الحامية اقدامهما الحافية فانطبعت في اساريرهما كشرة الملسوع

وتدلى عن جنب كل منهما سيف احـــدب يتكئان عليه كلما تلاشت فيهما المكنة . وبحثا عن شجرة يردّان عنهما بظلها لهبة الشمس فما ظفرا ببغيتهما وقد انطوت عليهما السماء الغبراء بحفافهـــا ، والصحراء الجرداء باكفهرارها ، فباتا كأنهما في جوف أتون سقفه من حديد وارضه من نار

بلى ، بدا لهما في متناهي الافق سوادٌ يبشر بانفراج الكربـــة . ولكن الزنجيين حسباه سراباً فلم يطمئنا به الى نجاة . قال اطولهما قامة واعرضهما صدراً وكان يشتم ويلعن : كم اعطاك عبدالله بن علي ، يا منقذ ؟

فأجـــاب منقذ ورأسه اشبه برأس جرذ الصحراء ، وساقاه كساقي

Twitter: @ketab_n

جرادة : وددت لو اعفاني من هذه المجازفة وحرمني الدرهم . فاني احس بالموت في كل خطوة . وانت كم كان نصيبك منه ،يا جابر ؟... لا كانت ساعة وقع فيها علينا ناظراه !

فنبر جابر مغتاظاً : نفحني بمائة دينار ، ووعدني ببدرة من المال اذا جئته برأس غريمه !

— اذن نحن من عطائه على مساواة ، ولكن أنظفر بعبد الرحمن ؟

وذهب فيهما التعب بالجلد على الكلام . فهما لا يقويان حتى على تحريك الشفاه . ودفعهما الخوف من السقوط في الرمال الى مغالبة الوهن المستشري في عروقهما . وانجلى لاعينهما السواد فاذا بهما حيال واحة بدت لهما في الصحراء المترامية حبّة دكناء

ولم يكن بد من بلوغها لاتقاء الخطر . فاذا قعدت بهما الهمة عن استظلال الفيء وارواء الظمأ فالدائرة تدور عليهما . وستدور عليهما اذا لم يرجعا الى عبدالله بن علي برأس عبدالرحمن بن معاوية . فانذرهما عبدالله بالموت ان هما اخفقا ولوّح لهما بالثواب ان افلحا . وأهون على عبدالله ان يطفىء روحاً من ان يطفىء سراجاً . والزنجيان من الأمر على جليّ بيان . فلا عودة إلا ورأس عبد الرحمن بن معاوية يحل محل زادهما في الجراب . واقتربا من الواحة والعياء يمعن في تقصير خطوهما . والتوَتْ ساقا منقذ وارتجف فتراكم على الرمال المحرقة يحاول الصياح ولهاثه يأباه عليه . وبعد مجاهدة استطاع أن يجمجم : ادركني يا جابر ، أكاد أموت !

ولكن جابراً مع عرض منكبيه ، واكتناز ألواحه ، بحاجة الى من يسعفه في مشيته وقد هدّه الظمأ وتعبت به قدماه . أما ورفيق الغزوة يتداعى فشق عليه أن يتردد في اقالة العثرة وهو يذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فتقهقر الى منقذ وجاد ببقوى من همة مفلولة لاغاثة الرفيق الكليل . فرفعه عن الارض وألقاه الى ظهره وهو يقول : لا بأس عليك ما دمت أقوى على حملك .

Twitter: @ketab_n

فأما أن نعيش معاً او نموت معاً . فلن أنجو وتهلك وبي فضالة من عزم !

واتكأ على سيفه بكل مـــا صان فيه الوهن من متصدع الصلابة . وشد في الرمال رجليه وهدفه الواحة وقد بدت لعينيه في اخضرارها ومواهتها . هذه محجة الخلاص . ولكن هل يصل اليها بحمله الثقيل ؟... وامعن في كيّه الحر اللاهب فدهمه العناء . انه لعاجز . قال في شبه حشرجة وقد أحس بانحطـاطه وبميعانه حتى أمسى قطرات تسيل حرّاً وعياء : منقذ ، أفلتت كل قوة مني . أراني أغور في الأرض !

وما أعلن قولته حتى هوى على الرمل ومنقذ لا يبرح ممسكاً بكتفيه وهو يجمجم بنواح : أنموت هنا ، يا جابر؟...أما اخترت لنا مكاناً أرحم نهلك فيه ؟

فتعالى من صدر الجبـــار الصريع أنين يبين : لنمت فدى عبدالله بن علي يا صاحبي . هذه الصحراء ستكون لنا كفناً وضريحاً . ألا انصف الله ضحـــايا العدوان !

وأغمض عينيه . أصابه غشيان ذهب بصوابه . وشاء منقذ الاستغـاثة بمن قد تضمهم الصحراء أو الواحة فاسقط في يده وناله من الاغمـــاء نصيب رفيقه المطروح بجانبه لا يبدي ولا يعيد . فاضطجعا على الرمال المحرقة جنباً الى جنب ، يتقليان معاً بلظى الشمس ووهج الرمل !

والواحة لم تكن مهجورة كما بدا منها . فما سقط العبدان في دربها حتى علا في صدرها صوت يهتف حزوماً : إدركا الزنجيين

فامتثل للامر رجلان . وظل بجانب المـاء يتفيأ ظلال بواسق النخيل فتى انتشر في قسماته النبل واطلت أمائر السيادة من مبسمه وعينيه . بصر بالعبدين يصارعان الرمل والقيظ فيما يدرجان الى الواحـــة . وبصر بهما يهويان حسيرين فاشفق عليهما ودعا رفيقيه الى نجدتهما . وما رفيقاه سوى خادميه . هم منـــذ ساعات في الفيء الرحيم يتذوقون الدعة والسكون بعدما شوتهم جحيم الفلوات المتوهجة الجمر !

Twitter: @ketab_n

وبلغ الخادمان مثوى الزنجيين المستويين على الرمل في فاجع انهيار يتأملانها ويلمسان صدريهما كأنهما يجسّان منهما مكمن الانفاس . وقال بعضهما لبعض : لا يزالان يعيشان ، فلنحملهما الى الواحة. حرام ان نهبهما للموت والانقاذ مستطاع!

وحمل كل منهما زنجياً وانطلقا الى عين الماء . وأسرع الى لقائهما السيد المتوسد العشب الاخضر يعينهما على اثقالهما وهو يستفهم : أيعيشان ؟

فأجابا والتعب يدفع أنفاسهما لهثة تلو لهثة ويذيب قواهما بما يتصبب من عروقهما من نزف سخيّ : لا يبرح فيهما نضاضة من حياة !

فأعلن آمراً : رشّا على وجهيهما الماء ، عجّلا !

واسعفها في القاء حملهما . ووثب الى عين الماء يملأ راحتيه بالسائل المحيي وينفضه على الوجهين المعقود عليهما الإغماء . فاختلج الزنجيان وما لبثا ان تململا وفتحا أعينهما ، ثم عادا يطبقانها كأنهما يتوهمان أنهما في حلم . فمضى الفتى النبيل في رشهما بالماء وهو يقول : لا تخشيا الموت ، بلغتما ضفة الأمان !

فانشقّت الاهداب عن النواظر . وتلفّت الزنجيان الى ما حولهما ومن حولهما بدهش وذهول . ماذا يريان ؟... انهما لفي الجنة . وفركا أعينهما لا يصدقان . فان من يريان لبشر مثلهما . واذا جابر ينتفض وينتصب على قدميه بغتة كأنه بريء من كل تقويض ، وإذا يده تمتد الى سيفه فيكاد ينتضيه صائحاً برفيقه : منقذ ، انهض ، لا أم لك . ألم تعرف الرجل ؟... هذا من نبغيه ، عبد الرحمن ابن معاوية بن هشام !

وجاراه منقذ في الوثبة وقد أعادت اليه المفاجأة الخطرة قواه ، وانقضت يده على مقبض السيف وهو يصيح بالفتى النبيل الحامل اليهما بحفنته رشاش الماء : مكانك ، أيها الفارّ من وجه القضاء ، انت طلبتُنا !

فابتسم عبد الرحمن – وكان هو اياه – كمن لا يبالي . وهجم خادماه سالم وبدر على الزنجيين يمسكان بطوق كل منهما صائحين : ما بكما ، قاتلكما الله ، هل جننتما ؟... أبمثل هذه الرعونة تشكران من انقذكما من الفناء ؟

Twitter: @ketab_n

ونزعا منها السيفين . فأصيب الزنجيان باللعثمة . وجلجل سالم غضوباً : ألا ممن تعلمتا البطولة، أيها المغواران ؟

ورعد بدر : لنقتلها جزاء كفرانها بالجميل !

فصاح بها عبد الرحمن : حذار ان تفعلا !

ودنا من جابر يقول: أتعرفني، يا هذا ؟... أراك تنطوي لي على داعر الحقد!

فاعلن الزنجي بمرارة ونفرة : أعرفك وأعرف عمك سليمان بن هشام . أنت عبد الرحمن بن معاوية الفتى الأموي الهارب من حكم الابادة !

فاستطلع بلين : وما يدعوك الى قتلي وقد عرفتني ؟... هل هضمت عليك حقاً ؟... هل نالك مني اذى ؟

فأعلن جابر بتعتعة المغلوب : اني احقق فيك أمر سيدي عبد الله بن علي . فهو من اغراني بدمك !

— وهل دفعك عبد الله الى الفتك بي ؟

— دفعني ودفع رفيقي ، ووعد كلا منا ببدرة من المال اذا عدنا اليه برأسك!

فضحك عبد الرحمن وقال : وهل يساوي رأسي بدرتين ؟... انه إذاً لثمين . فإليكما به . احتزّاه واحملاه الى عبد الله وانعما بالثروة . ما بالكما لا تقدمان على فصله عن جسدي ؟... هلا استأصلتماه ؟

فتولاهما جمود وارتباك حيال فيض السماح . قال عبد الرحمن : وما يكون فيكما اذا لم ترجعا برأسي الى عبد الله ؟

فأجابا معاً مرتاعين : يقتلنا الحقود الجبّار !

فاستوضح عبد الرحمن مداعباً : وهل تكونان على أُهبة للموت ؟

فصاح منقذ بحماسة فوّارة وقد راعه هذا الاسراف في الندى : نحن على اهبة له بسيفك لا بسيف عبد الله بن علي، أيها الامير !

Twitter: @ketab_n

فضحك الجميع ، ومنقذ ، ذو الرأس الشبيه برأس جرذ الصحراء ، يفيض بمنطقه الجيّاش . وقال عبد الرحمن ببساطة يطفو عليها النبل الاريض : بل أنا اخلي سبيلكما . فاذهبا الى حيث شئتما . انتما حرّان لوجه الله !

فنظر بعضها الى بعض والحيرة تسدُّ عليها مجال البيان . وأعلن عبد الرحمن بأريحية الخيّر المعطاء : انصرفا بسلام . لا دهمتكما الغواشي !

فلم يتحركا . ولم يكن من منقذ إلا ان تمتم باطراق : أيجدنا عبد الرحمن بن معاوية عبئاً عليه اذا ما طلبنا ان نكون له عبدين أمينين ؟

فتمادى النبل الاثيل في الندى الفيّاح وأذاع بطلاقة ريّا : ألا مرحباً بكما !

ودعاهما الى الجلوس وجاءهما بالطعام وبالماء . وجلس قبالتهما ينظر اليهما في شرههما الى الارتواء والتهام الزاد وهو يضحك . قال : منذ كم تطوبان الصحراء؟

فأبان منقذ وهو يكاد يغصُّ باللقمة لفرط ما حشا به شدقيه من طعام : منذ فرارك ، أيها الامير ، وأنت تعبر نهر الفرات !

— وهل شهدتما مأساة الفرات ؟

— شهدناها وكنا ممن دعوك الى العودة فأبيت . الا ان أخاك الصغير رجع مخدوعاً بكاذب الوعد . فيا للقلب البريء كم يجهل كيد الناس !

—وماذا كان منكم في أخي الصغير ، بل ماذا كان منكم في الأخوين ، في الكبير والصغير معاً ، هل أبقيتم عليهما ؟

فاطرق الزنجيان . واطراقهما دل عبد الرحمن على فدح الغـــاشية . قال والرهبة تقضّ كلماته : هلا حدثتماني عما أصابهما ؟

وجال الدمع في عينيه قبل أن يفيضا بالخبر اليقين . أيجهل ما أصاب أخويه وقد اجتذبتهما قبضة عبدالله بن علي الساحقة ؟... وتمتم منقـذ بصوت لهيف : إنا لله وإنا اليه راجعون ، يا عبد الرحمن !

Twitter: @ketab_n

فطفرت من صدر الأمير الأموي صيحة هالعة رددتهـــا الواحة بنواح وقد هدر : ويحكما ، هل قضي على الاثنين ؟

فاكتفى منقذ وجابر بان ينظرا اليه نظرات أسيفة تشفّ بصمتها عن الجواب الناعي . فضرب عبد الرحمن كفاً بكف معولاً : ما اقسى قلبك ، يا ابن علي . فانـك للذئب الكفور في ظمإك الى الدم . بالله عليكما ، قصّا عليّ كيف قضى الشهيدان الامويان !

فتولى منقذ رواية الخبر. ومنقذ ملسان يجيد تنميق الحديث وصوغ الكلام. قال : سيدي الامير ، لك ان تفتخر باخيك يحيى . لقي الموت والسيف بيمينه. وكاد يبطش بعبد الله بن علي ، إلا ان عبد الله من طوال الأعمار !

فجلجلت نبرة حزينـــة في حنجرة عبد الرحمن واذاع والألم والاعجاب يزدحمان في بيانه المتفجع : ان يحيى لبطل . لو تصدى له عشرة لتساقطوا بـين يديه صرعى . ولكن عبد الله بن علي دهمـــه في جيش . يحيى ، أخي ، ليتني كنت بجانبك أذود عنك واتقي بصدري فتكات الأسنّة . وأخي الصغـــير ، الحمل الوديع الطاهر ، كيف نهشه الذئب الخطّاف ؟

فقال منقذ بلوعة الاشفاق : مسكين أخوك الصغير ، يا عبد الرحمن !

واستلّت كلماته الدموع من المآقي . فبكى الجميع كأنهم يشهدون بانفسهم مصرع الغلام ، وكأن دمـه يترقرق في نواظرهم فيغمرهم وينسكب عنهم دفاقاً فيندّي رمل الواحة ويخضّبه بحمرة تستصرخ الانصاف . ووجم الخمسة . فـلا نأمة ولا حركة . بلى ، كان الدمع أفصح لسان . عبد الله بن علي لم يعفّ عن غلام ليس طويل عهد بمجاوزة الفطام

وهاج في عبد الرحمن حب الاطلاع على المأساة فقـــال بصوت أبحّ يغصّ بلهجته الكئيبة الغضبى : ألا حدثاني عن الزهرة الآفلة قبل أن تتفتح عنهـــا الاكام . ان في سماع النبأ على هوله لبعض المؤاساة !

فقال منقذ بصوت بكيّ : انتاشت السيوف الأمير الصغير كأنها العقبان

Twitter: @ketab_n

تتهافت على جثة باردة في فلاة . فأطارته شظايا تناثرت في الابعاد يلفّها الرمل النهم بكفنه المنشور على الآباد !

فصاح عبد الرحمن وهو يهتز كأن به رعشة من حمّى : أمـــا أشفقَتْ على نضرته ، أما رحمَتْ في البرعم طراوة السن ونعومة الاظفار ؟

ومضى في شهيق متسلسل الاداء انتهى فيه الى القول : عبد الله بن علي ، ما عرف البطش الأثيم لك نداً ، ان مأواك النار !

وتذكر ميمونة وزينب فقال : وما كان من عبد الله في ابنته ميمونة ، هل نجت من ويل السفّاك ؟

فأجاب منقذ بلوعة صادقة الرعشة : بل هي بليت بما بلي به أخواك . فلم يرحمها أبوها وقد أعمل فيها السنان ، فجادت بروحها فداك !

فنفرت دمعتان سخينتان من عيني عبد الرحمن هطلتا على خديه جمرتـــين وقّادتين ، وصاح بحرقة لا تعدلها لهفته فيما يتبلغ منعى أخويه : هل قتلهـــا الكافر ؟... هل صوّح فيها طراوة الاهاب وبهجة الفتوّة ؟

فجمجم منقذ كأنه يتحامى بخفوت صوته مضاء الايلام : قتلهـــا لا يشفق فيها على مستضعف الانوثة . فأبت عليه نفسه ان يكون أباً لفتاة تهيم باموي !

فهتف عبد الرحمن بمتمادي النقمة والحقد : قتله الله . ان من يبلغ من العسف هذا الامد لبعيد عن فطرة الانسان . هو من فئة الضواري . لا جادت عليـــه غمامة بقطرة من حنان . ميمونة ، ميمونة ، أنا قاتلك . فالرحمة للجاني البريء يا عنوان الكرم والفداء !

وأخفى وجهه بيديه يشهق ويبلل خديه وشاربيه بمستفيض دمعـــه . واستوضح وهو لا يفتـــأ ينتفض في بكائه الاسيان : وزينب ابنة عمي ، مـــا كان منها ، هل اتبعها الفاجر بابنته السمحة ، المغبونة في ابيها الجلف ؟

— بل هي سلمت من اذاه . فما استطاع فيها شراً وأبوهـــا سليمان . وناداني

Twitter: @ketab_n

وجابر أ يدعونا الى ادراكك وقتلك . فأطعنا ونحن لا ندري أين نهتدي اليك . على ان المقادير جمعتنا فكنت بنا رفيقاً . ولن تجد منا غير الاخلاص في الخدمة والصدق في الولاء !

فقال وهو يختلج في زفيره المهتاج : مرحباً بكما ، انتما عندي بامان !

وأحس بحاجة الى الخلوة بنفسه ، بعد كل مـــا وقع في اذنيه من المناعي ، فدلف إلى مسيل الماء يقتعد العشب الأخضر وعيناه المعكرتان تشخصان الى حيث لا يدري . لقد تاهتا في محلولك الشجن ومغرورق التذكار .

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

٢

غابت الواحة الخضراء عن مستجلي العيون وغاص الركب في مطاوي الصحراء . فانطلق في ثلاث نياق والشمس العضوض لا تبرح في نقمتها الصاهرة، والرمال من غليانها في متفاقم اللذعة . وارتدف عبد الرحمن خادمه بدراً يجاذبه الحديث . قال : ماذا ترى، يا بدر، في نزوحنا الى وادي النيل ، أنأمن في الرحلة شر الهاشميين وهم يبغونني كأني مطلبهم الأوحد ؟... ربما أفنوا جميع الأمويين ولم يبق سواي حراً فتعاهدوا على اهلاكي ليخلو لهم الجو من الكدرة !

وعاد يقصّ على بدر كيف درأ عنه الموت على دفعتين ، بل على دفعات ثلاث ، فيما يقاتل على ضفاف نهر الزاب ، ثم على ضفاف الفرات وقد اوشك عبدالله بن علي ، لولا ابنته ميمونة ، أن يصيده . وبلغ فلسطين واذا صيحات الأمان تعلو من شفتي عبدالله ، فانخدع بها وحبا الى نهر أبي بطرس يلقي أمره إلى الجزار . ولكن ثمة من عرفه وصاح به : « إلى أين ؟... هل جئت ترمي في النار ؟... عبدالله بن علي مخاتل . ما لوّح لكم بالعفو الا ليجيد ذبحكم . فالنجاة ، النجاة ! » قال عبد الرحمن : وايقنت من لهجة المنذر ومن أساريره المتوقد فيها الصدق انه ممن لا يزالون يبطنون لنا الوفاء . فاتقيت الكارثة وانتحيت البوادي . ولكن باي صعيد استقرُّ منها ؟... اني لمؤمن بان هذه الربوع تنبو بنا . فالهاشميون يميلون الى اتلافنا . عبدالله بن علي لن يبقي على روح في جميع هؤلاء اللاجئين منا على جنبات نهر أبي بطرس الى حلم الجلاد . ودرى بنفاذي الى مكره واتقائي غدره فرماني بهذين الزنجيين للفتك بي . فمن لم يشفق على ابنته لا يشفق على روح . ألا بأي بلد ترى أن نعتصم ، يا بدر ؟

Twitter: @ketab_n

وبدر أخو تجارب . عاش زمناً في بلاط هشام بن عبد الملك في الرصافة وخبر الناس وكيد الزمان . قال وسنواته تنطق فيه : لن يبسم لنا الدهر في سوى المغرب . هذا ما تنبأ لك به مسلمة، عمّ أبيك . ومسلمة يقرأ في الغد يا عبد الرحمن . وكأني به تمثّلَ المجزرة وهو يتبين في الغرب نهاية الأمويين . فتراءت له بحيرة تضطرب بالاشلاء والدماء ما نجا منها غير ساعد اوشك السيف مراراً أن يقطعه . إلا انه سلم ولاذ بالفرار . قال مسلمة عم أبيك وكأني الساعة أراه وأسمعه : « نجمٌ ينطفىء في المشرق ليتوهج في المغرب ! » . وهذا النجم هو السلالة الأموية ، وذاك الفارّ من مضطرب الدم هو انت . فإلى المغرب يا علالة النسل الأموي الكريم !

فاستفهم عبد الرحمن بامل تنبسط فيه الخشية : وهل نبلغ المغرب سالمين ؟

فاعلن بدر بيقين الحصيف : أنا من المؤمنين بالتنجيم ، ايها الامير ، وأرى السلامة مكتوبة لنا . فما نطق بالعبث عم أبيك !

فاطرق عبدالرحمن يسائل نفسه : « وهل يصدق التنجيم ؟... أيفوز الأمويون بالمغرب وقد تقلص ظلهم عن المشرق ؟ » . والتوى على ضميره يستوضحه الغد فأهابت به خلجات نفسه الى الثقة بآتيه . فملكه النشاط ووطن الهمة على الجهاد في استعادة المجد السليب . قال : علينا بالكفاح اذاً وبالثبات ، يا بدر . فاذا وطئنا أرض مصر نجونا من الخطر واتسع أمامنا مجال التوفيق !

فاوضح بدر : ما دام اعداؤنا يجهلون مقرنا فالرحلة مأمونة !

وأشار الى الزنجيين يقول : عبدالله بن علي لا يبرح بانتظار هذين . فلينتظر أوبتهما العمر المديد !

وشدد في بعث الرجاء في نفس عبدالرحمن لئلا تفتّ المصاعب في عضد الفتى . وتوالت على الركب الايام الطوال في نهجه الواحد النغم . سماء ورمل ورملٌ وسماء . بلى ، كانت تطل واحة بعد واحة كاطلالة البدر في الليلة الظلماء !

Twitter: @ketab_n

وكلما اعترضت بلدة الطريق الى مصر عرج عليها بدر يستجلي انباء القتال بين الهاشميين والأمويين . فاذا مأساة نهر أبي بطرس تملأ رواياتها الافواه . بطش عبدالله بن علي بثلاثة وثمانين أموياً هم بقيا بني أُمية السادة البائدين . صدق مسلمة ابن عبدالملك فيما تنبأ به . وعاد بدر إلى مولاه يقص عليه النبأ المروّع ويقول: صانك الله من الغاشية، ايها الأمير . ستتم نبوءة عمك بكل حرف فيها !

وبلغ الركب وادي النيل وقد طبعته الصحراء بطابعها النحاسي . فكاد عبدالرحمن وبدر وسالم يشابهون في لونهم منقذاً وجابراً الزنجيين . وابتسم الزنجيان وقد اطلا على مصر . باتا فيها بأمن من حرّ الهاجرة وحرقة الظمأ ، ومن شبح عبدالله بن علي المخيف !

والنفوذ العباسي لم يكن قد لفّ مصر بعباءته وكسائه شأنه في خراسان والعراق والشام والحجاز . فما برحت افريقيا في نبوة عن الاستظلال برايته وان تكن جيوش صالح بن علي واثبت الخليفة مروان الجعدي على ضفاف النيل واستأصلت هامته وما برحت ناشرة اعلامها على هذه الضفاف . فصبا الأمراء والولاة الى الانفصال والاستقلال بالحكم . فما دامت الخلافة الأموية قد انهارت فلماذا الخضوع لسيد جديد ؟

وادهش عبد الرحمن بن حبيب الفهري ، أمير المغرب ، ان يستأذن عليه نبيل أموي . فهل بقي لهذه السلالة أثر بعدما أفناها الهاشميون ؟... وتجهمت أسارير الفهري . ما جاء يفعل النبيل الأموي في صرح يحن ربّه الى امتلاك الناصية ؟... غير انه رحب بالضيف وفسح له اليه معلناً بطلاقة مسماح : مرحباً بابن السادة الميامين . ان انت الا نسل قوم اطعمونا خيرهم ، واجروا علينا رزقهم ، وقيدونا بفضلهم الجزيل !

فانتفضت في شفتي حفيد هشام كلمات الشكر واقبل كل من في الصرح يصغي الى حديث الفتى الاموي عن ثورة الهاشميين وخيبة مروان . وتمثل الجميع هول الرزيئة وانهيار مجد ما برح منذ دهور منشوراً على أمصار العرب . واستمع الى الحديث شيخ أبيض الشعر ، طويل اللحية، يتكىء على عصا سوداء

Twitter: @ketab_n

ويحدج الاموي بنظرات حداد كأنه يحاول بها النفاذ الى المطاوي . هـذا حكمون اليهودي ، مستشار عبد الرحمن بن حبيب الفهري القابض على زمام مصر وما حولها من ديار المغرب الشاسعة. قال وقد أذاع الفتى الأموي دواهيه : أأنت عبد الرحمن بن معاوية ، وجدك هشام ، وعمك مسلمة ؟

فأجاب الفتى مستأنساً بالاستيضاح الخميل الرنّة : اني لهو !

فقال اليهودي يستعين بالذاكرة على ازاحة الستار عن الماضي البعيد : أنا أعرفكم واحداً واحداً وقد تلقيت عن مسلمة ، عم أبيك ، معرفة الغيب . والغيب يعلن، يا ابن معاوية، ان ظلكم تقلص عن المشرق ، فلم يبق غير المغرب تجولون فيه !

فالتفت الجميع الى حكمون الشيخ متعجبين . ماذا يبدي ؟... وصاح به الفهري : افصح ، افصح ، لا أم لك !

فأعلن حكمون بتؤدة رجل العلم ، المستوي من فنه على دعامة : هذا الفتى سيعيد الحق المهدور والمجد الهضيم. فما أضاع الأمويون في فارس والعراق والشام سيدركونه في الأندلس . باعث المجد هذا هو، يا بني أمي !

فردد أقوال مسلمة استاذه . وهو لو تبين ملامح الفهري فيما يذيع نبوءته لجمدت كلماته في شفتيه . فالفهري كان أمير الأندلس ولم ترسخ قدمه فيها . والله ليضنُّ بها ان تفلت منه وما برح يطمع في استعادتها وان تكن شقّت عليه عصا الطاعة ونبذت سلطانه . فليس يكفيه المغرب يصول فيه . وارتاع وحكمون اليهودي يوضح طالع الفتى واربدّ جبينه . ولولا ان يقال فيه انه نابي الحلم لوثب على الأموي يفلق هامته ويتبع به اليهودي غراب الشؤم. بيد انه تماسك واضمر لعبد الرحمن بن معاوية الويل . سيفتك به قبل ان ينطلق الى صحراء المغرب . واستطاع ان يصانع ويزدلف اجتهاداً منه في اخفاء نياته . بيد انه لم ينم ليلته لفرط امتعاضه وقلقه . فهو ازاء شرين . خاف ان يقضي على النبيل الأموي وان تعود العترة الأموية الى الانبثاق ، ويا لهول الدينونة !... فالايمان بأن

Twitter: @ketab_n

جميع الأمويين انطفأوا وكانوا يملأون الرحاب لم يرسخ في ظن أمـــير المغرب . فكما ظهر منهم هذا الفلتان فقد يبدو سواه ويبني العز الهاوي ويبتر الرؤوس المستذئبة . وخشي ان هو اطلق ضيفه ان يطير الفتى الى الاندلس ويشيد فيها وكره ويحرمه السيطرة عليها . فاعتزم بعد امعان روية استبقاءه في ضيافتـــه ريثما يستجلي منحى المقدور...

وهصرت نبوءة حكمون في الفهري لدونة الرجاء . ألا عودة الى الجنـــة المفقودة ، فتبيت له الاندلس الزاهرة الفيحاء وقد اقتلعه منهـــا خصومه كما يقتلعون بالكلأبة المسمار ؟... شهد بعينيه مصرع الخليفة مروان الجعدي في بوصير ومشى الى القائد الهاشمي الظافر صالح بن علي يواليه ويعرض عليـــه سيفه ، مع كونه صنيعة الأمويين . فاثبته صالح في مركب الامارة . ونجم له انه أضحى سيد المغرب والاندلس معاً ، فينشر لواءه على هذا الملك الريان ، المسبطـّر ، ويمسي رب دولة حرة ، منيعة . الا ان مستشاره حكمون اليهودي شوّه عليه صباحة الأمل بما تنبأ به وردد من نبوءة سلفت لسلمة بن عبد الملك . وحنق على حكمون حتى لم يكن يهتدي . وناداه ، وقد قضى ليلة معتكرة لهبى ، يدمدم عليه بفورة من ضغن : يا عبد السوء ، كيف تجرأت أمس على النيل مني ، فوهبت الأندلس للفتى الأموي مستنداً الى علم الغيب وانت تدعي معرفته ؟... ألا أطلعني بوضوح على ما ينبئك به هذا العلم . أتبقى لي إمارة المغرب بعـــد اضمحلال الأمويين أم تضيع عليّ ؟... اجبني بلا مواربة والا دققت عنقك !

وبدا سعيراً يتلظى . فقال اليهودي وقد هالته الغضبة : خفف عنـــك يا سيدي الامير !

فزأر : أخفف عني ماذا وأنت تهب الممالك ، كأنك ربها ، لهـذا وذاك من النفايات ، فماذا أبقيت لي ، يا ابن اللخناء ؟

وكاد يلطمه . فاعلن حكمون : لا خوف عليك . فالمغرب ملك يمينـــك ، وسيظل ملك يمينك ، وانت فيه السيد ذو الجلال !

Twitter: @ketab_n

فاستطلع بفحيح الموتور : والأندلس ؟

فاحرجه .. وأمضّ الامير سكوت مستشاره فصاح مزبداً : لمن الاندلس أيها النكس ؟

فتململ اليهودي حيال الاهانة وأجاب لا يرهب : لهذا الفتى النازل ضيفاً عليك ، يا ابن حبيب الفهري !

فزاد في هياجه . وكاد يخترط سيفه يقطع به رأس حكون المستطيل . وعربد بانقلاب سحنة ينم على شراسة متلاف ، لقد نعيته الى الآفاق ، يا ابن الفاعلة . لن يعيش ابن سادتك وانت تخلع عليه ولاية انا بها شحيح !

فتجاسر حكون على القول : أتقتل ضيفك وفيك يجول الدم العربي النصيع ؟

ـ أقتلك واقتله ، وألحق بكما كل من يقف عثرة في سبيلي ، يا ابن اللئام الرعاديد !

واذا حاجبه يدخل عليه معلناً : بالباب رسول من الكوفة يستأذن على مولاي الأمير !

فتولته الحيرة . ألا رسول مَنْ هذا المقبل من الكوفة في هذا اليوم الانكد ، وما يحمل من جسيم ؟... والتفت الى حكون اليهودي يستعين برشيد حجاه . ولم يكن يجد غنية عن سداد بصيرة الشيخ الآكلة الايام من كبده ومن أطرافه تحبوه التجارب فيما تنكبه بالاسقام . فقال حكون : لست أراه إلا بشيراً بركوب العباسيين السدة ، فليفسح له الامير كي نتبين ما صار اليه الأمر في المشرق علينا ان نقف على النبأ الجليّ !

ودخل الرسول يقرأ الفهري السلام ويدنو منه فيلقي بين يديه رسالة مختومة بالشمع وهو يقول : هذا كتاب أمير المؤمنين أبي العباس الى أمير المغرب عبد الرحمن بن حبيب الفهري . انتدبني مولاي الخليفة ، مدّ الله عمره ، الى سيدي الأمير ، دامت نعمته !

Twitter: @ketab_n

فعاد الفهري يلتفت الى مستشاره اليهودي وكأنه لا يفهم مـــا ينساب الى سمعه من مقال . وتناول الرسالة بيد ما خلت من بعض رعشة وفضها وقرأ فيها بعينين ناتئتين ، خائفتين ، كأنه يخشى ان يقرأ امراً بالعزل عن الامارة الطيبة الافاويه ، الخضلة المباهج . بيد ان الرسالة تقول : « من أبي العباس ، خليفة رسول الله ، الى عبد الرحمن بن حبيب الفهري ، أمير المغرب – أما بعد فالخلافة أضحت عباسية الجذع والحمد لله وقد ركبت مسندها ورائدي الحق ، ومبتغاي العدل . فسيروا في رعاية ولايتكم بطاعة الله ورسوله وقد اقررناكم في ما انتم موكلون به من اعباء . وكل ما نشدد فيـــه عليكم ان تسوسوا القوم بالحسنى ، وان تعتمدوا في تدبير الامور الانصاف . وارجعوا الينا في شؤونكم كافة شأنكم حيال من سلف من الحاكمين . فالدولة القائمة في ظل القدرة يضيمها العدوان ويوغر صدرها العصيان . فكونوا بها بررة وارعوا فيها عهد الله ! » . فازدادت عينا الفهري اتساعاً وعاد يطالع الرسالة بدهش ووهلة . وألقاها الى مستشاره اليهودي كي ينظر فيها . فقال حكمون برصانته المأثورة : هنيئـــاً لابي العباس مركبه الوثير . بايعناه ونبايعه بالخلافة وهو بها حقيق !

وغمز بعينيه الفهري . لا محيد عن هذا الجواب الدميث الخميل . ومـــاذا للفهري ان يعترض به على الثورة الناشبة والسيف المصلت ؟... فما في المشرق غير أنياب حداد وبواتر اصلاد . والحكمة تفرض اتقاء الصولة العاصفة . ودعي الرسول الى الانتظار ريثما يكتب عبد الرحمن الفهري ميثاق الطاعة . وخـــلا المكان للفهري ومستشاره فحدج أمير المغرب اليهودي الشيخ بنظرة خشيـــا وجلجل بحذر ينبض به ، في كل كلمة من كلماته ، صوتـــه الأجش ، المحموم : أتكون على صواب في ما أعلنت ، يا حكمون ؟

فأوضح اليهودي : زاد الله في رفعة الأمير ، هل لنـــا ان نزيح عن ميسم المقدور ؟... قتل العباسيون على مرأى منا الخليفة بن مروان الجعدي ، وقضى علينا قائدهم صالح بن علي بان نخلع عنا سيطرة الأمويين وبان نرقب كلمة الثورة الظافرة في الخليفة المكتوب له ركوب السدة ، ففعلنا . وهل لنا بعد الموافقة

Twitter: @ketab_n

ان نخرج عما ناديا به ؟... ان في العصيان الهلكة، أيها الامير !

فاطرق عبد الرحمن هنيهة على محض تفكير . ومـــا لبث ان لاذ برأي مستشاره فهتف وهو يتنهد : إذن فاكتب اننا بايعنا ابا العباس ، يا حكمون ، ما دمت ترى النزول على حكم القضاء فرضاً علينا وليس لنا ان نقاوم بمجاذيفنـــا المهازيل صخب الخضمّ . انك لتتجاذبني انى شئت لا أُم لك . ومن العجيب ان أوافقك على شهواتك كأنك قائدي . فرضيت منك القعود عن نصرة مزوان الجعدي وهـــو وليّ نعمتي . وحبوت واياك الى صالح بن عليّ أُطأطىء الرأس بين يديه . واسمعك الآن تقدر عليّ مبايعة أبي العباس . ألا ما يدهمنا وقـــد استعاد الامويون الأمر ؟... هلا اتقيت ما سوف يرتجل الزمن ؟

فأفاض حكمون بالقول الرشيد : علينا بالامتثال لعنف التيار اذا طاب لنا الاستقرار باريكة العز أما الامويون فلا ترجى عودتهم الى سلطانهم الصديع في المشرق وقد انتهت ايامهم فيه !

والفهري على ثقـــة طفحى بمستشاره وهو الموقن بعلو كعب حكمون في المشورة والنصح . فختم كتاب المبايعة ونادى اليه رسول أبي العباس يعالنه : نحن على دين خليفتنا الميمون النقيبة ولسنا من الدولة الطالعة غـــير ريثة في الخوافي . فليبسط أبو العباس جناحيه علينا وليطمئن منا الى الخضوع والتأييد!

ونفح الرسول بجائزة سنيَّة في مقابل ما زفّ اليه من بشرى . فلا بـــد من المداهنة لاستبقاء جلباب النعمة . فانصرف الرسول وفي شفتيه دفقات من دعاء وشكر . ومال الفهري على مستشاره الشيخ اليهودي يقول وهو يزفر ملياً : والآن يا حكمون ، ماذا ترى ؟... أتفلت منا الاندلس بعدما ضاع علينـــا الاستئثار بولاية المغرب ؟

ونضح مقاله باللوعة . وحكمون وهو المفطور على الحفاظ لسادته الامويين لم يكن يرجو هذا الميعان حيال العباسيين ، ولكن عظة الزمن اوحت اليـــه بالاذعان فانحنى . وهل للرأس مهما علا ان يغالب النصلة الباترة القاهرة ؟...

Twitter: @ketab_n

وما ندّ عن حكمون الفطين ما يستوضح سيده الامير الفهري . فانه ليبغي الخلاص من مزاحمه على إمارة الأندلس . فيظفر بالفتى الأموي بعد خيبته في الانفصال عن المشرق والتنعم بالسلطان المطلق على المغرب الشاسع المرمى ، العميم البرّ. قال اليهودي يداور سيده: الأمور مرهونة باوقاتها، يا مولاي الأمير!

فما شفى الجواب المبهم ، الابتر ، نهمة الأمير . قال الفهري بجرد : ان يكن الفتى الأموي حائلاً دون الامنية فلنذلّله . ليست سيوفنا قاصرة عنه . ومن يحاسبنا في دمه وهو طلبة الغزاة المنصورين ؟

فظل حكمون اليهودي يناهض الرأي المخضب بالنجيع . وانتفض مقوله بالممانعة الرصينة ، المستعينة بالاريحية والشمم لادراك ملتمسها ، وقد عاد يعلن بلين يستميح اخضلال الحلم : هذا ضيفك ، أيها الأمير . والعربي حريص على الضيف . فهل يرضى الفهري ان يقال فيه انه عبث بسجية الآباء والجدود ؟

فهتف عبد الرحمن بن حبيب وقد غلت فيه مطامعه ومخاوفه : أيقيم عدوي في صدري واعفو عنه ؟

— وما عليك اذا عفوت ؟... اطلقه الى هدفه ، فالموت له بالمرصاد . أيقوى على الفلاح ، وهو وحيد فرد ، حيث اخفق الأمير ، وهو جيش في جيش ؟

فرعد الفهري وكل ما فيه على لظى : لا تداوني بمراهمك أيها الماكر الرثّ الحفاظ ، فاني لادرى منك بك . بضاعة التدليس لا تروج في سوقي . الاموي يجب الخلاص منه . أتتنبأ له بركوب سدة الاندلس وتدعوني الى اطلاقه اليها ؟... ألا اين ولاؤك لي ، أيها الغادر الزنيم ؟... سأقتلك واقتله . غير اني لن أقتله بيميني حرصاً على ما تلزمني الضيافة ، خزاها الله ، من مسالة . بل سأعهد في أمره الى سادة اليوم ، وهم سادتي ، ولهم الحكم المبرم عليّ وعليه . فرض الامانة يكرهني على ابلاغهم أمره ، والا نالني منهم الأذى حين يعلمون اني اخفيت عنهم جرثومة النكد الوبيل !

وفار كالقِدْر الجائشة . فقال اليهودي بنبرة رزينة ، خاشعة : يؤلمني أن

Twitter: @ketab_n

تزول عني ثقة سيدي بي . فان يكن دمي منجاة له من كيد اعدائـــه فليسفك دمي وهو في حلّ منه !

فمضى الفهري في صرخته المتطايرة الوعيد : ما كنت لامسك الساعة عن البطش بك لولا حرمة الشيخوخة فيك وقد أصبحت عندي غير جدير بمخالصتي. ومنذ صباح غد ساوفد الى الهاشمي من يطلعه على مقام الاموي عندي وللمقادير ان تتكشف عن سرائرها !

فنأى حكمون اليهودي عن القصر كئيبـــاً ، مخلوع الجناح . وحاول النوم في تلك الليلة فما أذنت عيناه في غمض . حبه للامويين هاج فيه فاستعصى عليه الرقاد وعبد الرحمن بن معاويه عرضة للموت . قال بعزمة لا يرتضي عنها نكوصاً : عليّ انقاذه وإن ضحيت بحياتي . فان مسلمة ، عم أبيـــه ، استاذي وصاحب فضل جمّ عليّ !

ونهض يرتدي ثيابه ويسلك تواً طريقه الى قصر الفهري . وانسلّ اليـــه وليس للحرس ان يعارضوه وهو الملحوظ في خاطر الامير . ولم يكن يجهل في أي جناح من القصر يثوي حفيد الامويين ، ولا في أي حجرة من هذا الجنـــاح يقيم وقد ارتادها مراراً في محادثة الفتى . وزحف اليها وطرق الباب وقلبـــه يخفق شديداً بفارط الوجل . فاستفاق عبد الرحمن بن معاوية واستطلع : من ؟

فأجاب اليهودي بصوت تختلج فيه لعثمة الهول : افتح أيها الأمير ، صديق !

وخشي اذا أعلن اسمه ان يحمل الليل مقاطع هذا الاسم الى اذن الفهري . وقام عبد الرحمن لساعته وفتح باب الحجرة وهو يريد معرفة الصديق المقبـل اليه في الغبشة . وحمل بيمينه سراجاً يتبين به الزائر المفاجيء . وعرفـــه على الفور . هذا حكمون اليهودي . وراعه ان يقبل اليه متبطناً العتمة . وزاد في ارتياعه الانقلاب المطبوع في ملامح الشيخ . فالاضطراب يعول فيهـا . فدعاه عبد الرحمن الى الدخول على عجل واقفل الباب قائلاً : حكمون ، ما جاء بك اليّ الساعة ؟

Twitter: @ketab_n

فأجاب اليهودي وكل ما فيـــه على رهيب ارتعاش : الموقف خطير ، يا ابن معاوية . اسرع ورهطك في الرحيل وإلا دارت عليكم الدائرة . في نية الفهري ان يطرحكم بين أنياب صالح بن علي . ولقد جازفت بنفسي كي أنقذكم من الويل المتوعد . عليكم بالفرار وسأكون رفيقكم في اتقاء المكيدة والا لقيت ما أحاول صونكم من شره . اسرعوا قبل فوات الأوان !

فهتف عبد الرحمن مدهوشاً : أيبطش الفهري بضيوفه ، يا حكمون ؟

— المصلحة لا تقيم لحرمة الضيافة وزناً ، يا ابن معاوية . فالفهري يخشى أن تسلبه إمارة الأندلس فنقم عليك واراد لك الموت !

فصعّد النبيل الاموي عينيه في اليهودي الشيخ وقال بعد لأي عسير : وهذا ما بدا لي منه . ولكن نفرّ الى أين ؟

— الى صحراء المغرب . أنا أرشدكم الى الطريق !

فغلب على عبد الرحمن التفكير . قال حكمون : ان لم نسرع في الهرب فلا سبيل الى النجاة من صعقة القدر ، أيها الأمير !

فأيقن عبد الرحمن وهو يسمع حكمون في نبرة صوته وإلحافه ان اليهودي صادق في نصحه . قال : اذن فلنسرع !

وأيقظ خادمه بدراً قائلاً له : حان موعد الرحيل ، يا بدر . فالفهري يريد بنا شراً ، لننصرف قبل ان تدهمنا الغاشية . أين رفاقنا ندعوهم الى النفور ؟

واستفاق الخدم جميعاً . وانسلّ الواحد تلو الآخر من القصر يقتفون خطوات عبد الرحمن وحكمون وقد صانتهم الغبشة من عيون الفهري . أشباح تنفلت من الصرح كالنسمات العليلة ، فلا تعلو لها ضجة حتى ولا حسّ كأنهـــا تتنعل أنفاسهـــا . وجلت عن مقر الفهري تشقّ أديم الصحراء بحرص من يتقي مستفحل الخطر . ولم يطلع عليها الصباح إلا وقد غلّفتها الرمال . وماد الفهري وقد جاءه في مطلع الشمس من يبلغه خلو المكان من الاضياف . فصاح متضعضعاً : وأين هم ، هل فرّوا ؟

Twitter: @ketab_n

فأعلن حاجبه هلوعاً : أراهم فرُّوا، أيها الامير !

فتولته الرعدة وزعق والهول يقيمه ويقعـــده : وأين حرسي عنهم ؟.. أأكون في صحراء ، في أموات ؟... ومن أبلغهم اني اكيد لهم ؟... من الخائن في قصري ؟... إن هو إلا حكمون اليهودي . طيروا الى داره واحمـــلوه اليّ مكبلاً بالاصفـاد . سوف يرى الماكر وقد مثلت به كيف يكون التنكيل بالخائنين !

وأبى إلا ان يشاهد بنفسه مثوى الاموي ورفاقه . فانطلق عاصفة مجتاحة الى الجناح المحبوس عليهم في الصرح وإذا المكان قفر . فصرخ الفهري بمن حوله : إلحقوا بهم . ابحثوا عنهم في كل طريق ، في كل زاوية ، في كل منحنى . من المحال أن يكونوا ابتعدوا عنا . اريدهم في الحالين ، موتى أو أحياء !

وشعر بانه نذل وقد حاول الغدر باضيافه . وخوفه من ان يشيع عنه انه سعى للفتك بمن لاذوا بجاه زاده استمساكاً بالبحث عن الاموي . ثم ما يكون منه حيال صالح بن علي اذا درى صالح بان أموياً أقام في ضيافة الفهري وشيّعه الامان ؟... وتعاظمت خشيته . فالملـــات تعصف به من كل جانب . وبلغت حرقته مبلغها القاصم لما قيل له ان اليهودي ليس في داره . فاشتعل كالبركان في أقصى مدى من لظاه وصاح وهو يكاد يختنق : احرقوا داره ، احرقوهـــا بمن وما فيها !

بل شدد في ان يضرم بيديه النار. وطفر الى دار اليهودي يشتفي من نقمته. واليهودي لم يكن رب أسرة . فهو يعيش في منزل صغير على انفراد وقد توفرت على خدمته زنجية من الحبشان . وابى الفهري لفرط قهره الا أن تكون الزنجية كالمنزل طعماً للهيب . فدعا الى شد وثاقها وأشعل فيها وفي المنزل الوقد . ووقف ينظر الى الضرم الناهش ، ويصغي الى أنين الزنجية المحترقة والى خشخشة اللهبة الاكول وفي نفسه بعض العزاء . بل لم تكن نفسه تتعزى وقد أفلت منه مزاحمه حاملاً عنه أنكد الأثر . فيا لخزيته ورواية البطش بالضيف تذيع في القبائـل ويتناقلها الحداة والركبان !

Twitter: @ketab_n

٣

حكمون الشيخ واسع الالمام بمنبسط الصحراء . فقد طوى تلـــك الفيافي ليّاتٍ على ليّات في شخوصه الى القبائل السارحة فيها يعالج أمرها ، ويحمـــل اليها رغائب الفهري ، ويحثهـــا على الولاء والاخلاص . فازال الاحن ، وضمّد الجراح ، وذلّل العقبات بخبرة يصقلها المرون والدهاء

وساءل نفسه وهو يعود الى ذلك اليمّ الأغبر عن مكان آمن يلوذ به . فخطر له ان يحتمي بقبيلة من البربر معقودة فيها الرايـــة للزعيم « وانسوس » المجدول الساعد ، الرحيب الصدر

ولم يكن « وانسوس » ليطمئن الى الفهري وقد لمس فيه العدوان والحقد . على ان اليهودي الشيخ وفق مراراً بينهما بلين منطقه ، وبعيد حكمته . فانقاد اليه « وانسوس » مأخوذاً بحنكة هذا الوسيط العارف بمواضع الاستمالة ، الدمث البيان . ولولاه لانقلب على الفهري يناوئه ويبادره بالعصيان خالعاً عنه التحكم السليط والدلال المتلاف

وأفاض حكمون بما ازمع عليه فيما يستوضحه عبد الرحمن بن معاوية الحيلة في اتقاء خطر الفهري . قال : سنستعين عليه باخوالك البربر ، يا عبد الرحمن !

وعبد الرحمن بن معاوية ليس بالعربي الخالص . فهو هجين وأمـــه راح البربرية . وتنفس عن رجاء وهو يسمع بانه على مقربة من اخواله واستنبـــأ مستبشراً : وهل تعرفهم ؟

ـ واحداً واحداً . كلهم لي خير صديق !

Twitter: @ketab_n

فابتسم عبد الرحمن وترقرقت في أساريره نضارة الابتهاج وهتف بنشوة : اذن نجونا من كيد اللئيم !

فأعلن حكمون بما بثّت الايام في روعة من عظات : نحن في طريق النجاة . واذا درى الشانىء بمطارح عزلتنا فسنجتهد في الاحتجاب عنه والتوفيق من الله !

وسار برفاقه في هاتيك البطاح المتنائية ، المخيفة في اتساعها وسكينتها ، سيراً ملتوياً يحاول به التضليل. والتفّ بعباءة غبراء بدا بها ، على شيبه الناصع ، ذئباً يطفو عليه روغان ثعلب عتيق . ولم يندم على هجرة الفهري وهو الشديد الايمان بنبوءة مسلمة بن عبد الملك استاذه ، والكاره لهذه الدولة المنبثقة من اطلال سادته البائدين . فاذا ملك الأموي يوماً بلاد الاندلس – وهو مالكها لا محالة – فلا بد ان يرفعه الى مقام مرموق يرتع منه في مجد وارف ، ومورد نهلان

وقبيلة « وانسوس » ليست في المكان القريب وبينهم وبين مقيلها يومان طويلان . وجاهد حكمون كالفتى الماضي العزيمة في شق الرمال . فلن يدركه الفهري وفي قلبه نبضة ، وفي نفسه علالة من حياة

ولم يكن الطريق الى وانسوس آمناً وقد حفّت به المكاره . فلا واحة ولا ظل . وانتشرت فيه الاسود فزادته رهبة . والخوف من العطش ومن الاسود اقلق اليهودي . فالفهري كان يجهزه بقبيل من الفرسان وبقطارة من الابل في مسيره الى الزعيم البربري . أما الآن فلا إبل ، ولا فرسان . فعليه وعلى رفاقه ان يجتازوا الصحراء على الأقدام وليس من زاد يقيمهم فتكة الجوع ، ولا ماء يرد عنهم حرقة الظمأ

وبزغت الشمس في ذلك المهمه المديد الجناحين تمعن في بسط الحقيقة العضوض . غير ان اليهودي لم يشأ الافضاء بما في نفسه وقد تبين في رفاقه ايثارهم خطر الصحراء على غدر الفهري . فكتم وساوسه وأبدى المرح . قال : سوف يعجب الأمير بحفاوة القبائل بنا ، ولا سيما القبيلة الممتدّ اليها مسيرنا . فان

Twitter: @ketab_n

زعيمها ليكره الفهري كرهه للموت الخطيف !

وحمي صدر الرمال والشمس تتأجج في لظاها . واكتوى الركب بالاشعة الحاقدة الناب . قال الفتى الأموي : أخشى أن نلقى في هذه البوادي ما لقينا في تلك . فما رأيك، يا سالم ؟

فابتسم الخادم وأجاب بعزم المستبسل في التضحية : لا محيد عن الخطو المكتوب ، أيها الأمير !

واستسلم الجميع الى القدر الغاشم على ايمان بالغد الرحيم . وشعروا بالعطش يلهب حلوقهم دون أن ترتفع لهم شكوى . ومشى في الطليعة منقذ وجابر الزنجيان . وإذا بهما يلتفتان الى رفاقهما هاتفين : أتبصرون ؟

وأشار منقذ الى الافق البعيد وهو يجلجل : هناك ، هناك !

ولاحت للعين بقعة سوداء مبهمة . فاستفهم عبد الرحمن : ماذا ترىان ؟

– قافلة من الابل، أيها الأمير !

فحدق الجميع الى اللطخة الحالكة البادية في منتهى الصحراء ذرّةً دهماء في عالم ادكن . وخشي اليهودي ان يكونوا عند مسبعة فائرة، إلا أنه كتم خشيته. وجلّ ما تلفظ به قوله : لنكن على حذر !

ولم تكن البقعة السوداء لتتحول عن مكانها . فقال حكمون في نفسه : هذه ليست مسبعة . أراها كميناً من صنع الفهري !

ولكنه لم يلبث ان خلع عنه هذا الرأي وقال : ولماذا لا تكون قافلة ضلّت الطريق ؟

وأعلن كلماته بصوت لا يخلو من الجهارة . فقال عبد الرحمن : والصواب في ما تبدي، يا حكمون !

وكلما تقدموا ثبت لهم انهم حيال قافلة منهوكة تائهة . وشدّدهم اليهودي في

Twitter: @ketab_n

هذا المعتقد مخافة ان يهونوا. وأضناهم التعب فبحثوا عن ظل يتفيأون فما اهتدوا الى سوى أعبئتهم يدفعون بها عنهم القيظ الصهور . فنصب كل منهم عباءته على عصاه واستظلها كالخيمة . الا أن أصواتاً بعيدة ، ضعيفة الوقع ، ماجت في آذانهم تستغيث : الينا ، الينا !

فنظر بعضهم الى بعض مستوضحين وقد ظهر لهم انهم حيال غاشية . قال اليهودي الشيخ : نحن تجاه قوم تميد بهم النكبة !

ووهبت لهم الحمية قوة وبأساً فانطلقوا الى القافلة المستنجدة بهم كأنهم لا يحسون بعياء . ولم يتخلف الزنجيان عن الطليعة وقد ملكا وثبة النعامة . وانطبعت في العيون الابل الجاثمة في مباركها وكأنها أخشاب سُمّرت في الأرض. قال منقذ وهو ينساب في الرمال شبه أفعى في يوم مستفحل الهجير : ألا يخطر لك في بال، يا جابر ، اننا مسوقان الى حتفنا ؟

ورانت على كلماته السخرية . فقال جابر وكان دون منقذ ذكاءً مع كونه أشد ساعداً : وكيف ، يا منقذ ؟

– ما يدريك ان الركب ليس من قوم عبد الله بن علي ؟

فشاعت في وجه جابر الكمدة وهو يسمع باسم الهاشمي الهدّام ونبر مرعوباً : دعني من هذا الويل تنخعني به ، يا منقذ . والله،لو تمثلت وجه عبد الله ابن علي في الماء لامتنعت شفتاي من نقع غلتي مع كل ما أعاني من مستكلب الظمأ . ان عبد الله لشبح الموت في سمعي وفي بصري . فما ان يعرض طيفه لي حتى أغمض عينيّ مذعوراً ، مرتعد الضمير !

فضحك منقذ عالياً وقال : يا لك من جبان . أتخشاه وبينك وبينه مسافة لا يجتازها في شهرين طويلين ؟

فأجاب بقلق : والله ، انه ليبدو لي في كل مكان . فاتوهمه في الشمس ، وفي الرمل ، وفي الهواء ، حتى في جراب الزاد وفي كسرة الخبز !

Twitter: @ketab_n

فطنّت قهقهة منقذ في الفلاة عابثة ماتعة . وأبصرهما رجال القافلة فاندفعوا اليهما يقولون : أقبلتما في الموعد . نحن من الشام وقد تهنا في هذه الرمال ، فهل لكما ان ترشدانا الى الطريق ؟

فاعترى الجمود الزنجيين وهما يسمعان ان ازاءهما ركباً شامياً . لا ريب انهما وقعا في مصيدة عبد الله . وتولاهما الخرس ووقفا ينظران الى مخاطبيهما برهبة صيّاحة . فقال رجال القافلة : ما بكما في جزع ولسنا نبغي بكما شراً ؟... كل ما ندعوكما اليه ارشادنا الى المسلك المأمون !

فتماسك منقذ وأكره نفسه على القول : واي ناحية تبغون ؟

– مقر الأمير الفهري !

– وما يدفعكم اليه ؟

فهز أحدهم رأسه وأجاب بألم حزين : كيد الايام ، يا ابن أمي . جاءنا ان في ضيافته عبد الرحمن الأموي . أما تعرف عبد الرحمن بن معاوية سليل هشام بن عبد الملك ؟

قال منقذ مستنكراً بحرص وبدهاء : لست أعرفه . فما هي حاجتكم به ؟

فتنهد الشامي وقال متحرقاً : اننا لنحمل اليه ابنة عمه زينب بنت سليمان ابن هشام . فتك الهاشميون بأبيها وبأخيها واحرجوها في عمرها ، فقامت الى ابن عمها تبحث عنه وهو يكاد يكون سندها الأوحد . انه لبقيا الدوحة الاموية المستأصلة الجذور !

ومنقذ وجابر يعرفان ما كان من زينب في ميمونة بنت عبد الله بن علي في ساعتها الأخيرة ، بل هما يلمّان بحكاية الفتاتين إلماماً وسيعاً . فاستفهم منقذ متعجباً : أتكون زينب بينكم ؟

فأجاب الشامي : ما كنا لولاها لنتكلف ارتياد الفلوات . لاجلها برحنا الشام نقتفي خطوات الأمير عبد الرحمن بن معاوية ونحن من رجال أبيها !

Twitter: @ketab_n

ولم يكن لمنقذ ولجابر ان يرتابا بما يسمعان . مـــا يعلن الشامي الا صدقاً . والتفتا الى رفاقهما المتباطئين عن المسير مخافة الاحبولة يصيحان بهم: هلموا !... الركب من الأصدقاء !

فقال الشامي : ومن تخاطبان ؟

– رفاقنا . فلا خوف عليكم منا . وقعتم فينا على البغية !

فهتف بفضفاض المرح : ومن أنتم ؟... أتكونون من رجال الفهري ؟

فأعلن منقذ : أين زينب بنت سليمان كي نبلغها من نحن ؟

وأطلّ عبد الرحمن بن معاوية يتبعه الخادمان سالم وبدر وحكون اليهودي. فصاح منقذ : هذا ركب ابنة عمك زينب ، أيها الأمير . أودى الهاشميون بابيها وبأخيها فانطلقت في اثرك تفزع اليك !

فصاح عبد الرحمن بدهش وقلق : ابنة عمي تبحث عني وقد فتك الهاشميون بأبيها وبأخيها ؟... انه لنبأ أليم . ألا اين هي ؟... كنت على يقـــين انهم لن يحلّوا في عمي الاخلاص السمين . وكم حذّرتـــه منهم فما اهتدى برأيي . أيركن المرء الى أعدائـــه ، الى من لا يرتضونه منهم وهم لا يطيقون ظله ؟... أين زينب ؟... سيروا بي اليها . ان منها في نفسي لأشياء !

ونهد الى مرآها . سيبسط عليها حنانه ويصونها من العوادي . وتعاظم إيمانه بحبها له . فلو لم تكن تهواه هوى صحيحاً لجنحت عن ركوب الفلوات اليـــه . وتذكر ميمونة وتضحيتها المثـــلى فاطلق الزفرات الحرار وجمجم : كم أزهق الهاشميون من أرواح لاهتضام حقنا . ما كنت أحسب ان في النـــاس من قدّت قلوبهم من نصال !

ومشى الى ابنة عمه كما مشت زينب اليه . وصاحت بأعلى صوتها وقد وضح لهـــا انه هو : عبد الرحمن ؟... ابن عمي ؟... زينب تعوذ بك . طوت اليك القفار كي تدعوك الى الأخذ بثأر عمك سليمان . بطش به وبابنه الهاشميون

Twitter: @ketab_n

يا عبد الرحمن لا يرعون فيها حرمـــة الولاء ، فوالهفتي على الشمم والمروءة ينهاران !

وتعالى بكاؤها فتماوجت الرمال بالولولة الشجيـــة . ووثب عبد الرحمن الى ابنة عمه يخفف عنهـــا ويجمجم : زينب ، أقلقتِ روعي بالنعي الغاشم . لعمي وابن عمي الله ينتقم لهما ممن أضاعوهما إن تهن يميني في الانتقام . ألا كم انتقـــلَ الهاشميون عواتقنا بالمحرجات، يا ابنة عمي، وقد لطخوا ايامنا بالفواجع السخان !

وعقدت في الصحراء مناحة كأن سليمان بن هشام وابنه أيوب يغوصان في دمها تحت مرمى الانظار . وأثارت زينب في عبراتها الحرقة في كل قلب فانخنت الجبـاه حزناً واستكباراً وفترت الهمم لا تسعف في حركة حتى ولا في اطلاق الانفاس على رحابة . وشوت لهبة الصحراء الرؤوس الخاشعة تحت وقع النازلة ، فتململ اليهودي الشيخ وقال بكياسة الذكي الفؤاد : رحم الله سليمان، يا زينب . كان سيد القوم . واني لاعرفه معرفتي لنفسي وعلى حبكم نشأت ، وفي أحضانكم تقلبت . أبو أيوب فارس الهيجاء ، وندب المروءة والعطاء . وأيوب يطبع على غرار أبيه في الندى والمكرمة . فالهاشميون بتقويضهم اياهما دلوا على هوان في الحمية وكفران بالجميل . الا أن عبد الرحمن سيكفيك عبء الملمة . فلتحبس عينك الرمداء دمعها ولك من التفات ابن عمك اليك خير العزاء !

فزحزحت كلماته عن الصدور بعض برحائها . واستطاعت الرئات ان تبلغ مداها . قال الفتى الأموي : اني لموقن ان عبد الله بن علي مصدر رزيئتك يا زينب . فما عرفت رجلاً يضارعه في كره الأمويين !

قالت بنبرة الموتور : انك لمصيب . أثار على أبي وأخي حفيظة أبي العباس فنقم عليهما الخدين الصفيّ وجدّ في اثرهما . ولكنه لم يدركهما إلا بعد معارك حمر نازعاه فيها الظفر . على ان الكثرة غلبت القدرة، يا عبد الرحمن. فقبض أبو العباس على عمك وابن عمك بعدما أثخنا رجاله جراحاً وصلبهما في الكوفة . وعبد الله مضرم النار . فواعجبا من حقود كالح الضمير يشرق فيـه النبل . لا تنس ان عبد الله والد ميمونة، يا عبد الرحمن !

Twitter: @ketab_n

فتأوه متحسراً على الضحايا البريئة وتمتم : ان من يعرفه ويعرف ابنتـــه لينكر ان تكون هذه من صلب ذاك . ولكن الورد والشوك يجتمعان . زينب، ما لنا ولذكرى الريحانة العطرة المقصوفة على طراوة عود . ميمونـــة شهاب علوي اطفأته ظلماً يد الغدر . عبد الله بن علي لن يهنأ في عمره. فالقاتل المفتري نصيبه القتل الوبيل !

فهتف اليهودي الشيخ : صدق الأمير العليم !

فقال عبد الرحمن : بمَ تتنبأ له ، يا حكمون ، وأنت المالك أسرار الغيب ؟

– أتنبأ له بالخزية ، أيها الأمير . سيقتله بنو أمه قتلاً عجيباً . فلن يستعينوا عليه بالسيف . ولن يسفكوا دمه . ولن يدسُّوا له السم . بل يلقى حتفه بحيلة مبتكرة تضيع فيها التبعات !

فصاح الجميع وقد تناسوا الهجير اللاذع حيال الأحاجي المكتنزة الغموض : وكيف ، كيف، يا حكمون ؟

فأعلن اليهودي الشيْخ : هذا سرّ لم يكشفه لي علم الغيب . فصبراً ، صبراً . ان الغد ليجلو الخفيّ ويحلّ العصيّ . فلكل مغلق زمن يزيح عنه النقاب الصفيق !

Twitter: @ketab_n

٤

نجا عبد الرحمن ورفاقه من حرقة الظمأ ومشقة المسير على الأقدام وفي ركب زينب الإبل الوافرة ، والقرب الملأى ، والزاد الثريّ . فتسنم ورجاله متون الرواحل بعدما ارتووا وشبعوا . ودعته ابنة عمه الى هودجهـــا اتقاءً للشمس الكاوية فقال : بل ظلّلي صديقنا حكمون. فهو منقذنا من عدو في ثياب صديق!

واستأنس اليهودي بزينب وأصغى الى روايتها فيما تقص عليه مـــا لقيت في براح الكوفة بعدما فتك الهاشميون بابيها وأخيها ، وما عانت من الأهوال في بلوغ وادي النيل وقد جاءها ان عبد الرحمن ابن عمها فرّ الى مصر يروم منهـــا المغرب . قالت : كل من سألت عن وجهة عبد الرحمن أبلغني ان المغرب هدف ابن عمي ، وان مصر طريقه الى هدفه . وليس يخفى عليّ ان الأمير الفهري من أنصارنا فقلت : « لا بد ان يكون عبد الرحمن نزل عليه ضيفاً ! » . فولينـــا وجوهنا شطر مصر ، بيد أننا خشينا أن يدري بنا جنـــد صالح بن علي فحدنا قليلاً عن الطريق . وشاءت العناية ان نلتقي في هذه الفلاة . ولولا ذاك لضلّ بعضنا عن بعض في المجاهل السحيقة . انه لحظ يجاوز المأمول !

قال اليهودي : من حسبتِه لـــكم صديقاً كاد يودي بابن عمك وقد خشي ان يزاحمه على إمارة الاندلس . واننا لهاربون من شرّه الى حيث يعصمنا الأمان!

فجلجلت بذهول : أتفرون من الفهري ؟

– هو من قضى علينا بان نغور في هذه الصحراء على وهلة ونفاد زاد !

فأطرقت ثم تمتمت بالم : الدهر محك الرجال . فالصديق من والى في العسر

Twitter: @ketab_n

لا من جامل في اليسر !

واستطلعت : وإلى أين نلجأ في فرارنا ؟

قال حكمون : الى قبيلة « وانسوس » البربري !

– أنكون فيها بأمن من الغواشي ؟

– نحن هناك في حمى منيع !

قالت بالتباك : وعلى مَ يدلك علم الغيب، أيها الشيخ ؟... أيفوز عبد الرحمن بالرجاوة الحلوة ؟

فأجاب بمهابة العالم الوقور : الفوز مكتوب ، ولا سبيل الى محو المكتوب ، يا ابنة سليمان !

على ان ما كان يقلق حكمون اليهودي ما افضى اليه الرجم بالغيب عن الرحلة . فلا بد من عقبة تعترض السبيل . فما هو مبلغ الوعورة في العرقلة المتوعدة ؟ أيصاب أحد فيها بضيم ؟

واندفع الركب الى قبيلة « وانسوس » واليهودي في تفكير . تحدثه زينب فيسمع ، إلا ان السهو يرين عليه فيبعده عن هذه الجالسة على مقربة منه النائية عنه . وإذا الإبل يعروها ارتعاش فتجفل . فماج حكمون بالرعدة وغمغم وقد اتسعت عيناه وارتخت شفتاه : هذه بوادر الكارثة !

وعلا زئير خشن ملأ الصحراء . ثلاثة من الاسود المفتوحة الاشداق تطلق الحمم أشبه ببراكين سيَّارة. فصاحت زينب وقد لمست هول الفاجعة : عبدالرحمن، هذا سيف عمك فانقذ به نفسك !

وعبد الرحمن وراءها على بعيره . فرمته بالسيف فوقع في قبضته . فانتضاه الفتى الأموي وهو يصيح بمن حوله : استعدوا لحوض المنايا !

فارتجف اليهودي كأنه يودع دنياه . ربما طوي غده . فقد هاله المنظر

Twitter: @ketab_n

الدميم . ووثب الزنجيان منقذ وجابر الى مصاولة الاسود الهائجة . والاثنان ممن بلوا الموقف الخطر وخضبوا نصالهم بدم الضراغم المستفحلة الزئير . وأبى عبد الرحمن، ويمينه تقبض على سيف عمه ، إلا ان ينهج نهجها في نضال دعا اليه. فترجل ونفر الى دفع الأذى عن الركب اللهفان . وخاف عليه الزنجيان من الخطب الهادر فصاحا به : لا يكلف الامير نفسه المشقة الناهكة ونحن نكفيه اعباءها !

فلم يرجع لجرأة فيه وصوناً لنباهته من مضغة الالسن . واقتحم الشر اللهيم لا يبالي فوران الواقعة. وإذا نصلة سيفه تغرز في لبدة الاسد السبّاق الى الغنيمة. فعلا زئير ارتعش لقصفه اديم السماء . فالطعنة اصابت الاسد إلا انها لم تصرعه ، فعاد يتحفز للوثبة ويعينه عليها الاسدان الآخران . وتطاير الشرر من اشداق الاسود الثلاثة . وشزرت الاعين المضطرمة اضطغاناً وشراسةً الفتى الاموي . وشعر الجميع بحرج الساعة فاعولت زينب : يا لعبد الرحمن !

وأيقظ صوتها الرهيف الركب الواجم وأحيا الهمم المتداعية . فهب الجميع لانقاذ الفتى من رهبة الويل . وكان الزنجيان قد وقفا بينه وبين الشر المتوعد فولغ سيفاهما في دم الاسد المشدوخ الرأس . وتعالت زأرة أطارت الرمال كالاعصار الحانق ، والتوى الاسد على نفسه هامد النبضات . ولكن الاسدين الآخرين لم ينثنيا ، بل تابعا وثبتهما يهددان الزنجيين بأنياب حداد وزئيرهما يهز الصحراء كأنه ينسف أركانها . فتخاطفتهما أسنّة الركب وقد وقفت سوراً منيعاً دون مبتغاهما . على أنهما ما كانا ليرتدّا إلا ليرجعا بعزيمة أمضى . وبدا للعبدين الأسودين أن الأمير يعرض نفسه للخطر فهالا عليه يفتديانه بروحيهما . واذا أسد تتلظى فيه النقمة ينقض على جابر فيفلق رأسه . وحاول منقذ أن يجير أخاه فمزقه الاسدان المتوهج في أنيابهما ومخالبهما الحقد الصاهر . فارتعدت القلوب . وأضحى الأمير هدف الأسدين الشرسين وهو الثابت على المحنة ، الضارب بسيفه بلا رحمة . فكل وثبة من الأسدين تجد لها منه صدمة محكمة . إلا ان العياء بدا في الامير . فارتجف ساعده ، وخاف عليه كل من

Twitter: @ketab_n

حوله . وانسابت صيحة زينب في كبد الصحراء تستغيث مرعوبة: الينا ، الينا!

واقتحمت المعركة وقد طارت نفسها شعاعاً فرقاً على عبدالرحمن ابن عمها . واذا صوت كومضة الأمل في دهمة اليأس يشقّ الفيافي على صيحة : لبّيكِ ، لبّيكِ !

فالتفت الجميع الى مصدر الصيحة ما عدا عبد الرحمن وهو يصاول الاسدين وينازعهما الغلبة . وما تخلى عنه في جهاده من حواهم الركب وقد شاطروه النازلة الحمراء . وصرخ اليهودي وقد عرف المجير الملتهم الفلوات على جواده الضامر السبوح : وانسوس ، وانسوس ، أسرع وابعد عنا الضيم الهصور !

وانتصب في الهودج على بعيره الشارد وهو يرتجف لفرط ذعره كمن تعبث به البرداء . وخندقت في وجهه صفرة الموت كأنه موقن انه سيلقى حتفه . ولوّحت يمينه بكوفيته تحثُّ الفارس المنجد على بلوغ ساحة الطعان في الموعد

وكانت نصلة عبد الرحمن قد أصابت كبد أحد الاسدين فسقت الرمال دمه . وغلى الاسد الباقي على المجزرة فانهال على النبيل الاموي بشدقين بوزت أنيابها المواضي . فهتف الجميع بوعدة : يا للامير !

وخارت قوى عبد الرحمن وأضاع الهداية . فالغضبة الهاجم بها عليه الاسد الناقم هدت حيله . واستسلم الى مشيئة القدر وقد افلتت منه الهمة . على انه أبى القاء سلاحه فمضى في المطاولة على وهن . وانصب الركب باجمعه على الاسد الشرس الوثبة، الرعّاد الزئير . وتدفقت الصرخات أبعد ارتعاشاً وأرهب اعوالاً : ادركوا الأمير !

ولكن الأسد نهش بانيابه كتف عبد الرحمن . فزعزعت النهشة الفتى الاموي فشحب لونه ونزف دمه وأُصيبت يده بخدرٍ كاد يشلّها . غير أن الفتى عاند في الالتواء . فظل يقاوم وردّ الأسد عنه وهو على شفير المهواة . فاعاد الاسد الكرة ، فانبرت له زينب تفدي ابن عمها بحياتها . الا ان عبد الرحمن سبقها الى الاسد يدفع عنها الخطر . فلم تسعفه يده في الضربة فدار على نفسه

Twitter: @ketab_n

وهوى في الرمل مضعضعاً ، فاقد الرشد . ومال عليه الأسد بانيابه وأظفاره المستطيلة يروم نهشه . وأجفل الركب على ذعر متمادي الرجفة . ورددت اصداء الصحراء الصمّ : يا لعبد الرحمن . قضي على الأمير !

وتمثله الجميع ميتاً ، ممزق الاشلاء . وإذا ضربة سيف تفلق هامة الأسد الناعم بالفوز فيتدحرج ملك القفار على مقربة من الأمير الاموي وليس في صدره قوة على تصعيد زأرة . والتفت الركب الى الضارب فاذا به الفارس المنقضّ من أعماق الصحراء كالسيل الجُراف . وهتف حكمون الشيخ بأعلى صوته وقد تبددت مخاوفه : وانسوس ، وانسوس ، لا شُلّت يمينك !

ووثب اليه من الهودج يصافحه ويضمه الى صدره ويقبله في جبينه وهو يقول : أنت منقذنا من هول الموقف ، زاد الله في قوتك وعمرك !

وكان « وانسوس » قد ترجل وهو يبتسم . وتعجب من مرأى اليهودي في الصحراء فقال مستفهماً : ما قذف بك الى هذه المفاوز ، يا حكمون ؟

فأجاب اليهودي بمداعبة وجدّ : الشوق اليك ، يا « وانسوس » !

– وكيف حال الفهري ؟

– لعنة الله عليه . أبقيته في بلاطه غريق مكره وعدوانه ، وجئتك بمن هو أسمى وأعرق . أتدري من أنقذت ، يا « وانسوس » ؟

وأشار الى عبد الرحمن العاكفة عليه زينب تضمد جراحه وترش على وجهه الماء . فقال وانسوس : ومن الرجل ؟

فأعلن حكمون : أمير أموي ، جده هشام بن عبد الملك ، وأمه راح البربرية !

– أمير أموي ؟... وما يدعوه الى اجتياز الصحراء الزاخرة بالمتالف في مثل هذا الركب الهزيل ؟... قبضة من الرجال لا تردّ شراً ولا تدفع جوراً يا صاحبي !

Twitter: @ketab_n

انه ليفرّ من غدر الفهري . لاذ به فمال الى قتله !

فعبس الفارس المغوار وأذناه تلتقطان كلمات اليهودي وغمغمت شفتاه : يا للنذل ، أيقتل المستجير بجاه ؟... انه لخسيس رذل عبد الرحمن الفهري !

فقال حكمون : أتجهله ، يا وانسوس ؟... خشي أن يزاحمه الامير على الأندلس فأضمر له الشر . على اني فضحت مكيدته وأنقذت الأمير من شره ، وتوغلنا في هذه الصحراء شاخصين الى ربعك الامين !

وانكفأ به الى الأمير المطروح في الرمال وقد وفقت زينب لانعاشه . قال : هذا هو سليل الامويين الانجاد !

وخاطب عبد الرحمن بن معاوية ، النافض عنه غيبوبته ، بقوله : هذا صاحبنا « وانسوس »، أيها الامير . شخصنا اليه فهبّ الى لقائنا كأننا واياه على موعد !

فتمايلت ابتسامة عليلة في شفتي الامير تنطق بالشكر . وهي ابتسامة تجاوب صداها في كل فم . قال وانسوس : لست أدري من قادني اليكم ، أحسن حظكم أم حسن حظي ؟ .. بعدت عن الحمى في صيد ظبي أعفر ، واذا الزئير يملأ أذنيّ . وما لبث ان اختلط بالاعوال . فوهبت الظبي لسربه وكناسه ودفعت اليكم جوادي . ويسرني ان أكون وصلت في الأوان !

فقالت زينب : انك لمنقذ كريم ، فشكراً جزيلاً !

وقال حكمون اليهودي : سنكافئك على حميتك بالنزول عليك أضيافاً . نحن بعض قبيلتك ، بيت من بيوتها الفساح !

فضحك وقال : مرحباً بالأضياف !

واستقر بينهم يحادثهم بمرح ويصغي الى حكاياتهم . فيتألم حيناً ويدهش حيناً . وأمضّه غدر الفهري فقال : هذا رجل نشأ في المكيدة ، ويعيش في المكيدة ، وسوف يموت فيها . عرفته وأردت له الموت فما صدّني عنه غير هذا اليهودي

Twitter: @ketab_n

الشيخ . كنت أسكت عن مخازيه اكراماً لهذه اللمّة البيضاء !

ولامست يده صدغ حكمون . فقال اليهودي : حسبته مع كل دناءة فيه على نضاضة من شهامة ، فاذا الوغادة تخضب منه حتى قلامة ظفره !

وجاهد عبد الرحمن بن معاوية في النطق فقال بعياء : نحن فيما نصوغ لك الشكر، يا «وانسوس»، لانقاذنا من الملمة الناخعة لا نستطيع إلا أن نبكي الزنجيين منقذاً وجابراً المطروحين اسدين رئبالين بجانب الاسود الضياغم . دفعا روحيهما ثمناً لنجاتنا . وددت لو أُصبت في عمري ورددت عنهما هذه الكارثة المنكرة !

. وآلمه النطق والتحسر فلهث وكاد يصاب بالاغماء . فقال حكمون : لنمنع عن الامير الكلام ، فالكلام يضنيه !

ودعا الرفاق الى متابعة المسير خشية ان يفاجئهم الفهري . فاندفع الركب الى ربع « وانسوس » بخطوات وئيدة ، حزينة ، تشفّ عن سكون عليل خزيان . هي فترة الوجوم تتلو العاصفة العمياء . وطال الوخد ولم يرتفع صوت بنأمة . فالجميع يستكبرون الرزيئة في الزنجيين البطلين الوفيّين وقد ابقوا بعدهم قبيلة من الليوث تتوسد الثرى . ولو ان لاخفاف الاباعر وقعاً على الرمال لتجاوب في الآذان صداه

وامتطى « وانسوس » جواده . وأقام عبد الرحمن وزينب معاً في الهودج وقد حرصت ابنة سليمان بن هشام على راحة ابن عمها . فحملت بيمينها مروحة تدفع بها عنه الهوام وتخفف من لوافح القيظ ساهرة عليه بقلبها وعينيها

وترددت في محادثته . فقد تؤلمه مبادلة الحديث . الا أنها لم تكن قلقة عليه وما بدا لها من جراحه أنها تنذر بالخطر . صرع أسدين على مرأى منها ، ولولا ان تنهك المصاولة عزمه لاردى الليث الآخر . وبلغ اعجابها به كل حد . وشكرت للمقادير سماحها بالنجدة وقد أوفدت الى الركب « وانسوس » لدرء أذى الضيغم المتلاف

وأحست بأنها ملكت الفتى . فلم يبق من يزاحمها عليه . وتناست وهي

Twitter: @ketab_n

تنظر اليه فجيعتها بابيها وأخيها . وغابت عنها نكبة الامويين . فان مرجاها الأوحد هنا ، على قيد فتر منها . وأشرقت في نفسها الآمال الصباح . فالغد لها . وانها لترضى بالفقر ، وبما دون الكفاف ، على أن يظل لها ابن عمها ، فتعيش بقربه العمر المديد

وهدهدتها الأماني ساعة طويلة وهي في غبطة لم تشعر بها قبل اليوم . وطارت أنّةٌ من عبد الرحمن فانخلع قلب زينب وصاحت جازعة : عبدالرحمن !

واستفاق فيها قلقها عليه . فهمهم بحرقة : شربة ماء !

فأنعت وقالت : لا ماء وانت مثخن جراحاً !

– أريد شربة ماء !

– ان فيها للموت الوبيل !

– هاتي شربة ماء ولتذهب عني حياتي !

فتصلبت وتجاهلت ما تسمع . أتبيعه بشربة ماء ؟... قال: ما بك تعاندين؟ فأجابت : لا ماء في الهودج !

– وعند رجال القافلة ؟

– القافلة في ظمأ !

فكادت الشتيمة تنفجر في شفتيه ، إلا انه كظم فورته في حضرة ابنة عمه . وتلظت جراحه واشتدّ به الالم، وتململ كأنه يشوى وزينب لا تجيبه الى المبتغى. قال يريد أن يلهو وأن يدفع عنه اوجاعه : وأين حكمون اليهودي ؟

فنادت حكمون . واتسع الهودج للثلاثة . قال عبد الرحمن : ألا حدثني عن الغد ، أيها القارىء في سفر المجهول . حدثني بما يلوح لك من رحلتنا المستفحلة الشكوك !

وهو مع يقينه ان الغد خادمه ، وانه بالغٌ منه أربه ، ظل يرتاب بمصيره . كيف يسود الاندلس وهو ضيف قبيلة حسيرة ، والفهري ، أمير المغرب ،

Twitter: @ketab_n

يناوئه ويبث عليه الارصاد لقتله والخلاص من شبحه المقيت ?... قال اليهودي وقد تجلت له وساوس الامير : ليكن سيدي على اطمئنان !

– أننجو ?

– النجاة يضمنها الله !

– وهذه المصائب تتقاذفنا يمنة ويسرة ولا يهدأ لنا بها حال ?

– سنظهر عليها باذن الله !

فتعجب عبد الرحمن من ايمان اليهودي بالغد ، بل خشي استخفاف هـــذا الشيخ الداهية به . وغفل عن جراحه وظمإه وهو يفكر في مصيره . وأغمض عينيه وسدّ اذنيه لئلا يرى ويسمع . ليتلاعب به دهره كيفما شاء ، فانه لمستسلم الى دهره ، على ان يصل به الى الشاطىء الآمن غـــير مهشم الرأس ، ولا محطم الاضلاع !

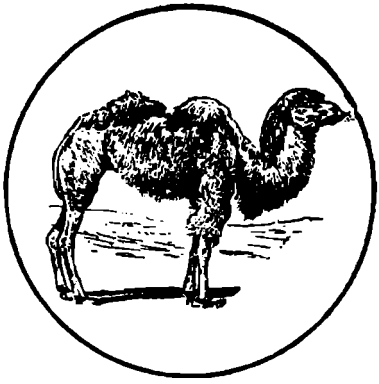

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

٥

على فتحة عين الفجر دلف الركب الى ربع « وانسوس » الزعيم البربري . وعلى باب خيمة الزعيم وقفت امرأة في الرّيق الغضّ من العمر تستطلع مثاني الافق . هي « تكفات » زوج « وانسوس » سيد القبيلة . فمنذ يوم وليلة نأى زوجها عنها في طفرة الى الصيد والقنص ولم يرجع . فقلقت وجالت في المضارب تسأل عن المتخلف عن العشيرة . وجاوزت القوم في نفر من الاتراب تنادي « وانسوس » في متناوح الرياح فلم تظفر بجواب يبرّد خاطرها الخشيان

وانكفأت الى الخيمة ومقلتاها لا تسعفانها في غمض . وضاق بها مسكن الوبر فزحفت الى العتبة تستقر بها وتفتح أذنيها لاصداء الليل . هي تحب « وانسوس » مع انها دونه سناً . تحبه لاقدامه وسخاء يده . فالبطولة والجلالة المعقودة له رايتها أعمتاها عن كهولته وهي في العشرين وهو في الخامسة والاربعين.

ولم تكن تطيق فراقه . فاذا ابتعد عن الربع ألحّت في ان تكون بجانبه . فيرتدفها على فرسه ويجوب واياها الفيافي الفساح . وفي الندورة ان ترتضي وحدة الخيمة و « وانسوس » يرحل عن الديار

وشاءت ان تكون في هذه الغيبة رفيقته الى الصيد ، فعاند . سيبتعد الى الاطراف المترامية لاقتناص الظباء . ثم هي تزعجه في صيده ، فلا تبيح له حرية السعي .. فبكت ، فاستعتبها بتقبيل شفتيها وناشدها السكوت والرضا ، فأذعنت على مضض حرون

ومسح بمنديل طرّزته له بخيوط الفضة دمعها المتزحلق على خديها

Twitter: @ketab_n

السمراوين ، الاسيلين . وطوّق خصرها وقال يناجيهـا : ألا تحب « تكفات » زوجها « وانسوس » ؟

فأجابت وهي تشرق بدمعها : ما كنت ابالي ابتعاده عني لولا حبي له !

قال يتدلل عليها : ما دمت تحبينه فأقيمي بانتظاره . هي ساعات ويعود !

وضمها اليه بنهمة . ووثب بجواده كالسهم المرنان ينتطح الصحراء . ولوّح لها من بعيد بالمنديل المزركش بالفضة وقد عقده على رأس سنانه . فوقفت بباب الخيمة تنظر اليه حتى توارى . ولما أطلّ كانت بباب الخيمة ترقب عودته وقد احمرّت عيناها وطافت بهما هالة زرقاء وذبل خداها . فأشرق جبينه وهو يراها ترقب عودته بشوق . وحثّ اليها جواده والبسمة في محياه . ودنا منها يحييهـا بصوت جهير فآلمته صفرتها . كل ما فيها يشير الى وفور جزعهـا . قال بلهجة تنتفض على استحياء : هل طال عليكِ غيابي ؟

فأجابت بنبرة نائحة جيّاشة : يا ظالم ، أتستحلُّ تعذيبي ؟

وتناهت في تعنيفه بصخب وغيظ ناعية عليه الحنـان والمودة . لقد تحجّر فيه القلب . فضحك طويلاً وهو يبصرها في نزقها ويصغي بلذة الى تنديدها به . وترجل عن جواده كالشرر وفتح لها ذراعيه مؤانساً ومزدلفاً . فألقت رأسهـا الى صدره كأنها تبحث عن وسادة هنيئة تذهب بشجوها . وانطبقت باصرتاهـا استمتاعـاً باللذة وقد انعقدت الاهداب على حبة دمع في الزاوية . قال وهو يرتوي من تقبيلها : اسمعي ، جئتك بحفنة من الضيوف اعتقدهم من كرام القوم . ويكفيك ان تعلمي ان أحدهم حفيد خليفة . فهو من الامراء الامويين . ورفيقته ابنة عمه . انها لمن نافثات الفتون . لو ابصرتها لقلتِ فيها انها افلتت من الجنة !

ففتحت عينيهـا باضطراب وهي تسمعه يحدثها عن فتون امرأة . وخشيت ان يكون سلاها حيال هذه الروعاء المتدفق بالحديث عنها . ولاحظ على مقلتيها انها اعتكرتا فقال يحاول ابعاد القلق عنهـا : أتدرين من قاد هؤلاء الضيوف الينا ؟... أراهن انك لا تدرين !

Twitter: @ketab_n

وكان قد اشتد بها الاصفرار ، وعقد لسانها ، وتولاها السهوم لفرط غيرتها . فهي على ريبة بحب زوجها لها . وهالها ان تقبل الى الربع من تسلبها هيام « وانسوس » بها وهو أغلى ما لديها . قال : جاءنا بهم حكمون اليهودي . فالأمير الفهري راعه ان يقبل الى هذه الارجاء أمير أموي ، يزاحمه على السيادة ، فأضمر الشر ونهد الى الفتك بالامير وبرفاقه . فأشفق عليهم حكمون واجتاز بهم الصحراء الينا !

فلم تجب . وأطلّ الركب فقال وانسوس : ها هم ، احسني لقاءهم !

فمالت عليهم بناظريها ولبها . ورغبت في رؤية الاميرة الهابطة من الجنة . لا ريب ان الحضارة جادت عليها بحسن تضنُّ بمثله البداوة . وخافت ان تكون انتزعت منها الاميرة الفوّارة الوسامة زوجها « وانسوس » فحقدت عليها وكرهتها قبل ان تراها . وما تمايلت زينب في الحي وشاهدتها « تكفات » من بعيد حتى ارتجف قلبها . فمن يثبت حيال هذه الوضاءة الجموح ؟

وملكها الجمود فسمّرت في الأرض كأوتاد الخيمة . ووهمت ان النعمة ذهبت عنها والغضارة جفتها . وتلفتت الى « وانسوس » ، هل يحدق الى الحسناء المالئة القبيلة نوراً ؟

واستندت الى أحد الأطناب وهي ترى . فمشى اليها « وانسوس » وقد راعه فيها الانقلاب الكاسف وهزها بشدة هاتفاً بها : أين ترحيبك بالضيوف يا « تكفات » ؟

فانتفضت وجرضت بريقها . وألقت عليه نظرات خادشة ترسخ في أعماقها السود الغيرة المستطيلة . ثم أطرقت كأنها لم تسمع . فنبر بحدة تختلج بالحض على الايناس والرحابة : من للضيفان ، يا أخت المها ؟

فأجابت وعيناها في الأرض : من دعاهم اليه يتدبرهم بحميد سعيه وكريم طبعه !

ونضنض في كلماتها الحقد العضوض . ووقف الركب بباب خيمة الزعيم

Twitter: @ketab_n

فكاد « وانسوس » يجنّ . أيدنو الاضياف من خيمتـــه دون ان يهرع اليهم من يرحب بهم من أهل الربع ؟... ولم يكن منـــه الا أن قبض على معصم « تكفات » والتفت الى الضيوف يصيح ببهجة : مرحباً بالغادين الينـــا . انتم أصحاب الحي !

وما استطاعت « تكفات » الا أن تبتسم تأدباً . على أنهـــا لا تكاد تبصر زينب بنت سليمان حتى تبلع ريقها وقد لسعت قلبها غيرتها . وحيّتهـــا زينب فردت لها التحية على غصة . قالت الاموية تخاطب وانسوس : أليس من محفة ننقل عليها عبد الرحمن، يا سيد الحمى ؟

فوافاها بمطلبها . وتحلّق أفراد القبيلة على الركب الطالع عليهم في جبين الصباح يحتفون بالاضياف ويحدقون اليهم بفضول لهـــيم . فصاح « وانسوس » بنفرٍ منهم : في الهودج جريح . دونكم هذه المحفة وانقلوه الى خيمتي !

وبدا عبد الرحمن لتكفات البربرية فوقفت منه كأنها حيـــال السحر المفاجيء . ما لهذه الوجوه الانيقة تقلق هدوء الصحراء ؟... وراعتها فتوّة الامير فهدأ فيها بلبالهـــا . من المحال ان تميل الاميرة الاموية الى « وانسوس » ويجانبها فتى كابن عمها يرفل في هذا البهاء الصيّاح

وجمدت عينـــا « تكفات » على الامير . فكأنه استهواها . وتضاءل في مودتها « وانسوس » الكهل حيال الضيف الفتيّ الوسيم . ومالت فيها الغيرة من ناحية الى ناحية . « تكفات » لا تزال تغار من زينب ، إلا انها اخذت تغار منها على عبد الرحمن وهنيئاً لها بوانسوس !

وقادتها رجلاها الى الجريح الاغرّ ترحب به بابتسامة مشرقة . قالت : بابي انت وأمي ، ما هذه الجراح في كتفيك ؟

فنظر اليهـــا مشدوهاً . من هي كي تجترىء عليه بهذه الدالّة المقحام ؟... وطرب « وانسوس » للمرح النافخ فيهـــا بعد الاكتئاب . ومال على الامير يحلو المبهم بقوله : هذه « تكفات » زوجتي ، يا عبد الرحمن !

Twitter: @ketab_n

فأطال اليها عيد الرحمن النظر والبسمة الرضيّة تحوم على فمه ، وقال برفق : هذا نصيبنا من الفلوات . هاجمتنا الاسود فمزقتنا . ولولا زوجك الاروع لكنا طعماً لها !

فأعلن « وانسوس » بحيـاء من ينقل كتفيه المديح : أيتجاهل الامير اقدامه وقد هشم بسيفه اسدين فتّاكين ؟

فاستدارت عينا « تكفات » اكباراً . أيبطش رجل فرد باسدين معاً ؟... قال عبد الرحمن يلقي عنه جانباً من الثنـاء : لم افتك بها وحدي وقد ظاهرني عليها اخواني . وكان لزوجك الفضل الاسنى وهو من سدد ضربة الاجهاز !

فقالت « تكفات » وقد اشفقت عليه في اوجاعه : أيتألم مولاي الامير ؟

فأجاب برقة حبته اياها الفطرة : مرآكم بدّد عني الآلام !

— أأجيئك باللبن تبرّد به لهبة حلقك ؟

فصاح « وانسوس » بطلاقة المضياف : هاتي كل ما عندك من افاويق !

فسمعت وأبت ان تسمع . ليست تجهل ما ستحمل الى الضيف القسيم ، فما لوانسوس يفرض مشيئته ؟... واختلج فيها روح العصيان . لن تطيع هـذا الزوج المنطلق وحده الى الصيد والهائم بالنبيلة الفاتنة . أما درى ان كهولته هانت لديها حيـال الضيف الطليل ؟... وتعمدت الكشف عن نقائصه واحدة واحدة لتقيم منه على نفار ومقت . انها لتنضوه عنها كالرداء الخَلِق

وحبت الى الاهراء تصطفي منها الطيبات وتهرع بها على طبق من فضة الى الامـير النضر العود . وجثمت على مقربة منه تلقمه اشهى مأكل . فأفاض بالشكران . وأقامت زينب عند رأسه تشاطره اعجـابه بوانسوس وبتكفات الزوجة الرحبة الصدر وبالقبيلة المسماح . فتضايقت « تكفات » من ثناء زينب وودت لو حبست الدخيلة مقولها بين فكيها . وأزمعت ألا تكترث لهذه الدمية الساطعة اللألاء انتقاماً منها لحسنها ولهيامها بالأمير الصبيح

وشعرت زينب بالزحام يدب دبيبه وتجاهلت . لن يعرض عنها عبدالرحمن

Twitter: @ketab_n

لاجل بربرية وان تكن أمه من البربر . على ان « تكفات » ، مع اعجابها بالامير ، تعجبت من نفسها في حبها الطريف . وشاءت الوقوف عن الهيام بمن لا ترجو بقاءه على ودها ولا استبقاءه . وتقهقرت عفواً في وثبتها البعيدة الشأو وحاولت ان تخاطب زينب بكلمات عذبة ، هانئة ، فما آتاها المنطق الجذل

وغاظها ان تسلو زوجها وهو قائدها الاول الى الحب ومضرم بواكير احساسها . فما خفق قلبها لسواه منذ تفتقت فيها لذاذة النشوة . واعتزمت ان ترسخ في هواه فتحامت الجلوس الى عبد الرحمن . وانقضت على الفتى الاموي ايام رحاب و « تكفات » لا تبدو بين يديه وقد خشيت الاحتراق بناره . فهالها هذا الحب العجلان . أيكون الهيام نظرة ؟... لم تكن هذه حالها ازاء « وانسوس » . فتعب زعيم القبيلة في استدراجها اليه على بأسه ووضيء شأنه . فما احبته إلا بعد تردد واحجام طويلين . أما النبيل الأموي الفتى فما كاد يلوح لها حتى خنعت حياله كأنها تشعر للمرة الاولى بضرم الجوى . على انها ستتقي الغاشية بما تملك من وسع . ومضت في الانحباس عن الفتى الوسيم . لن تراه كي تبعد عنها خياله وان يكن هذا الخيال يستطيل في قلبها وعينيها . وكلما طلع عليها الصباح دلفت الى خيام القبيلة تحادث اترابها دون ان تعرّج على خيمة عبد الرحمن . وعتبت في ضميرها على زوجها لايوائه هؤلاء الضيوف السحرة ، الطغاة

ومع قعودها منذ ما استقرت بعصمة « وانسوس » عن ارتياد الواحة الدنيّة من الربع كانت تحمل القربة الى عين الماء النابعة في صدر الخميلة ولا تعود احياناً الى المضارب إلا وقد غارت الشمس في الشفق . فتذيب نهارها في الابتراد بالماء النمير ، أو في اقتطاف الثمار عن امها ، أو في الاصغاء الى حكايات القبيلة تقصها عليها رفيقاتها . وكلما غشي طيف عبد الرحمن خاطرها تحدثت عن رجولة « وانسوس » ودعت لداتها الى الرقص والغناء كي تنسى . وهي نفسها كانت تلوذ ، لاجل النسيان ، بالغناء الشجي

وشاع في مبسمها الرضا . ناضلت وظفرت . لن يملكها حب غريب فيقلقها

Twitter: @ketab_n

في ضجعتها ويشوّه عليها الهناءة . وتململ « وانسوس » من احتجابها عن اضيافه فطار اليها يندد بها وهي تستظل نخيل الواحة الوقور . قال متأففاً : أيقيم الناس في ربعنا وانت دائبة في لهوك الغبيّ ؟

فقهقهت ملياً . ونطقت عيناها بكلام لم يدركه الزوج البريء النية وقد قالت له فيه : ولكني ألهو كي أثبت في حبك أيها الغافل عن نزوات القلوب !

فقال بامتعاض وقد أوجعته ضحكتها : هلا نهضتِ ؟... كلهم يسأل عنك !

فأبت ببرودة مرحة : ما لي ولهم . لست أدري ما أخاطبهم به . أنت أعلم مني بمساقطتهم الحديث !

وقالت هازلة جادة : ولا تنس الرفق بزينب . أراك بها على هيام وثيق !

فاستدل من كلماتها ان الغيرة تقصيها عن الربع وقد تراءى لها أن زوجها سلاها مشغوفاً بزينب بنت سليمان . وهذا الاعتقاد اطلق فيه الضحك . فدنا منها يمسك بذراعها ويقول بغبطة مستفيضة : انهضي . ان للترهات من خيالك المرتع الخصيب . زينب تهوى ابن عمها الامير الاموي . فاجتازت القفار وتعرضت للمكاره للاهتداء اليه . ولن تميل عنه مخدوعة بابتسامة خالبة ازفها اليها . حسبكِ ان تعلمي اني أعرضت عن نساء القبيلة باجمعهن في سبيلك . انهضي . كلنا يرقب طلعتكِ !

فكادت تصارحه بما يحملها على هجر الربع . فهي تخاف منها عليه وعبد الرحمن وقع من نفسها . غير انها اكتفت بالقول : دعني هنا . انا في هذه الواحة قريرة الجأش !

فشدّ بها اليه وهو يقول بنبرة تترجح بين الشدة واللين : بل أريدك على اللحاق بي . غيبتك تبعث على سوء الظن !

فلم تقوَ على الممانعة وهي بين ساعدين مفتولين . وصممت على مناهضة حبها للامير وعلى مخاطبة زينب بمودة وبشر . فلماذا تغار من الاموية وليس لها في

Twitter: @ketab_n

عبد الرحمن رجاء ؟... وشعرت بذراعي « وانسوس » تطوّقانهـــا وبانفاسه تسكب فيها الدفء ، فالتصقت به ورغبت في أن تستعيد هوى الامس الغضير. فلماذا الضياع في ابتغاء السراب العقيم ؟

وبلغت مضارب القبيـــلة وهي تختلج بحب « وانسوس » . ودخلت مثوى عبد الرحمن تبتسم للفتى ابتسامة هادئة تشفُّ عن استئناس الصديق بالصديق . ومالت على زينب بقبلة صافية . فهي ترحب بضيوف اصدقـــاء . وصافحت حكمون والبشاشة تخضب طلعتها . وقضت نهارهـــا في صفاء طروب . نسيت جائحة الهوى الارعن وقهرت فيهـــا الميل الجديب . وقامت وزينب يجولة في الخيام وقد شاقها ان تضمحل فيها آثار الغيرة الضروس

ولكنها ما آوت الى مضجعها ، لقضاء ليلتها ، حتى دهمها ما حسبت نفسها بنجوة منه . فالحب الغافي في حناياها استيقظ بشدة لم تكن تعرفهـــا فيه . فانغمست في شجو أليم وطغى عليها دمعها . أي نكبة حمل اليها « وانسوس » بهؤلاء الأضياف المحرجين :

وراعها ان تتعذب . فما تجنت ولا جنت كي تلقى هذه المحنـــة الاكول . وأصغى اليها « وانسوس » في وحشة الليل فسمعها تئن . فجنح اليهـــا يقول مؤاسياً : تكفات ، ما بك تنتحبين ، هل تولاك حلم كئيب :

فمسحت دمعها بيديها ورفعت عنها الغطاء وهي تقول بصوت جازع بكيّ : ليس بي شيء يا صديقي ، فامضِ في رقدتك . أنت بحاجة الى الراحة ، فـــلا تزعج نفسك بما لا يبعث على اللبكة والجهد !

ولكنه أثار السراج وأدناه منها قائلاً بعطف يرشح بالألم : لماذا الكتمان يا تكفات ، عينـــاك الحمراوان تفضحانكِ ، فما بك ؟... ألا تزالين تغارين من زينب بنت سليمان ؟

فاجتهدت في الابتسام وقالت وهي تحـــاول الخلاص من اسئلته المضة : لا ، لا !

Twitter: @ketab_n

– اذن ما بكِ ؟

– لا شيء ، لا شيء !

– علامَ اذن البكاء ، هداك الله ؟

– لست أبكي . أترى في عينيّ بلّة دمع ؟

فارتمى بجانبها وألقى رأسها الى زنده وعانقها وهو يقول مستدرجاً اياها الى مطمئن الافصاح : لا يرضى « وانسوس » ان تتألم « تكفات » . فان تكن تبغي منه حاجة فلن يتردد في قضائها . لو طلبتْ جبهة الاسد لجئت بها اليها في قبسة العجلان !

فلامست عنقه وطبعت شفتيها على خده وقالت تبدد وساوسه : تكفات لا تطمع في نعيم ارحب مما أعدّ لها « وانسوس » . فقد حباها ما اخرس فيها كل شهوة مطماع . وانها لتحبه وترجو المضي في شغفها به غير متوانية ولا سؤوم !

وسكتا معاً يلفّهما التفكير الشجيّ . « وانسوس » يحسبها على غيرة من الاموية وهي على غيرة منها ، ولكن على عبد الرحمن بن معاوية . فالواقع ندّ عن الزعيم البربري . واذا « تكفات » تقول : وإلى متى سيبقى بيننا الضيوف؟

فزادته بسؤالها يقيناً انها تغار من زينب . قال : سيبقون ريثما يشفى الامير . أيروقك ان نحثهم على الرحيل ؟

فتمطّت في جوابها : لا ... لا ... ليبقوا ما شاؤوا !

فقال وقد لمس في بيانها الرضا المتظلم ، المقهور : بل انتِ تريدين ان يرحلوا وسيرحلون . سأدعو حكمون اليهودي الى ابلاغهم اننا بتنا لا نطيق !

وتحرك كمن يتحفز للانجاز . فأمسكت به وقالت بجدة : الى أين ؟

فجلجل بنفاد صبر : الى حكمون !

– وماذا يقول العرب في البربر وانت تقصي اضيافك عنك ؟

Twitter: @ketab_n

– ليقولوا ما يروقهم ان يصموني به من لوثة . فما دام هؤلاء اللاجئون اليّ يقلقونك في سكينة لبّك فليس لهم في اكنافي مقيل !

فأعلنت تأبى عليه الخروج عن المبرّة : ليس يقلقني احد . أنا بخير ما دمت تجود عليّ بقلبك وتغمرني بحبك النصيح !

فجهر ببيان عهد وميثاق ايمـــان: ولكني لك بروحي ونعيمي. فاللذة انهلها من فواتنك ولا مطمع يقصيني عنك . على ان تكفكفي دمعك وتكفري بالظنة المبطنة بالاثم !

فعمدت الى الكذب تستر به فضيحتها . قالت : أيشوقك ان تعـــلم لماذا أبـكي ؟

– بلا ريب ،يا نجيّة روحي !

– آلمني ألا أُرزق ولداً يرث من بعدك هذا المجد الرويّ !

فعلت ضحكته قاصفة مدوّية وقال: أيؤلمك هـــذا الحرمان ؟... ستقرّين عيناً . فالامر جد يسير !

وجذبها اليه بضلاعة. فودّت لو طحن عظامهـــا لتشعر به شأنها في مستهل حبها ، بل شأنها قبل أن يعرّج على القبيلة هؤلاء الضيفان ويعكروا المـــاء الرسيل . الا أن طيف عبد الرحمن كان يرف في عينيها ، فيبعد بينها وبـــين « وانـوس » بعداً طروحاً يغيب به زوجها عنها ، مع أنها منه على عنـــاق مستحكم ، والتصاق صليب

Twitter: @ketab_n

٦

« تكفات » لا تدري لمن تشكو داءها . فهي خرساء . تحمل لوعتهـــا في صدرها ولا تجرؤ على بثها . ومن تعالن انهـا تهوى عبد الرحمن بن معاوية ؟... أتذيع سرها في سمع القبيلة وجميع من في القبيلة عيون عليها ؟

ودرجت الى حكمون اليهودي تحدثه عن الامير . حديثـه أو حديثٌ عنه يطربها . فأفضى اليها حكمون بكل ما عنده . وما تورّع عن اطلاعهـــا على ميول الفتى الاموي . كان يهوى ميمونـــة بنت عبد الله بن علي ، وإذا الموقف يدعو ميمونة الى اذابة روحها فدى الامير . فأقدمت على التضحية ووكلت أمر الفتى الى ابنة عمه زينب . وزينب تهـــيم بعبد الرحمن . ولكن الفتى ... ووقف حكمون عن الايضاح . فصاحت البربريـــة بجامح الفضول : ماذا، يا حكمون ؟... أيخونك الافصاح ؟... ألا انطق بما تحبس في حوانيك !

فدنت شفتاه من أذنها بحذر كأنه يخشى أن يتهادى مقاله الى سواها وهمس بصوت يرتعش فيكاد يمحى : ابلغني سالم ان عبد الرحمن لم يكن يميل اليها . أمـا الآن ... فلست أدري !

ونفض طوقه وانصرف يزوّي ما بين عينيه كأنه اقلقه الافضاء بسر مصون. ونأى عن « تكفات » مخافة التمادي في البوح وفي التمادي العثرة . غير ان البربرية أدركت الفحوى اللباب وانتعش فيها الأمل المريض . زينب على شغف بابن عمها ، أما هو فلا ينطوي لها من الهيام على سُقاطة . واطرب هـــذا الجهر بالمكنون ابنة الصحراء . فما دام عبد الرحمن لا يدين بحب زينب فلمـــاذا تخفي

Twitter: @ketab_n

« تكفات » عنه افتتانها ؟... ربما مال اليها قلبه وقد أمسى بعد فجيعته بمن أحب ذلك الخليّ

واستفحلت فيها شهواتها بعد ركود . ستستأثر بحب الفتى . هذا الامساك عن الأمير أعياها وقد تضاءلت دونه عزيمتها . فهي من عبد الرحمن على شغف أغلف لا تقوى فيه على تدويخ . باطلا تجاهد في التحرر من منازعها . واهتزت بها قدماها الى خيمة الأمير وقد طال انقطاعها عنها . فابتسم عبد الرحمن وهي تعرض له بسمرتها اللدنة وقال مداعباً : بتّ لا أدري من الضيف على الربع ، يا تكفات ، أنحن أم أنتِ ؟

فأجابت ببشر طليق : أنت رب الدار ، يا مولاي الأمير !

فاستوضح برفق خميل : هل تبرّمتِ بنا فكرهت الجلوس الينا ؟... اننا لنراكِ منا على قطيعة ودأبك النأي عن الحمى منذ حللنا فيه !

فاتقدت باصرتاها باشعة وارفة من الجذل استضاء بها محياها . فان منها في نفس الامير شيئاً ما دام يلفته هجرانها الحيّ . قالت والبهجة المبسام تبسط شفتيها وتزمّ حدقتيها : عفواً، يا مولاي . ما انصرفت عن الحمى الا ضناً مني براحتكم . فقد خشيت ان تزعجكم خطراتي . انت في جراحك بحاجة الى السكون !

— وبحاجة الى حديثك العذب ، يا تكفات ، والى حنوّك الجمّ !

فكأنه صبّ في دمها النار . فارتجفت ركبتاها ويداها ورقصت حنجرتها . وما تراءى لها في ما تفوّه به مجاملة ، بل حب صفيّ . قالت وقد ماعت كالمعدن السائل صهره الضرام : مولاي الامير يشوقه المزاح ، أيحفل بمثلي والى قربه زينب المعطار الانوس ؟

وتكلمت فيها غيرتها . بل شاءت ان تجس نبض الامير لتستجلي مقامها منه . أيعدلها بزينب ابنة عمه ؟... فكان الجواب : انت وزينب في مقام واحد عندي يا تكفات !

Twitter: @ketab_n

فغمرتها موجة من نشوة أمالتها عن صوابها ، ولم يبق لديها ريب ان الامير يهواها . ونظرت اليه بعينين يندلع منهما الحب السبوح وما استطاعت النطق . فهي تحترق . ورمقتها زينب في غشيانها فخافت منها على نفسها . ففي ما اسمعها اياه عبد الرحمن ما يحيي في صدرها الأمل الفسيح . فهـــل نُشرت ميمونة بنت عبد الله في « تكفات » البربريـــة ؟... أتظل تقع زينب على من يزاحمها في منيف رجاوتها ؟

ومع كل ألم سطا عليها وقف بها نبل الطبع عن مباحثة ابن عمها في ما اشعل من لظى . قد يكون عبد الرحمن بريئاً في مجاملته . فما لحقت به زينب الى كبد الصحراء لتحاسبه في كلمة ونظرة ، حتى ولا في هوى طريف . فاذا ران عليه وجد طارىء فانها لتستعذب التضحية ، والتضحية في الحب منتهى الولوع

وانسابت « تكفات » الى فراشها ، وقد اعتكر الليل ، تتمايـــل على منى بواسم . وتغلغلت بين الفراش والغطاء تحاول ان تضيع عما حولها . وناداهـــا « وانسوس » ودفع عنها اللحاف وهزها فتظاهرت بانها غارقة في رقدتهـــا . فجذبها اليه بشدة فصاحت بغضب : دعني ، دعني . ان تكن تستطيب السهر ففي سواك حاجة الى النوم !

وعادت تنشر الغطاء عليها . فقال وانسوس : انهضي ، جئتك بما يرضيكِ !

ولمع في يده عقد جميل الصياغة . ورفعها اليه كي يطوّق جيدهـــا بالقلادة النفيسة . فتأففت ونبرت : ألا تصبر حتى الصباح ؟

واستهانت بالعقد وهي تنغمس في ما هو أروع وأشهى . فقال « وانسوس » وقد استلذ احراجها : هذا عقد من اللؤلؤ لم يشرق نظيره في الربع . حمله إليّ رجالي من الشاطىء في غزوة موفقة . ويسرّني أن أزين به الساعة عنقك !

فهتفت متبرّمة بسلخها من رؤاها : بل دعني الى غد !

ـــ محال !

Twitter: @ketab_n

وامسك بها ولفّ بالعقد جيدها وهو يقهقه ضاحكاً لممانعتهـــا . وصاح يطرب : ما أجملكِ فيه . انك لآية من نضارة !

وقبلها في فمها الالمى وهي تشدد في الانفلات منه كي تعود الى ضجعتهـــا . وما اسمعته كلمة شكر وقد ظلت حياله على برطمتها . وتهاوت في فراشهـــا والامير الاموي في قلبها وبصرها . ومضى « وانسوس » في ضحكته راضياً مسروراً وفي ظنه انه أرضى امرأته فيما يحرجها في غفوتها وقد زان بالعقـــد نحرها . وما هذا الجفاء فيها غير حباب سريع الانطفاء مبعثه فرط الدلال

ولم تم « تكفات » . فالجمرة الملتهبة تفاقم سعيرها . وطال عليها الليـــل . فنهضت مراراً من فراشها النابي بها لتستلقي الى ديوان في الخيمة . بـــل هي لم تكن تغفو حتى على الديوان ، فتنقلب عنه كأنها تضطجع على شوك ومسمار

وتضيق بها الخيمة فتنطلق منها الى العراء لتستوضح الليـــل متى يأذن في الاحتجاب. وأضناها أن يقيم عبد الرحمن على خطوة منها وليس لها اليه سبيل. وودت لو تنام كي تنجو من الارق ، من حرقة السهاد . فما ظفرت بامنيتها إلا والفجر يسيل على نثير الرمال . سمرةٌ تلتوي على سمرة . ولم تستيقـــظ الا والشمس تختال في رحيب الاجواء

والتهبت فوراً بحبها المجتاح وهي تنضو عنها غفوتها . فقامت الى الحنّـــاء تخضب بها يديها . ورجّلت شعرها . واكتحلت بالاثمد . وتبرجت مثلهـــا في يوم عرسها . ومشت الى خيمة عبد الرحمن وفي جيدها عقد اللؤلؤ هديـــة « وانسوس » اليها ، وفي يمناها قارورة من العطر ، وعلى يسراهـــا طبقٌ من الافاويه . وبدت بباب الخيمة مرنحة الاعطاف ، خضلة البشاشة . وأفاضت بتحية عذبة : السلام على الامير !

وألقت بين يديه الطبق وهي تقول ببسمتها الخفيّة : هذا بعض ما وقعت عليه في خيمتي من خير سيدي ، انه لقليل في قدر الامير الكريم !

فأعلن الامير ببهجة غلاّبة : اسرفت ،يا تكفات . هذه الاريحيـــة من شيم

Twitter: @ketab_n

قبيلتكم المعطاء !

فالتفتت البربرية الى زينب تهدي الى ابنـــة سليمان بن هشام قارورة العطر قائلة : هي لك ، يا زينة الربع تتعطرين بها ، وقد فاتتك في الصحراء الجافـــة طراوة المدينة ، ونأى عنك ما تعوّدت من رخاء ثريّ !

فشكرت زينب للبربرية السمحة هديتها . وتوسدت « تكفات » البساط على خطوة من عبد الرحمن كأن الامير بات لها ، وكأنها تحميه من كل من يحاول اقتطاعه منها . ومالت الى بثّ هواها الطفحان . فالسر يجب أن يعلن وقـــد بات يهدد بالانفجار . غير أن زينب لم تكن تبرح الخيمة كأنها شعرت بما ينتفض في صدر البربرية من مقال لجوج نشوان . فما اخمدت ظنونهـــا قارورة العطر وقصد « تكفات » من الهدية ان تنيم في الاموية الحذر والارتياب

وبدا « وانسوس » يجرّ وراءه غنائم صيد حظيظ ، فرحبت بـــه القبيلة بالأهازيج شأنها كلمـــا عاد من نضال منصور . وغرّ المشهد زينب فدرجت اليه يصحبها حكمون . وتنفست « تكفات » والجو يخلو لهـــا وسددت الى الامير عينين تفضحان ميولهـــا الفائرة . وأدرك عبد الرحمن ما بها فقال بابتسامة الاستدراج الخالبة : إيه يا تكفات ، ما عندكِ ؟... هاتي !

هذه نهزة التبيان . عبد الرحمن مهد عفواً للبربرية الى مشتهاهـــا . قالت وهي تترجّح من الهوى على فيض تعلّة : لست اعلم ما صنعت بي ، أيها الامير . نفثت في عروقي ما يثلج صدرك ويكويني !

وتمطى فيها دمعها فأخفت وجهها بيديها وغارت في بكاء ملتاع . فصـــاح بها عبد الرحمن وقد آلمته حسرتهـــا : تكفات ، أتتوجعين ؟... ما بك ؟... بابي انت وامي !

فاجابت وهي لا ترفع اليه بصرها ولا تنقطع عن بكائها والدمع امضى سلاح في اقرار الغلبة : دع « تكفات » في حرقتها . ليت عينها لم تقع عليك !

Twitter: @ketab_n

فزادت في شجوه . قال ببرير لهفة : أيضيمك ان اقيم في هـذا الربع يا تكفات ؟

وأمسك بذراعها يجذبها اليه مع ما به من وهن وهو يقول : انظري اليَّ . لا تحجبي عني عينيك ، بي شوقٌ الى رؤية مرتع الدرّ !

فانقادت الى حيث تجرّهـا يمينه . ورفعت اليه ناظرين غرقا في ناظريه . وامتزجت انفاسها بانفاسه . قال : لا تبكي . اني لشاعر بما يضنيك . واني لاتألم كما تتألمين وأنا من هذا الحسن الانيق على فتون ، ومن هـذه الفتوّة الريّا على شغف ، إلا اني مقيّد بوثاق لا أقوى على فكّه عن ساعديَّ !

وتنهد . اما هي فأشرق وجهها وجمد دمعها . فقد أحياها بما ألقى في سمعها من الندى القرير . وانتفى عنها الترح وصالت فيهـا الغبطة . قالت وهي تكاد تكون في غيبوبة عن نفسها لفرط المسرّة : أصحيح ان الامير يهواني ؟... أيصبو سليل المجد الى ابنة الرغام ؟

فودَّ لو تريَّث في اعلان ما بنفسه ، إلا ان البربرية لم تفسح له المجال . قال : أهواكِ ، يا تكفات . فلماذا انكار ما تنبض به المهجة ،بيد اني لا استطيع ال... بهواي وأنت في عصمة رجل أنا ضيف عليه ، بل أنا مدين له بالحياة . فاذا كنتِ على صدق في هيامك بي فاخنقي الحب النامي ظلمـاً في ضلوعك وكوني مني في موقف المضحي النبيل !

فراعتها قسوته مع ايمانها بضرورتهـا . وتولتها الجهمة بعد الصفاء . فالولـه المتقد فيها مقضيٌّ عليه . ونظر اليها الاموي باسف واشفاق . انه لعاجز كليل . فالوفاء يفرض عليه الترفع ومن الخسة ان ينتهك حرمة المنقذ والمضيف

ونهضت « تكفات » دون ان تتفوّه بكلمة ، بل دون ان تلتفت الى الامير . فسألها عبد الرحمن والحزن يسدل على صوته غشاوة من بحّة : الى أين ؟

فلم تجب . فشاء ان يلحق بها فخذلته همته وهوى في فراشه بعياء . وأطل « وانسوس » يحيّيه ووراءه معظم افراد القبيلة . فأكره عبد الرحمن نفسه على

Twitter: @ketab_n

ابداء الحبور وقال : وعليك السلام ، يا «وانسوس» ورحمة الله . ارى التوفيق حليفك في قنصك . عوفيت !

فطرح « وانسوس » بين يدي الفتى الاموي ظبيين وعدة عقبان وهو يقول : انه لتوفيق وثّاب . ذكرت الامير في جولتي السريعة فحظيت بما لم اكن ارجو . بارك الله في من حملوا الينا السعد وما نحن من اهله ولا من مستحقيه !

وتلفت « وانسوس » كمن يبحث عن مفقود . واذا به يستوضح بصوت جهير : ولكن أين « تكفات » !

ولم تكن في الحشد . وسؤال زوجها عنها دعا الجميع الى الاهتمام بامرها . وعادت العبسة الكالحة تتلبد في أسارير عبد الرحمن . الى اين انتهى الجزع بالبربرية الحسناء ؟

ووثب « وانسوس » الى خيمتها فلم تكن فيها . قال : قد تكون في الواحة . لها الله من عنود حرون !

واعتلى جواده يقفز به إلى واحة النخيل . فخلا المكان من « تكفات » . و « تكفات » حيث لا تدري . فقد جرّتها قدماها الى كثيب من الرمل ، بعيد عن مضارب القبيلة ، تبكي حبها الذبيح فور حبوته الى النور ، وتتشهى ان يكون نصيبها من دنياها ضجعةً في حفرة ، يحجبها فيها كفنٌ من تراب ، وأبدٌ من ظلام !

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

٧

قلبان طال عليهما الليل فما ركنا الى غفوة. قلب عبدالرحمن وقلب «تكفات» فالشاب الاموي أُصيب في كبده وقد أيقن ان البربريـة المحترقة بهواه هجرت الحي في سبيله ، وزاد في تفجعه انه لا يقوى على النهوض للبحث عنهـا ، ولا يطيعه حلقه في مسايرة جواه

ثم ان يحانبه ابنة عمه وهو لها . فان لحاقها به على طول الفسحة ، وهول المشقة ، أوثقه بها . وميمونة اطلقت انفاسها وهي توصيه خيراً بزينب . وانه ليأبى العبث بمشيئة ميمونة

وغاظه أن يكون نشر الأمل في صدر « تكفات » وهو يجيبها الى نظراتها الهائمة بنظرات نديّة دلّهتها . انه ليميل اليها وفي نضارتها مواكب صبابات ، ولكن ليس الى حد سلخها عن زوجها المفضال

وتململ في رقدته ، وشاء ان يعرف الى اين لجـأت « تكفات » . ولو عرف مقرها لزحف اليها يعود بها الى الربع مع كل ما ينتابه من خور وسقام . وينادي في الفينة بعـد الفينة خادمه سالماً ويسأله هـل اهتدت القبيلة الى امرأة زعيمها الشرود ؟

والقبيلة باسرها انطلقت الى البحث عن « تكفات » وما كلفها « وانسوس » هذا الجهد . ولكن اخلاصها لزعيمها دفعهـا الى انتضاء مروءتها . فأقامت الليل بطوله تجوبُ المفارز ولا تهتدي . وطلع عليهـا الصباح وهي لا تبرح تخبط في ليل . فخلت الرمـال من كل اثر للهاربة كأن « تكفات » طارت بجناحين من ضباب

Twitter: @ketab_n

وظل « وانسوس » على معتقده ان « تكفات » تغـــار من زينب . فقال حانقاً : عفا الله عن حكمون اليهودي ، رمـاني ببلية لست ادري كيف انجو منها . كنت في اسعد عيش ، فاذا بي في انكد حال !

وأطلق جواده مرخيّ العنان يجري على هواه . وجالت باصرتاه في كل ناحية من ذلك الفضاء النائي الاطراف والمضض يغلي في صدره ويتنزّى زفرات . ان « وانسوس » ليتقد شوقاً الى هذه السمراء الهاجرة وقد اعرض لاجلهـا عن جميع النساء

وشخص بلفتة متوترة ، جانقة ، الى البطاح المترامية عن يمينه ، فلاحت له في كبدها وشمة سوداء كبقيا كدرة تتلاشى في الضمير التائب الحي . فحثّ اليها جواده يحدوه املٌ رثّ . غير انه كلما دنا منها انتعشت في قلبه الواعي فضالات الرجاء . هذه « تكفات » تضاجع الرمال

ولكن ما بها لا تتحرك ؟... وقذف بجواده اليهـــا على خوف وطرب . وناداهـا باعلى صوته : تكفات ، تكفات ، هوذا « وانسوس » يقبل اليكِ ، فهلا فتحت له الذراعين ؟

وقبل ان يتسع الأوان للجواب وقف الجواد بفـــارسه عند الجثمان الملحّ في معانقة مثواه . ووثب اليه الفارس ورفعه بين يديه وهو يتطـاير في عاصفة من الابتهاج والتأنيب : تكفات ، اي جنون نفخ فيكِ الحرد فاقصاكِ عني الى هذا المدى السحيق ؟ انك لحمقـاء ، أتؤذين نفسك وتقلقين عيشك وليس للقلق والاذى مجال ؟

وما رقب منها بياناً . فهو لا يبغي الا ان يجدها على رمق . وألقى بهـا على متن جواده ينكفىء بها الى الحي وصيحاته في اعوانه تجوب المفارز كالاعصار : عودوا الى الربع . « وانسوس » و « تكفات » يرجعان اليه معاً !

ولم يخاطب « تكفات » الا وقد اطمأن الى وقوع ندائه في مسامع رجاله . فرنا عند ذاك الى امرأته الناشز وهو يعلن بموجة من امتعاض: لا اراك مذ حلّ

Twitter: @ketab_n

الأمير بيننا على سوى رجرجة مقطاع . فلا تهدأ في الحيّ قدماكِ . هذه مصيبة نفحنا بها حكمون اليهودي . والله لاكرهنه الليلة ورهطه على الوداع . نزولهم بيننا كان ضربة علينا . فما عرفت قبل اليوم الى جانبك الكدر ، ولا خطرتِ أمامي متألمة حيرى !

فلزمت الصمت كأنها في غفوة . قال : أريد أن أعلم ما يشجيك . فما بكِ تكتمين عني آلامك ؟... ألا يجوز أن توضحي لي امرك كي انقذك من اثقالكِ ؟

فلم تكن تسمع . وربما لم تكن تشعر بانها بين يديه . فهي في غفلة عما يحدثها به . انها لتفكر في هذا الحب الراسي في اعماقها وترغب في انتزاعه وليست توفق لمسعاها . فالتيار امضى ساعداً منها

وطرقت صيحات « وانسوس » آذان رجاله الباحثين عن « تكفات » فحاموا عليه يشاطرونه المسرة . وانتظموا في موكب بهيج عائدين الى القبيلة على هزج ممراع . وسمعهم عبدالرحمن في حدائهم فترنح بلذة البشرى . عادت « تكفات » الى مضارب القبيلة سليمة من المضرة . غير انه رهب هذه العودة مع صبوته اليها . وودّ لو لم يعرّج على هذا الربع وقد أقلق ظهوره فيه القلوب المطمئنة . واوفد زينب ابنة عمه تستوضح أمر « تكفات » وتؤانسها . وبدا من البربرية جمود مخوف . فقال من رآها : مجنونة !

الا انه جنون عاقل يرين عليه الهدوء . وتعب « وانسوس » في حملها على النطق فاستعصت عليه . وتألمت لحالتها نساء القبيلة وهي تغوص في جمودها ساهية ، واجمة . فتعرض عن الطعام والشراب وكانت تعيف ما يلقى اليها من الطيبات

واندفع « وانسوس » الى حكمون اليهودي يشكو له أمرها . قال : حكمون ، هي تغار من زينب على اعتقاد منها ان الأموية تهواني !

فاطرق حكمون . لا يبرح السر مغلقاً على « وانسوس » . أجل ، « تكفات » تغار من زينب ، ولكنها تغار منها على عبد الرحمن لا على

Twitter: @ketab_n

« وانسوس » البربري . واليهودي الشيخ ملّ بالنبأ الخفي ، بيد انه مطويّ على الكتمان . وخشي اتساع البليـة فحدثته النفس بهجران القبيلة ، ولكن كيف يقوى على الهجران وجراح الامير لا تبرح سيّالة، لهبى ؟

وساد البحران القبيلة . فتلاشت البسمات في الشفاه وتراكمت الاشجان في الحواني كأن الربع في مأتم . كلهم تائه اللب ، حزين . وما غاب عن زينب بنت سليمان لباب الاحجية . فهي وحمكون على بيّنة مما يقلق الحمى . ومـا برحت تستعذب التضحية ولن تكون عقبة في طريق عبد الرحمن

وعبد الرحمن شقّ عليه ان يثير الريب والالم في النفوس فصمم على الرحيل مستخفاً بالحياة . شاء ان يحتجب عن « تكفات » فلا يراها ولا يخاطبها . ففي الليل سيطوي بساطه ويعتلي أسنمة النياق فراراً من جو بات مظلماً ثقيـلاً . وخجل من « وانسوس » السمح النجد . أيبادله الخيانة بالمعروف ؟

وتحفز للنهوض مستهيناً بجراحه . غير انه لم يشعر بسوى يد تهزه في العتمة . فارتعـد . من انسلّ الى خيمته ؟... وماج في مسمعه صوت أجش يقول : عبد الرحمن ، على مَ عوّلت ؟... أتسالم وتحقق طلبتي ، أم تخاصم وتمضي في الايلام ؟

وضغطت اليه المعنة في هزه ساعده فارتج عليه . مـا غاب عنه انه ازاء « تكفات » وقد زحفت اليه باحقادها وشهواتها . وتعالى فحيحها مهدداً يـنم على ما تتلظى به من اضطغان : تكلم . أيشوقك أن تجفو ؟... والله ، لن أبقي عليك اذا جبهتني بالصدود !

فبلع ريقه . على أنه استطاع أن يملك هدوءه وان يجمجم : تكفات ، خففي عنكِ واجلسي هنا ، بجانبي . فما لنا وللغضب وليس يجدي . علينا أن نتحدث برفق ولين !

فنبرت بغيظ : لا حاجة بنـا الى الاستطالة في الحديث والامر لا يعدو كلمتين . أأنت لي أم لابنة عمك زينب ؟

Twitter: @ketab_n

قال يدّرع جميل الصبر : اجلسي . لا تحتدمي . سأعرض عليك موقفي . أنا لست كارهاً لك كي تتفاقم فيك سورة النقمة عليّ !

فأزال بعض حدتها . واستقرت بلصقه ترنب منه الايضاح ، فأعلن : حبك مالكٌ عناني ، الا اني فيه حسير . هلا رحمتِ ما ينبض في ضميري من أحاسيس الوفاء ؟... ان « وانسوس » لفضال شريف فلنحرص منه على الكرامة ولنخلع من نفسينا حباً يكتب علينا الغدر والعار !

فما كان منها إلا أن انقضت عليه تمسك بخناقه بيديها المتشنجة أعصابها وهي تدمدم عليه : أيها القاتل ، أتتحدث عن الوفاء وأنت تذيقني في كل ثانية مرارة الموت؟...انك لتقتلني بحبك الماحي ، فمن قادك الى هذا الربع؟.. من رمانا بك تذبحنا ولا تشفق فينا على نزير من هناء ؟... أتجرح قلبي ولا تضمده وأنت القابض بيمينك على البلسم والضمادة ؟... ما أنت إلا جلف . ولكن هذا الاعراض عن ضحيتك سيكلفك ايامك . فما ذنبي وقد شغفت بك ، ما ذنبي إلا اني ابصرتك فينا وكان عليك ألا تبدو وأنت نافث السقم والبخيل بالابراء . أتنطوون جميعاً ابناء الحضر على اللؤم والظلم ؟... لست اجهل ما دفعك الينا . فالفهري يبثّ عليك الارصاد !

وخشنت في وعيدها حتى تناست كل مهزة من نبل . فقال عبد الرحمن يداعبها وقد احتملَ فيها فحولة ثورتها : أأنتِ من الوشاة ؟

— من الوشاة . فمن يمزق قلبي اخطف روحه . لا تحسبن « تكسات » ترقد على ضيم يراد بها . ان انفاسك لفي يدي وبوسعي ان اطرحك الساعة بين اشداق اعدائك اذا مضيت في الاعراض عمن جذبتها اليك ثم رذلتها . أيلوح لك من الهيّن نسف العلالة ونحر الصبوة؟

فاستطلعها بلين : أتبيحيني للفهري دون شفقة منكِ عليّ ؟

فتطاير من شفتيها الزبد وتدفقت كلماتها من صدرها عواء جريحاً يشفّ عن مديد التياع : لن اشفق على من لا يشفق على قلبي . حبي المنبوذ يحملني على

Twitter: @ketab_n

الانتقام . انه ليقودني الى الجريمة ، الى سفك الدم . بل يقودني تناهياً في التشفي الى الزنى المباح ، يا كافر المهجة ، السافل القلب !

قال يدعوها الى الرشد : رويدك . نحن في موقف لا يبيح لنـــا الاستسلام الى امانينا . ألا تنبض فيك رَفَّةٌ من تضحية ، خافقة من هدى ؟

فبربوت وهي تكاد تنشقّ : التضحية اجهلها وما خُلقت لها . ان حبي ليعصرني حتى يكاد يذيبني ولا اراني اقوى على الاحتمال . فان تكن تهيم بي ، كما تدعي ، فلنرحل الى حيث ننعم بهوانا ، أو فليضمنا قبر . خذ بيدي وانقذني مما اكابد من ويل !

ومدت له يدها فلم يرفع لهـــا يمينه . فأعولت من كبد تنزف قهراً ويأساً : أتتردد ؟... أتستهين بي ؟... لا والله ، لا أنا ولا أنت . موتك عندي أشهى اليّ من بقائك ما دمت تبغي تعذيبي . قطعُ رأسك بسيف الفهري خير امنية لي وانت تصدُّ عني . وسأشاهد بعيني هامتك تتدهده مفصولة عن عنقك المضروب . وسأندفع اليك وأنت تنتفض في دمك أسألك عن لذة التضحية . سأرقص على أشلائك ولحدك وكبدي مبتهجـــة ونفسي مشرقة . يا كافر ، لتذوقن مضض الانتقام !

وبدت في أبعد مرحلة من مراحل النقمة . قال يلاطفها : عودي الى صوابكِ . ازيلي عنك الجنون المطبق . صدودي عنكِ مقدور عليّ وأنا فيه شقيّ مثلك ، وربما كنت أشقى منك . آه ، لو تدركين !

وأمسك بيدها وهو يزفر وقال بخفيّ الاباء : رفقاً بمن حولنا . ليتحطم قلبانا في سبيل زوجك الكريم . لنكن شقيقين لا حبيبين . نحن لم نخلق لنتبـــادل الهوى على شدة عصف الهوى بنا . يعزُّ عليّ ان اخون «وانسوس» ، يا «تكفات» وهـــو مجيري . فاذا كنت لا ترحمين زوجك وقد نبت عنه نوازعك فارحميني وصونيني من زلة الغدر . فان لاقدارنا علينا حقاً . ولن تجيز لنا اقدارنا ان ننتهك حرمة ذي اليد عندنا . هلا عطفت علينا في احسابنا ومخايلنا ؟

Twitter: @ketab_n

فلم تسمع . بل هي لم تشأ أن تسمع وكل مـا فيها يغلي ويفور . قالت : دع عنـــك المداورة . انت لا تهواني بل تضحك مني . انت تهيم بزينب . على اني سأهدم فيك كل حياة . سأطرحك للديدان تأكل قلبك . اني لمنطلقة الساعة الى الفهري ادله عليك لنهشك واتلافك . وسوف ترى !

واجفلت ترقب منه ان يناديها ، أن يدعوهـا اليه . فتماسك يأبى الفضيحة وسيعلو صوته في الليل فيوقظ النيام وينشر في القبيلة ظنون السوء . لن يلطخ ثوبه النقي بالخداع ويطعن المحسنين اليـــه في سليم اعراضهم ، والا فاين الولاء والحفاظ والاقرار بحسن الصنيع ؟... وما كان ليؤمن بان « تكفات » ستطير الى الفهري لنفث نميمة ، كأنه يجهل خوارق الحب الملسوع وتبـاريح الخيبة . و « تكفات » لما يئست من صيحة النداء ركبت فوراً قنوطها السبوح مندفعـة في المدى الأرحب الى الفهري الخشيـــان على نفسه من الفتى الأموي ، لا ترهب وحشة الليل ولا هول البادية . وخيل الى عبدالرحمن انهـا عادت الى خيمتها فاعتزم في الصباح استرضاءها ولم تكن تسعفه قواه في النهوض الى هذه الحانقة فيجرّها اليه ويقنعها بفساد جماحها . ولكن « تكفات » تطوي الفدافد كالناقة الشرود ، لا تبرد لهـــا عين ولا تقرُّ شهوة . فالحب المهين فيها ينتابه نواح وزئير

وهي تعرف الفهري وتعرف مقامه . جاء بها اليه « وانسوس » ونعما معـاً بضيافته السمحة . ولم تكن تجهل انها ستلقى لديه الرحابة القصوى وقد اقبلت ترشده الى مكمن مزاحمه المخيف

ولم تحفل بما سيصيب الفتى الاموي منها مع يقينها انها تقضي عليه بوشايتها به . قتلهـــا في اسمى عاطفة وستحرمه أجدى امنية ، بل ستحرمه مَدَّة الانفاس وخنق الحب اشبه بالذبح الهتّاك . واحدة بواحدة !

ولم تشعر بتعب على بعـد الدار ، ولا رهبت ألم الجوع ، ولا ارتعشت وهي تذكر وحوش الصحراء ، بل ظلت تشق الرمال كأنها تستخف بالخطر وبالعياء .

Twitter: @ketab_n

وما شكت غير العطش . فتجمد ريقها وطفا زبداً على شدقيها ، الا انها غالبت كل عقبة . ولفها الليل بعباءته السفعاء فما غمضت لها عين . وابت ان تتمدد على الرمال وتذوق بعض الدعة ولن تني وثبتها الا وقد بلغت المنتهى

وتناست زوجها . ليقل فيها ما شاء . فهي ليست له وقد اضحت لانتقامها العنيد . وطلع عليها الصباح واذا عيناها ترفّان على قافلة تجتاز الصحراء . فلحقت برجال القافلة تستأنس بهم وترجو أن يهبوا لهـــا شربة ماء . وادهشهم ان يبصروها وحيدة ، شريدة ، في عرض المفــازة القاحلة . وادركوها بالماء وهم يقولون ما بكِ ?... ان الكمدة لتنطق بجهارة في محيّاكِ !

فتنفست ملياً والماء يرطب حلقها وقالت : نزلت بي غاشية دهمـــاء قادتني متظلمة الى الفهري !

– وما يشجيكِ ?

فلاذت بالصمت .وأجلّوا فيها صمتها فتهيّبوا احراجها . قالوا : ونحن نسير الى الفهري . هذه مطايانا فاختاري احداها !

وحملوا اليها الزاد فاكلت مجاملة وليست تشتهي الطعام. لقد كرهت العيش وكرهت ما يستبقيها لغدها بعد نكبتها بجنانهـــا . فكل ما اضحت تطمع فيه قتلُ قاتلها ، وبعد ذاك فما اطيب الموت واحقر الحياة !

وترجحت على سنام ناقة ذلول . وانغمست القافلة في بهرة الرمـــال و « تكفات » على مطيتهـــا لا ترى ولا تعي . فليست تدري كيف هي ولا أين هي . وعندما تستيقظ آناً بعد آن من غشيانهـــا تحدق الى الافق وتجود بزفراتها ، وتودُّ لو تملك القافلة قوة أمضى على المسير لتبلغ في أقرب آن عاصمـــة الفهري الامير

ويخطر لها أحياناً أن تثب الى الأرض وتنطلق ركضاً الى بلاط سيدالمغرب. فالقافلة بطيئة المهزة و « تكفات » ترغب في الوصول الساعة الى الفهري وهي تتضرم شوقاً للنيل من الاموي الجميل العابث بمهجتهـــا المريضة ، الصائرة الى

Twitter: @ketab_n

الانطفاء . وذكرت أمسها الوئيد المريء ويومها القلق السخين . وتعجبت من سرعتها في اجتياز مراحل الحب اللدود العاصف بها . فما أن أسفر حتى أدمى . بدا نسيماً ليناً وأمسى اعصاراً ، بل زلزالاً . فأحرق والتهم واجتاح وأباد . فما كان أغناها عن الذوبان في سعيره وقد أطاحها . وعادت تلعن حكمون اليهودي في سوقه الى الربع الضيوف المناكيد وكأنه حمل اليها الهلكة . وتخجل من نفسها ومن زوجها في استسلامها الى بادرة الحنين الهوجاء وفي ركوبها مركب الوشاية وتصمم على العودة ، غير انها لا توشك ان تعتزم الوقوف عن وثبتها الطائشة حتى تخجل من قلبها المثخن جراحاً وتذعن لنداء هواها الطعين المستنجد بها يحثها على انصافه وشفائه من طاحن الرزيئة

وما أشرقت طلعتها إلا وقد تمايلت في عينيها المآذن الكاسية بوقارها عاصمة أمير المغرب . فان بينها وبين هدفها لساعات قلائل . ولن تقضي نحبها في هذه الفترة وهو ما كانت ترهب في اجتياز الصحراء

وعمدت الى التفكير في ما تخاطب به سيد القطر . ستقول له : عدوك الاموي في ربع « وانسوس » وقد دفعه اليه حكمون اليهودي !

ولم تحفل بما سوف ينال زوجها من لهب الغضبة . ليمت عبد الرحمن بن معاوية وليذهب في أثره الجميع . وهي في الطليعة . وما دامت لا تبالي أمر نفسها فهل تبالي أمر سواها ؟

وعبد الرحمن بن حبيب الفهري ، وقد هالته مكيدة حكمون اليهودي ، ونجاة الامير الاموي من الفخ المنصوب ، اقلق المغرب في البحث عن الفارّين . ولم يؤله خلاص الأموي من الاحبولة كخدعة اليهودي المحتال ، ذاك الغراب الابيض . قار . نصف مالي لمن يأتيني بهما حيّين او ميتين ، بل نصف مالي لمن يجيئني بحكمون على نزفة من رمق !

فما اهتدى الى الضالة . وخاف سوء المغبة فأقام على حذر . قد يجد الاموي انصاراً يؤيدونه وينادون به سيد أفريقيا . وما يلمّ عند ذاك بالفهري ؟... فلا

Twitter: @ketab_n

بد من خوض القتال . وربما ضعضعته الصدمة . فان حفيد هشام بن عبد الملك ليلقى من العون والرحابة ما يضيق به عامل من عمّال الأمويين

وشعر رجاله بجفائه ونفاره فتحاموا الدنو منه لئلا يغشاهم اذاه . وفيما يصغي في صباح أحد الايام الى حديث نجيّ له عن استقرار العباسيين بالكوفة ، وامتلاكهم الخلافة دون حفدة علي بن أبي طالب ، اذا حاجبه يبدو ويقول : بالباب فتاة بربريه تستأذن على مولاي الأمير !

فتضايق وتجلى امتعاضه في أساريره وحركاته . قال متأففاً : دعني منها . هذا ليس أوان المظالم !

– هي تلحّ في رؤية مولاي . وسقط إليّ منها أنها تحمل النبأ الخطير !

فومضت عينا الفهري ببريق الفضول واتسعتا وما لبث ان قال : لا بأس ، فلتدخل !

وما كادت تمثل في حضرته بعينيها التائهتين ، وسمرتها الدكناء ، وشعرها الجعد المنبوش ، حتى تجلى له منها انها تبطن أمراً جللاً . وأطال النظر اليها فارتعشت في خاطره ذكرى بعيدة . هو يعرف هذه المرأة الواقفة بين يديه ، ولكنه يجهل اسمها . قال : ما بكِ ، يا ابنة الخير ؟

وفتح لها أذنيه . قالت : والله ، يا كريم الوالدين ، جئتك في ما تتحرق شوقاً الى إدراكه ولا تخترق سره . أنا مقبلة اليك من قبيلة « وانسوس » ، أحد مواليك ، بل أنا امرأة « وانسوس » نفسه . شهدتُ مداورة انت فيها مغبون الصفقة ، فاسرعت لاطلاعك على خبائثها !

فتذكر . هذه «تكفات» . وبسم لها وهي تكشف حقيقتها . الا أنها لا تملك نضارة الأمس ، يوم بدت له فاتنة مزهوّة . قال وكله صبوة الى سماعها : وأي مداورة شهدت ، يا «تكفات» ، يا لسان الصدق ويمين الحميّة ؟

فأجابت تتصنع الالغاز ، وقد حاولت اعلان اسم عبد الرحمن بن معاوية

Twitter: @ketab_n

فعاندتها شفتاها في التلفظ به : العتب كله على حكمون !

فصاح بارتعاش : حكمون اليهودي ؟

– هو هو !

– أيكون بينكم ؟

– اللئيم ورهطه في الربع . والجميع ممن لا يرضى عنهم سيدي الأمير !

فزمجر بشراسة حاطمة : رهطه ؟... ومن رهطه ؟... الفتى الأموي ؟

– الأموي في النظيرة ، يا طويل العمر !

واباح لها حقدها المتلاف اطلاق وشايتها بمن قهر قلبها . وجمدت عينا الفهري على مسرّة وارتباك . قال : وهل أجاز لهم « وانسوس » النزول ضيوفاً عليه ؟

فعمدت الى انقاذ زوجها من الورطة . قالت : « وانسوس » لا يعرف من أمرهم إلا أنهم ضيوف. ولما جلوتُ له سرّهم أنفذني اليك في ابلاغك جسيم النبأ!

– وهل شعروا بمجيئك الينا ؟

فقلبت شفتيها توضح انها تجهل ما تمخضت به المضارب بعد رحيلها عنها . ووقف منها الفهري موقف المرتاب وهو يراها تراوغ في أجوبتها. إلا أن روغانها ليس دليلاً على كذبها في جميع ما أدلت به . قد يكون ما حملها على السعاية بالفتى الأموي وبحكمون اليهودي غير الاخلاص للوالي صاحب السلطان ، على أن في مقالها زبدة من صدق . قال الفهري يحس فيها مناعة البيان : تكفات ، أتدرين ما تعرّضكِ له المجازفة بي ؟... أمؤمنة أنت بما تعلنين ؟

فأجابت بعزم : للامير أن يضرب عنقي اذا بدا له مني اني أحدثه بالبهتان !

Twitter: @ketab_n

فقال مهدداً : وهو ما سأفعل،يا تكفات . فاحذري الافك وهو يودي بك!

فأصرت على التوكيد وليست تخاتل . فنادى حاجبه يدعوه الى تجهيز مائة فارس لغزو قبيـــلة « وانسوس » . فاذا اهتدوا في الربع الى اليهودي ، وعبد الرحمن بن معاوية الأموي ، فليخلوا سبيـل « تكفات » بامان ، وإلا فليعودوا بها اليه ونصيبها منه التذليل ، بل سحق الرأس

Twitter: @ketab_n

٨

انطلق الفرسان المائة الى قبيلة « وانسوس » يزمّون اردان الصحراء و « تكفات » في هودج ثريّ ، وثير ، كأنها من ربات الخدور والقصور . على انها راضية وغير راضية عما تلقى . فتميل الى تحطيم الاموي وتعاند في الاساءة اليه وهي لا تبرح على شغفها به . فالحقد الكامن فيها ضلّ قصده ، فالتوى رحمة فحناناً فهياماً ذكيّ السعير

وشعرت بانها لا تزال هي اياها ، تلك العاشقة الولهى . وتولاها كسوف مهيض . فمن نفر بها الى بلاط الفهري وهزّها الى السعاية بمن تفتدي ؟... يا للرحلة النكداء . المجيء فيها حفيظة تثور ، والعودة ندامة تكوي الضمير . أتدري « تكفات » اي ويل حاكت يداها ، واي شرّ ضربت به أعزّ الناس عليها ؟

ستفرُّ من الهودج وتضيع في الصحراء ، بل ستقتل نفسها . وقبضت يمينها على مدية تروم بها الانتحار . ولكنها ابت ان تموت الا وقد انقذت عبدالرحمن ابن معاوية من الخطر اللاهب . ولم تأكل ولم ترقد . فالندم كالخيبة حرمها الهناء

بلى ، نامت ساعة من الزمن ، إلا انها كانت عليها ساعة شؤم وهول . فتجلى لها الاموي يلعنها ويعيّرها الغدر بالضيف فيما تتخاطفه نصال الفهري . وخلع قلبها ما تراءى لها فاستيقظت تضرب على ذعر . وتلفتت الى ما حولها تُبحث عن عبدالرحمن لتستغفره وتسأله راجح المغفرة . ولكن اين عبدالرحمن ؟... فانهلّ الدمع من مآقيها . هي سائرة اليه لتطرحه بين ايدي السالغين لحقه . واكبّت على وجهها تنتحب وتقول : عفوك عن الاثيمة ، عنّ الجانية عليك !

Twitter: @ketab_n

وصممت على انقـاذه . هي جازفت به وهي ستصونه . فان ثمة طريقين الى القبيلة ، الطريق العريض السهل ، والطريق الضيق الوعر الحائمة عليه كثبان الرمل وليس يفوز باقتحامه غير من ركب قدميه . وهو طريق يختصر المسافة ، فيبلغ وشيكاً من يسلكه مضارب القبيلة ويسبق اليها الفارس بزمن رحراح

واعتمدت « تكفات » على هذا الطريق وقد ارتسم في ناظريهـــا الحمى . فتدلت من الهودج على غفلة من الارصاد وارتمت على الرمل لا تعلو لهـا ضجة ، وزحفت الى الطريق الوعر تنساب فيه بخفة الظبي النَّفور

وبلغت المضارب وهي لا تصدق انها تجوس الحي . وسقطت خائرة متلاشية تجاه خيمة عبدالرحمن وقد اعياها النطق . فالقت يدها الى صدرهـــا تجاهد في نفث سرهـــا . قالت بكلام يقطعه اللهاث المستفيض : عجّلو في الهرب ... اقبل رجال الفهري ... للقبض على عبدالرحمن بن معاوية ... وعلى حكمون ... ليسرع الرهط في الفرار ... سبقتهم باختصار الطريق !

فجزعت القبيلة و « تكفات » تفيض بانذارهـا . افتضح الامر . ما غابت امرأة الزعيم عن الربع لسوى الوشاية بالاضيـــاف . وهي غيبة اثارت الثائرة واطلقت لسان عبد الرحمن بن معاوية . فباح الفتى لحكمون اليهودي بما كان فيه من البربرية . فارتجف حكمون وقال مرعوباً : وهل ركبت هواها الكسيح الى الفهري الحقود ؟... لا كانت المفضوحة العرض . علينا بان نكون على أُهبة !

وحدّث « وانسوس » بالخبر اليقين . « تكفات » هجرت الربع للسعايـــة بالامير الاموي وقد صدّ عنها . فهبط الزعيم البربري من شاهق منعتـــه . « تكفات » الحسناء تخدعه عن نفسه . فما ومضت فيها بوادر القطيعة والذهول لسوى هيامها بالفتى الاموي . يا للفاجرة المحتالة !... حسبها تغار عليـــه في حيرتها وكمدتها فاذا بها تغار على الامير

واتسع صدر « وانسوس » للرزيئة . وأعلن في « تكفات » حكمه . قضى عليها بالموت . غير ان سجيته المطبوعة على المروءة والحلم فرضت عليـــه اخفاء

Twitter: @ketab_n

نقمته والتوفر على انقاذ ضيوفه . فالانتقام طويل مداه ، حاضر أوانه . أمـــا انقاذ الضيفان فلا سبيل اليه ان لم يُقرّ له، قبل الموعد، التدبير النجيع

ودعا « وانسوس » رجاله الى حفر نفق طويل تحت كثبان الرمل يقيم فيه عبد الرحمن واخوانه على طرف من دعة ريثما يتقهقر عن المضارب رجال الفهري. ومـــا أذاعت « تكفات » في الربع ان الجنود أطلوا حتى كان النفق يرحب بالضيوف . فحمل رجال القبيلة عبد الرحمن بن معاوية على المحفـــة واودعوه المأوى الآمن ، بين حكمون وزينب والخادمين سالم وبدر . واستعـــاد الحي طمأنينته . فليس للاذية ان تخدش فيه هناءة المثوى

وطغى الفرسان على المضارب كأنهم يفجأونها بالغزو المتلاف . فطفر اليهم « وانسوس » يبدي البشاشة : مرحباً بالاصدقاء !

ونضا عن نفسه كل وهن وخشية . فهو اذا جرض بريقه ضاع واضاع قومه. ومال عليه قائد الكوكبة يحييه ويقول : نحن رسل أميرنا الفهري اليـــك ، يا « وانسوس » . بلغ الامير عنك ان في مضاربك لاعدائـــه متكئاً فاطلقنا الى ربعك يشدد عليك في أن تهب له هؤلاء الاعداء !

فأبدى « وانسوس » الدهش . أيكون اعداء الفهري في الحي ولا يطير بهم الى الأمير مكبلين بالقيود ؟... قال : ومن هم هؤلاء الاعداء ، يا صاحبي ؟... بابي أنت وأمي ، ليس في الديار غريب !

– ولكننا على يقين ، يا « وانسوس » ، ان مضاربك تحشد المناكيد !

– أأنتم على يقين ؟... لا ، وحرمـــة الفهري عندي ، انكم لتركبون اليّ وشاية سافلة كذوباً . هذه مضاربي أبيحها لكم فابحثوا فيها عمن تشاؤون !

وجمعت كلماته الاداء الصافي والنبرة المطمئنة . وسدّد اليه قائد الكوكبـة نظرة يخترق بها عينيه ليقرأ في قلبه ، فما ارتجف « وانسوس » ولا بالى . قال قائد الفهري يرطب لهجته بالزلفى : وانسوس ، نحن على رباط من صداقـــة . ويشوقني ان تشتد بيننا الاخوّة . مولانا الفهري يرى فيك جناحاً من جناحيه »

Twitter: @ketab_n

فان يكن اعداؤه في ربعك فأعهد فيهم اليّ ولا تكرهنا فيك وفي قبيلتك على ما تعفّ عنه المودة الصدوق . ان من حدثنا عن ثواء أعدائنا في دارك ليؤا كلك ويشاربك وينعم برفدك ، فلا عجب اذا وقف على سرك المكنون !

فأعلن « وانسوس » بنفرة : مـــا كنت لأتنكب عن الصدق، يا صاحبي . فكل ما وقع في مسمعك تضليل . ومن حدثك عن نزول أعدائنا في ربعنا مفسد ماكر بودي لو عرفته كي أضرب عنقه !

فضحك قائد الفهري ضحكة تشفّ عن الارتياب الخبيث ، والتفت الى رجاله يقول : أين راكبة الهودج ؟

وشاء ان يجبهه بها ، وان يزيل عنبـــه عنجهيته النطّاحة بمرأى من تنقض مزاعمه وتفحم فيه كل دعوى . ولكن أين راكبـــة الهودج ؟... تلاشت آثارها كالشرارة في الغمر . ورعد قائد الفهري في رجاله وقد فوجىء باحتجاب « تكفات » : اين هي المرأة ؟... الويل لمن نام عنها والويل لها !

وشزر « وانسوس » بنظرة تقطر اللؤم والمهانة صائحاً به امعاناً في التحقير : وانسوس ، أتدري من نمّ عليك ؟... لم يفضحك سوى امرأتك « تكفات » هفت الى الفهري تذيع الكواشف . فحدثته عن ابوائك عبدالرحمن بن معاوية الاموي وحكمون اليهودي وصحبهما . على ان الخائنة طارت منا بباب الربع . وسترى ما يكون فيها من تنكيد . أما نزل خيامك الاموي واليهودي ؟

فاتسع لوانسوس المجال الى الضحك . قال باستهانة المزدري، المقيم على غلّ : وهل آمنتم بامرأتي ؟... هذا اسرافٌ في الثقة بالناس . ولكني طلّقت الفاجرة ثلاثاً وهي الجاحدة الكفور . والله ، لاذبحنها ذبح الشاة الموبوءة واروي بدمها الارض . أين تكون ؟

وامتدت يمينه الى خنجره ينتزعه من وسطه ويهدد به ساخطاً صاخباً : ألا ارشدوني الى الناشز الفارك . لن تدوس هذا التراب !

وحقده عليها وهب له صدق الاداء ، فما ارتاب به قائد الفهري . ليس مـــا

Twitter: @ketab_n

ينفي عن رحبة السعاية الكاذبة مـا دامت منبوذة من الحمى . ولكن من ألية اليهـا ان الاموي واليهودي مغضوب عليهما من امير المغرب ؟... لا بد ان الرجلين ألمّا بالقبيلة لتقف « تكفات » على سرهما وتحوك وشايتهـا . قال سيد الكوكبة يستجلي بفرط اللين : وانسوس ، بحقك ، اصدقني الخبر . أما اجتاز ديارك عبدالرحمن بن معاوية وحكمون ؟

ورقّ في اساريره وفي مقـــاله . فأجاب « وانسوس » وهو يختلج في نزوة النقمة على امرأته النمّامة المعشاق : بلى ، عرّجا عليّ . بيد اني ما علمت انهما على نفـــار وسيد المغرب حتى نفضت منهما يدي . فلست ارضى بان يأوى اليّ خصوم الامير !

– ومنذ كم رحلا عنك ، يا وانسوس ، والى اين ؟

– منذ شهر اذا صدقت الذاكرة . غابا في بطون الفيافي يبحثان عن مفزع يركنان اليه . لا كتبت لهما العافية !

وقاد الى خيامه رجال الفهري . ودعا القبيلة الى نحر الذبائح السمان . فاحيا للفرسان الولائم يعميهم بفواضله . ومـــا غفل قائد الفهري عن « تكفات » ، فاءفد من يبحث عنهـا وينقّب في الاهتداء اليها كبد الارض . أتخدعهم لشهوة اثيمة ؟... وطاف مراراً رجال الفهري بكثبان الرمل المختبىء فيها عبدالرحمن بن معاوية ورهطه وما لاح لهم باب النفق . واعياهم البحث والطواف فودعوا وانصرفوا وفي نفوسهم من « تكفات » وهج السعير . أفلا تمسك بهـــا ايمانهم لتمزيقها وتبديد اشلائها ؟

و « تكفات » ، وهي الملمة بخفـــايا هاتيك النواحي ، اعتصمت بوجار معكوف الارنبة ، منحوت في صدر تلة من الرمل . وغرقت في مثواهـــا لا تبدي حراكاً . فما برزت الى النور الا والقـافلة تلتحف بالافق . وحبت الى الربع بقحة غير المبالي كأنها لم تقدم على منكر ولم تهزّ القبيلة هزّة الموت . فاي زلزلة كانت تنخع الربع لو ظفر رجال الفهري بالمخبأ المحتشدة في صدره بيّنات

Twitter: @ketab_n

الاستخفاف بالحاكم الجازع الغضوب !

ونادت بوانسوس وبعبدالرحمن وحكمون وقد حظيت بهم عند فوهة النفق: نجوتم، فابشروا. طرحتكم في انياب الذئب وانقذتكم منها. دُفن الويل في قرابه، فلا عليكم . انتم بامان !

ودنت من الفتى الاموي تقول وهي على خجل من نفسها: عفواً عني ، قسوت عليك في الجفوة ، فاصفح عن امرأة حمقاء مثلي !

والتفتت الى زوجها المتطاير النقمة والمتحفز للفتك بها تعالنه بجرأة المقحام : وانسوس ، أُريدك على شكر هذا الضيف النبيـل . عرضت عليه نفسي فأبى حفظاً ليدك عليه . أجل، يا وانسوس ، أحببته حباً أذلّني ، فلم يشأ ان يمدّ اليّ يداً بسوء . وما انقطاعي عن الحي ، واضطرابي ، وانطلاقي الى الفهري أسمى بك وباضيافك لديه ، غير مراحل قواصم اكرهني على اجتيازها حبي الغشوم . اقتلني،يا وانسوس . اذبحني واغسل بدمي خيانتي . لست جديرة بعد كل ما بدر مني بان أتمتع بحلمك الوسيع !

وجثت أمامه تعرض عنقهـا للذبح . فليقتلها وليذهب بسخطه وكسوفه دمها المسفوح . فارتعش « وانسوس » ازاء صراحتهـا . أتأثم وتقرّ بارتكاب الاثم ?... هذا افراط في مستبشع الوقاحة . وهوت يده على مقبض خنجره . سيرديها . واذا بالجميع يصيحون : عفوك عنها . كن اكرم منها . هب لهـا من سموّك نعمة الغفران !

ونهض اليه حكمون يمسك بيده ويقول : وانسوس ، قبـل ان تغمس خنجرك في نحرها أغمسه في قلوبنا . نحن حملنا اليها الاغواء . فأما أن تصفح عنا جميعاً او ان تقتلنا جميعاً !

فناح في « وانسوس » قلبه الطعين ، المعتلج فيه الحقد والعطف ، وقـال متوجعاً : حيّرتني ، يا حكمون !

قالت « تكفات » وبودها لو تنجو بالموت من اعبائها بعدما تداركت عاقبة

Twitter: @ketab_n

طيشها الجاني : بل ليقتلني وحدي . ليذهب دمي فداكم . أموت لتسلموا !

فهدرت الاصوات : عفوك ، عفوك !

فاطرق « وانسوس » مغـــلوباً على أمره . ليس له أن يخيب الضيوف في رجاوة لا تبرح تلقى فيه خفقة من نزوع . وتزحلقت يمينـه وئيداً عن مقبض الخنجر . لقد عفا . فطغى عليه كرم الطبع حتى بات معين عوارف ومنن وقد ضارع عفوه جدواه. امرأته، مع هيامها بالأموي، لم تدنس قميصها بالفحش . فاذا صانها من الموت فما أذلّ بسماحه ما يستعلي فيه من عرض نصيع .

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

٩

ـ لنرحل ، ايها الامير !

وجزم حكمون اليهودي بقولته . فلم يبق من سبيل الى البقـاء في مضارب « وانسوس » والفهري بات يرتاب بالمكمن ، وهيام « تكفات » بالفتى الاموي ينذر بالفضيحة . قال عبدالرحمن : أجل ، لنرحل ، يا حكمون !

وهو يصبو الى الرحيل . كفاه ما لقي من رحابة « وانسوس » النجد ومن عطف القبيلة البارّة . وشدد من عزائمه . ونهض من فراشه ينضو عنه اتعـابه واوصـابه . وغالب رجليه في الخطو يشكر للزعيم البربري رفده ، وللربع رفقه . فقـال وانسوس : سيدي الامير ، اقسمت ان أكون في ركابك حتى تتبوّأ سدّتك !

وغمغمت « تكفات » وهي تسد بين يديه : لا تخيّبنـا في الشهوة الجُسام . عاهدنا النفس معاً على خدمتك ريثما تبلغ شأوك . فنكون حجراً ، او نزفة من طين ، في صرح مجدك !

فنظر اليها والحيرة في قسماته ، واللعثمة في مقوله . وجهل ما يعلن . أيرضى عن مسيرها في القافلة ام يمانع ؟... فهو يخشى ان تبدر من « تكفات » بادرة ادهى . وشزرها بقسوة . فادركت مرمى النظرة الثاقبة وتمتمت بمنهمر التوبة : سيدي الامير ، ما مضى لن يعود !

فآمن بصدقها . وانفرجت شفتاه عن القول الحفيّ : ألا مرحباً بكما !

ومشوا الى « سبتة » وفيها يقيم اخوال عبدالرحمن الادنون . وضمّ الهودج

Twitter: @ketab_n

الواحد زينب و « تكفات » . لقد تفاهمتا . وقصّت « تكفات » حكاية حبها على زينب وهي تضحك وتقول : انها لفورة جنون انقضى زمنها ، فلا تعتبي !

وفي « سبتة » لقي عبدالرحمن الاكرام الوافي . فالقوم أحلوه منهم في الحواني وقد حدثهم عنه حكمون وعن مبغاه الاثيل . وتشاوروا فلم يجدوا لابن اختهم في امارة افريقيا مرتعاً . فالفهري اوطد منه أُسّاً . قالو : مجالك الاندلس فلا تملْ عنه . اصحابنا هناك على تمزيق وتفريق . ما ان تطلّ عليهم حتى يقيموك فيهم حَكَماً وازعاً وسيداً آمراً . وللامويين بينهم انصار اشداء . وليس ما يحول دون الكتابة اليهم في مطلبك . فانك لتلقى فيهم اجناداً مجندة ويلقون فيك الوالي الصفيّ !

وكتبوا الى اثنين من زعماء الامويين في « طليطلة » ينبئونها بسلامة عبدالرحمن بن معاوية من أذى الهاشميين ، وبرغبته في امتلاك السيادة في الاندلس وليس لها اصلح منه . ولكن من يحمل الى الاندلس الكتابين ؟ . . . فصاحت تكفات : أنا !

وهتف وانسوس : أنا !

فقال حكمون : نعم الرسولان !

فمانع عبدالرحمن بن معاوية . هذا ارهاق للزعيم البربري ولأمرأته . حسبهما ما اقدما عليه من مأثرة ومبرّة . فاعلن اليهودي الشيخ : دعهما في ما يصبوان اليه . وانسوس ، دونك الكتابين . سِرْ وامرأتك على بركة الله !

وجاءت كلمته قاطعة لا تفسح للفتى الاموي الى معاندة . وتناول « وانسوس » الكتابين وركب وامرأته البحر الى اسبانيا ، الى الاندلس الغنّاء ذات الرياض الزواكي والعمران الفيّاح . وأقام عبدالرحمن وصحبه بالانتظار . فهم بعيدون عن الفهري لا تمتد اليهم يده بأذية . وان هو تعرض لهم بسوء لقي من اخوال عبد الرحمن ما يكتب له الاخفاق الجهم

وكلما انقضى يوم سأل الفتى الاموي عن « وانسوس » وعن « تكفات » .

Twitter: @ketab_n

هل يخلصان له ويوفقان للرجاوة ؟... فيجيب حكمون اليهودي: اما الاخلاص فانا له ضمين ، واما التوفيق فمع ايماني به فهو من عند الله ، ايها الامير !

وبلغ « وانسوس » و «تكفات » خمائـــل الاندلس بسلام لا تقلقه كدرة . وهرهما ما تواثب لهما فيها من فرائد كالاعاجيب . قالت « تكفات » مدهوشة مبتهجة: هذه هي الجنة !

وقال وانسوس : ما اقربنا الى المبدع الرحيم !

وسلكا طريقهما الى « طليطلة » يبحثان فيها عن الزعيمين الأمويين ، فراعتهما البدائع المنثورة يمنة ويسرة في كل منبسط وكل منحنى ، في النجد والغور . فهي ناثيان عن بساط الرمال المتناهي الفسحة ، الواحد اللون واللحمة ، وقد تغلغلا في رياض يتنفس فيها الاخضلال كأنها جنات الخلد بوفور خصبها ونداوة ظلالها. وتخشخشا بين الاشجار المثقلة ببواكيرها فتولاهما مستطيل الشده وما كانت الفتنة لتنجلي عنهما الا لتتلوهـــا فتنة اوقع وامتع . ورفرفت حولهما ذوات الاجنحة من عصافير وفراشات حيارى ومـــا كانت تدري اين تحط في هاتيك الخمائل الفيّاضة بالفيء وبالاماليد المورقة المثمرة ، والازهار السمينة الشذا وقد اغلر عليها النحل يرعى لبابها . فمن خرير كالتسبيح ، الى زقزقة كهمسة الوتر للعود ، الى ثمار كالوجنات الزهر ، الى شلالات يخيل بها الى الرائي ان السماء تهبط في احضان المروج

ومـــا الزعيمان الأمويان الشاخص اليهما « وانسوس » و « تكفات » سوى عبيدالله بن عثمان وعبدالله بن خالد . وهمـــا من انصار بني أمية لا من اصلاب الامويين . حملا لواء خليفة دمشق يوم كانت الريح الاموية تهب على الدنيا غازية فاتحة ، ولا يزالان في اخلاصها لقوم سادوا العرب دهراً وازنا في الجاهلية والاسلام

ولقد تبدلت الحال في الاندلس بسقوط الامويين وقيـــام العباسيين . فولي الحكم يوسف بن بخت الفهري يعـــاونه الصُمَيْل . والصميل قويت شكيمته ،

Twitter: @ketab_n

وترامى اقدامـــه . على ان المنافسين عكروا الجو فباتت الاندلس مهد قلاقل وإحن متماسكة الاردان . فلا تسكن « سرقسطة » حتى تثور « اشبيليـة » . ولا تخمد نار « اشبيلية » حتى تتوهج « قرطبة » . فكل صقع من الاصقـــاع الاندلسية جنح الى السيادة يستأثر بها وقد هان الرادع وشلّ الوارع

وفي « طليطلة » اهتدى « وانسوس » و « وتكفات » الى عبدالله بن خالد فقادهما الى صديقه عبيدالله بن عثمان المنتحي في حصنه في « طرش » . واطرق عبيدالله مدهوشاً وهو يقف على مطـاوي الرسالة . ألا يزال في الامويين نبضة عرق ?... اذن لم يتهدّم المجد التليـد ولم تتقوّض جميع دعائمه . ولم يلبث ان ابتسم طروباً للبشرى . ما هوى واتباعه عن مكانتهم الباذخة . سيسودون . والتفت الى « وانسوس » يقول : إيه، ايها المبلغ تباشير الخير ، حدثنا عن الأمير الأموي . نحن بشوق الى بيانك السميح !

ودعا « وانسوس » و « تكفات » الى صدر القـاعة وقد لاح له فيهما ذكاء العرف . قال الزعيم البربوي : بماذا احدثكم عن الامير عبدالرحمن بن معـاوية الفتى الغضّ الاهاب، ايها السادة، ومن اي ناحية أتيتموه فهو السيد الضخم?... في خلقه يتّقد الحزم وفي نهيته تلتمع الفطانة . يدرج في ريعان الفتوّة، الا انه يعتصم بحكمة الشيوخ . فالنبل في قلبه والمضاء في مهزته . فان تعتمدوه وقاكم البلبلة وقادكم الى النجح !

فهتف عبيدالله بمستفيض البهجة : ان يكن يرمي عن هذه السجايا النضرات فيا لها من مخايل تعلل باطيب المنى . اننا لنجري في ركابه بلا امساك ، فليقبل الينا وهو فينا الامام !

وقال عبدالله بن خالد : سنخاطب في امره الصُمَيْل بن حاتم ونتفق جميعاً على ايلائه امارة الاندلس . فتزول بيننا كل خصومة ويركب الحكم اربابه !

والصباح البـاكر حمل القطبين الامويين الى الصُمَيْل المنيخ بسرقسطة . والصُمَيْل ، مع همته وضلاعته ، سكّير ، طلبُ نساء . يذري ايامـه بين

Twitter: @ketab_n

الكأس الرويّة والكف اللدنة المخضبة بالحناء . وباحثه الزعيمان الامويان في البغية فهش لهـــا وبش وقال : والله لا اجد للعقدة المعقدة خيراً من صاحبكما الندب يحلّها . وهو أولى منا جميعاً بامتلاك الامر فينا . فيجلو الفتن المتلبدة حتى كادت تمنع عنا الضوء . اني لمن دعاته وانصاره . فاكتبا اليه ان يأتي وسيفي ورجالي وقفٌ عليه !

فاستفهم عبيدالله : وما يكون من يوسف بن بخت سيد الاندلس ، أيجاريك في الرأي، يا أبا جوشن ؟

– يوسف خاتم في يدي . سأقنعه بان يزف ابنته الى الامير ويُقضى مـــا فيه تستفتيان !

فعزّ عليهما الايمان . أتزول العقبة في لمحة ؟... وانصرفا على ريبة . أيكون الصميل صادقاً في مـــا عاهد عليه ام نطقت فيـــه الخمرة ؟... وفيما يتهاديان مترجرجين بين شك ويقين علت وراءهما صيحاتٌ أن قفا . فالتفت كل منهما الى الآخر على رهبة . هل طاب للصميل الغدر بهما فدفع اليهما من يقتلهما ؟

وواثبتهما الوهلة فتأهبـــا للنضال . لن يموتا رخيصين . ودنا منهما رهط من الرجال يقولون : مولانا الصميل يبلغكما ان تناسيا جميع ما صارحكما به . فالمجال يعاند في الانجاز . اذا شاء صاحبكما ان يقبل الى الاندلس فمرحباً بـــه . على ان يكون فيها بمقام سائر الناس . وجل ما يعاد اليه ضيـــاع اجداده وهي المترامية البســاط ، الوافرة الجداء !

واذا بالصميل يبدو بنفسه معلناً بفاصل نبرة كأنه خشي ان لا يجيد اعوانه البـــلاغ : على رسلكما . قلّبت في الامر وجوه الرأي فظهر لي ان ليس لصاحبكما أهل بادراك الطلبة . ليبقَ حيث هو ان يكن طامعـــاً في الامارة . اما اذا كفاه ما لجده هشام من ضياع عامرة فليقبل الى استغلالهـــا وليس عليه حسيب . وحذار ان تحدثه النفس بمـــا هو أبعد مدى . والا كان أشبه بمن يحفر قبره !

Twitter: @ketab_n

فقال عبيدالله يستجلي : وما دعا الى هذا الانقلاب، يا ابا جوشن ؟

– هي المصلحة ، يا ابا عثمان . ليس لصاحبكما أن ينام على ما نسجتما له ، او نسج لنفسه ، من خميل العلالات !

– أيكون دون الامارة ؟

– بل الامارة دونه . فما ان يبدو فينا حتى يطفئنا بمستضعف النسمة . أتريدان لنا الضياع والخسران ؟... والله ، مهما بلغ مني الجهل فلن اقتل نفسي بيدي . استودعكما الله !

ولفّ المسافات الطُوَل الى يوسف بن بخت الفهري يطلعه على النبأ الصؤول، فتهزهز يوسف هلعاً وادركته صفرة الموت. وجمجم بصوت تتنزى فيه الحشرجة: ألا يزال في الميدان أمير أموي يحبو الى النور ؟... انها لاحدى القواصم يا أبا جوشن !

فأغلن الصميل بصوت تيّاه : لا تخشَ . نحن أمضى ساعداً وأوفر ناصراً . فلن يجازف ويسلك طريقاً يخيب فيه وليس له في الاندلس قوة منيعة يزكن اليها . أوضحت لجماعته اننا له من الشانئين !

على أن أقوال الصميل المطمئِنة لم تشدد من عزيمة سيد الأندلس فاعول وهو في اضطراب يخشى عليه منه : أرى أن اكشف لك صدري ، يا أبا جوشن . والله ، اني لاحذر الفتى . فكأنك نعيت إليّ نفسي وأنت تفجأني بخبره . فهلا حرّرتني من شبحه الراعب قبل بلوغه الدار ؟... ادفع اليه من يغتاله ولسنا بحاجة الى من يكسفنا ويزيد بني قومنا شقاقاً على شقاق !

فاطرق الصميل مرتبكاً ، مستيقظ المخاوف . واشتد به اليقين ان الخطر الماحق سيعصف به وبيوسف بن بخت معاً وينسفهما بارتياد عبدالرحمن بن معاوية الأندلس . وانتفض الصميل وزمجر : سنسلخ منه روحه وليس بأول من سفكنا

Twitter: @ketab_n

دمه . لن يدوس حياً هذه الامصار !

ونزل بالامير الاموي حكم الموت . فمن فهري الى فهري ، بـــل من هاشمي الى فهريين . فالجميع أرادوا بحفيد هشام بن عبد الملك الاذلال والمحو وهو سليل اقيال وطالب سلطان . فالمطامع ارهفت تواجذها وقهقهت الاقدار !

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

١٠

الصميل جالس الى الخمرة يحسوها والدنيا لديه رشفة من كأس وقبلة من خد. نال من دهره ما يتشهّى ولن يجنح به الحمق الى الاستخفاف بعطايا الزمن ، فيبيح لأموي طريد دخول الاندلس وامتلاك الدفة وتزول عن الصميل واخوانه النعمة الجرّارة الأذيال

وبجانب الصميل ، الى الخوان الحفيل بالافاويه ، الناطق فيه خضيب السخاء ، جلست امرأة سمراء ، في لدونة الاماليد ، رجراجة العينين ، عذبة المحيا ، تبسم لسيد المكان وتلقمه التوابل من يد رشيقة ، بضّة ، فيما تفضي بصوت أغنّ : أجل ، يا مولاي ، شريدة ملتوية الحظ ،لا أهل ولا اخوان . اطلقني القدر من بلاد المغرب ابحث عن رزقي فافلت الحرون مني . واقمت ثلاثة أيام على الطوى لا أعرف لون الرغيف ولا طعم اللقمة . وأرشدني حظي اليك والكريم من جاد على المعدم بما يقيه فتكة الحدثان !

فنظر اليها باستهواء وقد حنّ الى سمرتها الرضيّة وفتوّتها المخصاب . فهي تخاطبه بذلة ، ولكنها مذلة لا تسفُّل فيها ولا اكتراث لها كأن من بليت بها تعوّدتها واضحت لا تقيم لها خطير شأن . فقال الصميل بابتسامة مراح : أتشقين ويمور فيك هذا البهاء ؟

فتولاها الاطراق والخجل . قال : كان بوسعك ان تكسبي لقمتك خضلة ثريّة ، فما منعك من الغوص على الطيبات ؟

فازدادت اطراقاً والتهبت وجنتاها خفراً . قال الصميل بن حاتم : أتعانين منذ ثلاثة ايام لوعة الحرمان ولا تجدين من يخفف عنك جوعك ؟... ولكن

Twitter: @ketab_n

القوم في هذا البلد بحاجـــة الى مضغ الحسن الفتيق ، فما بهم لا يشترون أكلةً باكلة ، وطيباً بطيب ؟

فرمته بنظرة شاع فيهـا العبوس الحَرِد وقالت بشموخ : أُريد من مولاي أن يحسن بي الظن . ليس البلد أعمى ولا أنا معطاء . فـــلو شئت بذل نفسي للقيت كل متلاف . ولكني شببت على العصمة وهي أطيب غذاء . لقد عرّضتني للبؤس ، أجل ، الا انه بؤس أحتمل وقعه وعرضي حميّ وما أقبلت اليك في مساومة ، بل في استعطاف . واني لشاكرة لـــك انقاذك اياي من السقوط في مهواة الجوع وقد دفعت عني بمعروفك الجمّ ما يقود اليـــه البؤس من فحش وابتذال !

فوقفت به كلماتها عن ضمها اليه وقد اشتاق هذا الضم يلهو به كما يلهو بكأسه. قال وقد أكبر فيها عفتها مع استباحتـه الطهر والعفاف : أرأيتِ أن تستعيني بالصميل على اتقاء الإثم ؟

فزادت في تحشيمه واستحيائه معلنة بصوت بليل الجَرْس : اني لمستعينـــة بمكارمك على فقري وطهري !

فكاد يضحك من المستجيرة من الرمضاء بالنار ، من النعجة اللائذة بالذئب الخطّاف . وتعجب من نفسه كيف يكون واقياً للطهارة وهو المستحل المحارم على غلوائها . بيد أنه ما استطاع الا أن يؤمن بما ليس فيه فقال : لا تخافي ، أنت بامان ، فالصميل لن يغدر بكِ !

فشكرت وهي تبتسم . وابتسامتها أمعنت في احياء شوقه الى الحسن الجاثم بقربه والمكفوف عنه . فدغدغ كأسه يرشف الخمرة وليس يدري كيف يخرق حرمة العهد المقطوع . وندم وقد خلع على جليسته أمانه . قال : ومـــا اسمك أيتها الصبحى ؟

فأجابت بغنج ميّاس : عبدتك « تكفات » ، يا مولاي !

فقهقه ضاحكاً وهو يردد بمزاح : تكفات ؟... تكفات ؟... اسم جميل .

Twitter: @ketab_n

بيد اني أراك ابتدعتِه لتكفّيني عنك وليس يدل على انك تلك الرحبة المسماح !

فشاطرته ضحكة ولمعت بضحكتها ثناياها . فكاد يجنّ الصميل وقد غلبت الخمرة نهاه . قال : كل مـــا فيك يشغلني بك ، واني لاتعجب من نفسي كيف وهبت لك الأمان !

واتسع المجال لقهقهات فساح . وبدا للصميل ان الفتاة من البربر ، من هؤلاء اللاجئين الى الاندلس يتكسبون فيها بما يقدمون عليه من زريّ الأعمال وقـــد نبت بهم أرض المغرب الصلود . وتذكر ما تآمر فيه ويوسف بن بخت الفهري وما اتفقا عليه . وخطر له ان يركن الى بربري في أمر عبد الرحمن بن معاوية . فيكلف من لا صلة توثقه بالعرب الفتك بسليل العترة الأموية . فيجهل قدر الفتى ولا يتهيب . وغرزت عينا الصميل في البربرية المتوهجة فيهـــا شعلة الصحراء وقال : شاقتني فيك طبعة الحسن الجافي، يا « تكفات » . وأخشى وأنا أداعبك أن أعبث بعهدي لـــكِ . على اني وقد آليت على نفسي ان أصونك من وثباتي فسأرعى فيك ذمتي . وجلّ ما أدعوك اليـــه ان ترشديني الى بربري ضليع لا ينوء بما سأكلفه من عبء . ألا تعرفين فتى شجاعاً من بني قومـــك يقوى على انقاذي من عدو بغيض ؟

ففتحت أذنيها وعينيها على مدى وعيها. بمن يريد الفتك الصـ ـن بن حاتم؟.. وهي زوج « وانسوس » نفسها ، « تكفات » العاشقة التائبة . دفعهـا الزعيمان الأمويان الى الصميل لاغرائه واغوائه قائلين لها : « هو رهين طلعة روعاء ، على ان تحسني اسره والنجاة من شره وليس يعفو عن محيـــا وسيم ! » . فاطلقت ضحكة دلت على اعتداد وقالت : أما ان أقيده وامتلك لبه فليس أسهـل من ذلك عندي ، وأما أن أنجو من براثنه فسوف يبدو لكما انـــه عاجز عني . أرمياني به وأنا أقوده الى النار !

فأرشداها الى مقره وأشارا عليها بأن تدخل داره مستغيثة بـه من فقر ألمّ بها . قالا : لا بد أن يستهويه جمالكِ . فـاذا تودد اليكِ فلا تجيبيه الى الزلفى

Twitter: @ketab_n

ولا تخاشنيه ، بل كوني منه بين بين . واطلعي بمداهنة بارعة على مـا يحاول في الأمير عبد الرحمن . فاذا وضح لنا انه يريد بالفتى الأموي شراً أبحنا دمـه لوانسوس زوجك . وللشفرة الرهيفة أن تتكلم وتختاس الانفاس !

فأجادت « تكفات » تمثيل دورها وحبت الى دار الصميل تلتمس الرفد . فأبصرها سيد المكان ووقع فيها على جواذب صوارخ . انهـا لمن هؤلاء المناديات اليهن ذري الصبابة والموحيات بلاعج الهوى . وراق الصميل ان تكون من جواريه فاباح لها صدر مأواه . غير انه كساها الحرمة فباعد ما بينه وبينهـا . ولكنه اذا أباها على نفسه فهل يأباها على ما ينشد من مأرب ؟... وهو يعرف في البربر الشدة والشره الى البلغة . فالدريهمات القلائل تحمل البربري على سفك الدم عفواً ، دون أن ترتعش يده أو يتحشّم . ومن المحال أن تسلك هذه البربرية الجهيرة الطلة طريقها الى الاندلس بلا رفيق قد تكون أبواب الرزق سدت أمامه فاطلق لصاحبته أمرها في البحث عن لقمتها . ولماذا لا يستطلعهـا الصميل أمر رفيقها الناضب اليد ويستعديه على حفيد هشام الهابط من الغيب بفجاءة الزلزال؟

ان النزر من المال ليكفي ذلك الرفيق . ثم هو مغمورٌ ليس من يكترث له ويحفل بامره اذا ما ترصّد عبد الرحمن بن معاوية وحام عليـه للغدر به . و « تكفات » طربت لسؤال الصميل بن حاتم وما ركبت المتالف لسوى هـذا الأرب السمين . وادهشها من الوالي الحازم تسرعه في ائتمانها على سره . فلا ريب ان الخمرة تتكلم فيه . واستوضحت بحذر : أيروم سيدي بربرياً يثـأر له من خصم عنيد ؟

– اياه أريد ، يا « تكفات » ، فمن لديك ؟

فاطرقت كأنها تنقب اعماق ذاكرتها . ومـا لبثت ان قالت : يلوح لي اني اهتديت الى الرجل . بنو قومي في « قرطبة » كثيرون . متى يحتاج سيدي الى الكفيّ الندب ؟

– عندما تأتينني به ، يا ابنة الرضا !

Twitter: @ketab_n

– ولكنه طوع يدي ، اجيئك به في موعد عجلان اذا شئت !

– أيكون صلب العود ، ماضي الفتكة ؟

– انه لذو عضل صليب وطعنة بكر !

– أيسفك الدم ولا يرهب ؟

– بل يشربه لفرط ما يستعر فيه من ظمأ اليه !

– وهل يكتم السر ؟

– هو في السر أبكم ، نسيّ !

فصاح لفرط طربه : لا تبطئي به عليّ . فهو منشودي . أيكون في « سرقسطة » ؟

– هو فيها ، أيها المولى !

وما ابطأت عليه بالضالة . فجاءته برفيقها تقول : ها هو ، يا سيدي !

فتأمله الصميل معجباً منه بعرض صدره ، وفتلة ساعديه . قال يستجلي امره : من أنت ، يا هذا ؟... هل لنا أن ندري أي أرض قذفتنا بك ؟

فأجاب البربري المطلّ على الكهولة بتباشير تكاد تمحى ، فلا تبين الا بمقدار: أنا من أصحابك البربر . هجرت « سبتة » منذ عهد طويل وأضحت الاندلس وطني . غير اني شقيت فيها . فلا شجرها أورق لي ولا زهرها أثمر وما زلت في مغانيها المرزوء الهضيم !

فراق بيانه الصميل . ليس ما يثنيه عن استعباد هذا الصفر اليدين . قال يلاينه خاطباً وده : أتقضي ايامك في إملاق ولا تأتي الينا فنجود عليك بما يكفيك ويقيك ؟

فاعلن بحسرة المنتوف الريش : أطال الله بقاء مولاي ، وقفت بابواب فساح ينبع منها الخير الدفوق فما لقيت ذا معروف ، فيئست من زمني وكرهت دنياي . ولولا أن تقنعني « تكفات » بان الرزق لديك موفور لتحاميت

Twitter: @ketab_n

ازعاجك بشبحي المقيت !

فضحك الصميل وقال يؤاسي : مرحباً بك . ستلقى مجيباً . ما اسمك ؟

— « وانسوس» ، أيها المولى الكريم !

— اسمٌ بربري قحّ . أتكون ذا اخلاص لنا، يا «وانسوس»، اذا دعوناك الى إحدى المهمات الشاقة وأجرينا عليك العطاء الجزيل ؟

فانحنى « وانسوس » خاشعاً وقال : أيتمُّ لي أن أعتكف على خدمة مولاي وأرفض النعمة ؟... إني لكافر إذا فعلت !

فقال الصميل يدعوه الى الجلوس بجانبه : تعال إذاً . خذ لك هنا مكاناً ، على مقربة مني . سأفضي اليك بامر جسيم . ومطلبي منك ان تعتصم بالكتمان وإلا جنيت على نفسك . كنت أعهد في الأمر الى رجل من أعواني ، ولكني أؤثر أن يتولاه غريب . أتطيعك يدك في الاطاحة والتنكيل ؟

فابتسم البربري الكهل مستهيناً بما يدعى اليه وقال : ليطمئن سيدي . لست بمن يخيبه في الشدة !

فرشقه الصميل بنظرة حادة يعتلج فيها الاعجاب والاحتراز وقال : إذن يكفيك أن تعلم اننا سنعتمدك في الفتك برجل ناشز سوف يبدو فينا . دخيل يحاول فرض سيطرته على ارباب المكان !

وأفلتت الكلمات الاخيرة من فم الصميل على كره منه . جاوز الحد في ما أدلى به . وومضت عينا « وانسوس » . ادرك المبتغى . ما يريد الصميل سوى عبد الرحمن بن معاوية . فيا للانكد ، وقع على عجيب !... ليتدحرجن رأسه عن كتفيه قبل أن تسقط شعرة من رأس عبد الرحمن . غير ان « وانسوس » أخفى ما يموج في ضميره من نقمة والدهاء يفرض التستر في النيات وقال : كل من يدعوني سيدي الوالي الى القضاء عليه فهو هالك. ليثق مولاي بمضاء هذا الساعد وبامانة هذا القلب !

Twitter: @ketab_n

فقال الصميل وقد سكنت في جوانحه وخزة الوشك : بورك فيك . تعال أبداً الينا وأنت على أُهبة . لسنا ندري الموعد ، على انه قريب كما يلوح منه !

ونقده بضعة دنانير وأوصاه بان يحترس من البوح بالمضمر . قال : كن حافظاً للسر . رسولنا اليك هذه البربرية وهي من قومك وعارفيك . وإياك والتأخر عنا في النهزة . واتّق الخداع . فاذا رتعت في رضا الصميل فاخش غضبته وأنت تخاتل . وان تكن تجهل من هو فلتحدثك عنه ضحاياه !

وسدد اليه نظرة قاسية يروزه بها . فاطرق « وانسوس » لئلا تفضحه عيناه الساخرتان المتوعدتان . وانصرف يتمتم كلمات الشكر ويعد بالولاء . سيكون مطواعاً وفيّاً . والتفت الصميل الى « تكفات » وقد خلا بها يقول : يتراءى لي انك احسنت الاختيار . فمن جئتني به وثيق مقحام لا تروّعه الدواهي !

قالت تترنح اعجاباً بوانسوس : هذا خير من يعتمد مولاي في الصعاب . فهو أفضل بني قومي . ما عرفت رجلاً يضاهيه في ركوب الغمرات !

فاطرق . ان دعوة البربري النكرة للفتك بعبد الرحمن بن معاوية ضرب محكم الدهاء . فاذا أفلح تألقت الأمنية وحلا قطافها ، وان أخفق وظفر الاموي بسيادة الاندلس تبرأ الصميل من البربري المجازف واستحل دمه . وهكذا يربح في الحالين ، سواء نجح « وانسوس » أو خاب . فليس من رجاله ولا من قومه هذا اللاجىء المسترفد كي يجوز اتهامه بمشاطرته مكيدة الاغتيال

وشاع في الاندلس ان عبد الرحمن الاموي مقبل اليها برجاله ، وان خادمه بدراً يغدو ويروح على مفاوضة ومباحثة بينه وبين اليمنيين والمروانيين أنصار بني أُمية . فاقلقت الصميل هذه الانباء تسقط في أذنه وخشي الغد الجهم . فماذا يبقى له ، بل ماذا يبقى منه وقد تولى حفيد هشام بن عبد الملك إمارة الأندلس المجلوّة العز ، الخيّرة النوال ؟

واستمال اليه « تكفات » يحاول ان يتلذذ بها لينسى . فمانعت البربرية وهي تصيح : مولاي ، لا تنسَ عهد الأمان . الأمان !

Twitter: @ketab_n

فشدّ بها الى صدره قائلاً بصبوة جامحة الى اقتناص اللذة العجلى : ومتى كنا نقيم للعهود وزناً، يا عائبة ؟

فانتفضت على متطاير صيحتها : الأمان ، الامان !

وافلتت منه تشقّ طريقها الى الباب . فجلجل مهدداً : لا تلعبي بدمك !

فقالت وقد ماعت خشية واسترحاماً : هل يجوز ان يحنث سيدي في يمينه وينكث عهده ، هل يجوز ؟

فابتسم على كره منه وهو يراها غريقة مذلتها ، وقال وقد رقّ لها فؤاده الحيران : تعالي، أيتها المحاسبة في كلمة أطلقتها عفواً شفتانا . سنكتفي منك بضمة وقبلة !

فلم تجد بداً من الامتثال ، وأباحت له خديها . فطوّقها بذراعيه بعنف وجمجم : بل فمك أريد ، بل فمكِ . اني لفي شوق الى تقبيل هذا المبسم الريّان!

Twitter: @ketab_n

١١

– ما وراءك ، يا بدر ؟

وبدر وثب الى الاندلس لاستجلاء أمر « وانسوس » و « تكفات » . ماذا كان منهما في أنصار الأمويين ، وأي طريق مهدا للامير ؟... واتصل الخادم بالرسولين وبالكتلة الاموية وأيقن أن لعبد الرحمن بن معاوية بوارق من مستبشر الامل بنزول الاندلس سيداً . ولا بد ان تعترض الصدمات عزيز الأمنية ، إلا ان لا فوز بلا جهاد . قال والامير يسأله عن الاندلس وما فيها : تركت ورائي أصدق المؤيدين ، يا مولاي . انصارنا في الاندلس يتربعون في عنفوان القوة وكلهم يرجو الخلاص من حالة تمسخها الفوضى ويزري بها الخمول . وليس غير الأمير لنفض الهوان وإقرار النظام . فهو المنقذ الأوحد . ولقد ألحّ الحزب اليمني في رؤية أميره ممسكاً بقياده للعود به الى سامق مجده وفارط علاه !

– ألا تداهن ، يا بدر ؟

– اني لاتكلم في حضرة الأمير مولاي !

فانتشرت البهجة في طلعة عبد الرحمن بن معاوية . سرّه ان تنطوي له الاندلس على وفاء واجلال . ودعا اليه حكمون اليهودي يقول : ليتكلم فيك علم الغيب ، يا صاحبي . أوضح لنا أديم الغد . أنتابع الرحلة ؟... هل آن لنا أن نتنفس ، وان نبدد سحب القلق ، وننجو من دامغ البحران ؟

فأجاب حكمون برزانة العلم ووقار السن : رأيي في الغد لا يتبدل ، يا ابن معاوية . فالتوفيق مكتوب لنا باحرف من نور ونار !

Twitter: @ketab_n

فقال عبد الرحمن والثقة والتردد يعتلجان فيه : لننطلق اذاً !

وأعلن بدر متحمساً : لننطلق، أيها الأمير. فالمركب في الشاطىء بالانتظار. جاء بي من الاندلس فليعد بنا جميعاً اليها !

فعلت في الجميع صيحة واحدة تنبسط على نشوة : الى الاندلس ، الى الجنة المراع !

واندفعوا الى الشاطىء يحدوهم وهج من رجاء . ولاح لهم المركب الراسي في الخليج فوثبوا اليه وفي نظيرتهم عبد الرحمن بن معاوية . وعبد الرحمن ، مع شديد ايمانه بعلم الغيب ، كثير التفاؤل بالاسماء . فامسك باليد الاولى الممتدة اليه من المركب ونظر الى من ينجده بها ويحييه بحفيّ الاكرام وقال يستأنس : ما اسمك ، يا صبيح الوجه ؟

فأجاب المرحب المنجد بمسرّة تطفو على أساريره الملاح : تمام ، يا مولاي !

– وما كنيتك ؟

– أبو غالب !

فشاع في قسمات عبد الرحمن الرضا ، وطابت له التورية فهتف : الله أكبر ، تمّ أمرنا وغلبنا بحول الله !

واستقرّ وصحبه بالمركب . وداعبت نسمات الخريف خدّ الماء الساكن فارتعش وتجمّد كزمزمة الشفاه . واسعفتهم ريح ليّنة فجرى المركب على طمأنينة وبلغ ساحل البيرة في ناحية المنكب . وما أطلّ الفتى الاموي على عشيب الديار حتى أدركته حماسة الطرب فصاح : السلام على أرض سنحيي فيها المجد الخابي اللألاء !

وقفز الى الشطّ بهمة الفاتح الصؤول يطلق صرخته المرنان : دخلناها غزاة كما دخلها طارق بن زياد !

واقتحم خادمه بدر هاتيك الخمائل الندية شاخصاً الى الزعيمين الامويين

Twitter: @ketab_n

أبي عثمان وأبي خالد هاتفاً بهما : بشرا كما ، اقبل سيد الحمى وحامي الدار !

فزحف الى الامير جيش ضخم العديد من حملة الراية الاموية على حداء وهزج . فاليمن عاد أدراجه . وانتعشت الصدور بفوح المنى . لم تذبل ريحانة المجد . ووقف عبد الله بن خالد داره في « لوشه » على الأموي النبيل يرصع بالحسب اللباب جيدها . فمن الفخر لها ان تعبق خلاياها بانفاس سليل القادة الميامين . وجاء، بقليل من الخمر دفعاً للوهن والصفرة الآخذين به . فرفض عبد الرحمن ان يمد يداً الى الكأس وقال في من حوله : أنا بحاجة الى ما يزيد في عقلي لا الى ما يذهب حتى بمسكة منه !

فاستطار الاعجاب . هذا قبس من الهداة الراشدين . ودلفت اليه جارية في حسن ازهر ، فاشاح عنها بعياف أثيل معتذراً بقولة أرقّ من النسيم في عشايا الربيع : اني لاشفق على هذا البهاء من نفسي وزمني يشحّ عليّ بالمتعة . فعفواً عن التوائي في اقتطاف نواضر الرونق الزكيّ !

فتعالت صيحات الاكبار من الحواني وابتهجت الارواح . فالقوم حيال سيد نجيب لا تشغله ملذات دنياه عن ملك يتطاول الى تشييده ومجد يبغي نشر بساطه المطويّ . وتناقلت الألسن باعتزاز أحاديث الزهد في الأباطيل . وطنّ في مسمع يوسف بن بخت الفهري نبأ نزول الأمير الأموي الأندلس فكاد ينكب بالخبل . وطار بصلعته البرّاقة كأنها صفحة المرآة المجلوّة الى الصميل بن حاتم يتلهف ويستغيث بنائح الكلام : رحماك ، خولط في نهيتي . عدونا في دارنا، يا أبا جوشن !

والصميل بوغت بالنبأ . فما شخص له ان الطفرة تستطاع . فالامير الاموي يطير باجنحة رحاب . وطمأن ابن حاتم ووعد ، بل عاهد . فانطلق من لدنه يوسف بن بخت على استنامة . ونوديت الفتاة البربرية فصاح بها الصميل : أين « وانسوس » ، يا « تكفات » ؟

فأجابت متحمسة منتخية : في خدمة سيدي ومولاي !

Twitter: @ketab_n

– ولكن يجب أن أراه الساعة . فالأمر وافي الخطر !

– وسأجيء به الساعة . فاني أعرف أين يقيم !

– عجّلي في دعوته . لمثل هذا اليوم ادّخرناه !

فتوارت كالومضة وأطلت في ومضة . فكأن « وانسوس » يقيم بالباب . قالت وهي تدخل به على الصميل : ها هو . انه لينتظر العمل بما يريده عليه مولاي !

فأطال ابن حاتم النظر الى البربري العريض الالواح ، المتوقد الهمة . أيكفيه هذا السلب الشكيمة شر المفاجيء المقيت ؟... والتفت الى « تكفات » يعلن بلهجه قاطعة : دعينا على خلوة !

فلم يجد من الحكمة الافضاء بسره على مسمع امرأة . قال يخاطب « وانسوس» والقلق يعصف به : هذا أوانك . فهل تكون على أهبة ؟

فأعلن الزعيم البربري : أنا على ما يرغب فيه مني سيدي . ليدفعني الى الموت أسارعه فيجدني المطيع المجيب !

فأذاع الصميل وقد انتفى عنه الحذر : إذن فاسمع . هبط الاندلس فتى بغيض الينا يروم تعكير الماء . فاسقِ نصلتك دمه ولك العطاء الغمر !

فاستوضح « وانسوس » متجاهلاً : ومن هو الانكد ، يا مولاي ؟

فحاذر الصميل النطق بالاسم كأنه يخاف الاعلان . وحدق اليه «وانسوس» يرقب منه الجلاء فغمغم بلعثمة : هو ... هو عبد الرحمن بن معاوية ، دخيل سليط ينساب الينا على كاذب دعوى !

فتظاهر « وانسوس » بانه لم يفهم واستوضح : من ؟

– عبد الرحمن بن معاوية ، أمير أموي طريد زحف الينا في رهط من أصحابه يعيث في الربوع فساداً وينفث في الالباب سماً !

Twitter: @ketab_n

– أمير أموي ؟... وأين يقيم، يا مولاي ؟... لاطحنن عظامه ، والله !

– هو في دار عبد الله بن خالد في « لوشه » ، أتعرف عبد الله ؟

فهتف « وانسوس » كمن تجلت له حقيقة ليست خافية عليه : أعرف أبا خالد وأعرف مقره ، يا مولاي . أما الأموي فأجهله . غير اني سأسأل عنه وأجيئك برأسه . ثق بوانسوس وهو نصيح في الخدمة . أكل من خيرك ونعم برفدك وسيحقق رغائبك على مطلق اعنتها . في هذا الاسبوع سينتفض رأس العاتي عند قدميك هامد الطماح !

فابتسم الصميل مغتبطاً وكأن الاعباء المتراكمة عليه هوت عنه . وما تمالك ان جهر يعالن « وانسوس » الرضا : عوفيت . لكأني بك من طينة سامية المنتمى . ألا بالله عليك ، هلا حدثتني عنك ؟

فأحسّ من نبرات « وانسوس » ومن ملامحه بانه حيال موموق مرموق . فتأوه الزعيم البربري ، غير انه ما لبث ان ابتسم وقال بتمنّق الاحتشام : أنا ممن ارتضوا خدمة مولاي !

فجلجل الصميل : يبدو لي منك انك مجلبب بسرّ عجيب كأنك عزيز ذلّ ، فمن أنت ؟... قل ، بحياتي !

فأوضح « وانسوس » بصوت أنوف ، عريض ، مغلّف بالألغاز ، يوحي بالثقة ويمحوها معاً : سيقف مولاي على سري بعد انجازي ما عهد فيه اليّ . أنا اليوم في خدمته لبلوغ مطلبه ، وبعد ذاك سأميط عن وجهي اللثام وتنجلي لسيدي دخلتي . أما الآن ...

وانقطع عن الكلام متحسراً ، مكتوياً بالشجن ، وهمّ بالانصراف . فناداه الصميل يحضه على الاعلان : وانسوس ، هلا تكلمت ؟

فأجاب باعتداده الأشم : الأمور مرهونة باوقاتها ، يا مولاي !

وتوارى كالحلم في اليقظة . وتبطن الليل الى دار أبي خالد في « لوشة » .

Twitter: @ketab_n

أيبدو في الأندلس عبد الرحمن بن معاوية ولا يكون « وانسوس » في طليعة المرحبين بالامير الطرير ؟... وعبد الرحمن ما نغش في بصره الزعيم البربري حتى هفا اليه يعانقه على مرأى من الجميع وهو يعلن في من ضمهم مجلسه : هذا هو رجل المروءة والولاء . هجر ربعه وقومه لتأييدنا في وثبتنا الى الأندلس وليس له بنا معرفة ، ولا لنا عليه فضل وقد أثقل فضله عواتقنا . ان هي الا المكرمة الغراء أهابت به الى البذل من نفسه ومن يده . حياه الله !

فترقرقت عينا « وانسوس » وملاغمه بالبسمة الحييّة وقال : نحن في خدمة سيدي الامير على الأمد . ولن يهدأ لنا سعي إلا والحق مرفوع الهامة . فالمجد لا يهنأ في مثواه ان لم يتربع حفيد الأمويين في المكان الاسمى . ولاحقاق الحق نذيب المجهود وفي القلوب غمرٌ من عزاء !

فأذاع عبد الرحمن بفيض من اكبار وقد كاد يضيع في هذا السيل الهادر من الأريحية والمعروف : عوارفكم تنهال عليّ كعطايا النعيم في ليلة مهداء لا تضيق بالنوال . ولست أدري ، ورب الكعبة ، ما أقوى عليه في وفاء دين فادح أثقلتم به عنقي !

فضج المقام بصيحات السماح : كلنا للامير الهمام !

واستأذن « وانسوس » في خلوة بالامير وبالزعيمين عبيد الله بن عثمان وعبد الله بن خالد . قال وقد جمعتهم حجرة ضيقة : يشدّد عليّ الصميل في اغتيال مولاي الامير وقد أمهلني اسبوعاً . فالقوم دروا بنزول سليل الامويين هذه الارجاء وكلهم على هول ونقمة !

وجالت عيناه في عيني الفتى الاموي . فابتسم الامير ابتسامة بليلة وقال يستوضح مداعباً : وانت ما تنتوي ، يا «وانسوس» ، أيشوقك الفتك بصديقك عبد الرحمن ؟

فضحكوا جميعاً . وقال عبد الله بن عثمان : وانسوس ، عليك ان تشغل الصميل عنا برغبتك في انجاز طلبته ريثما نكون قد حشدنا قواتنا ، وفاجأناه

Twitter: @ketab_n

وصاحبه الفهري بما يذل فيهما الشموخ ، ويلوي الدلال الارعن . رجالنا يتلظون شوقاً الى هدم هذه الاصنام المتصدعة وسنظفر بها باذن الله !

فاعلن « وانسوس » بمضاء : آنا لكم على ما تريدون . فلن أتورع عن سفك دم الخبيث يوم تشتاقون محوه . ولا تنسوا ان يجانبه « تكفات » . فهي تخادعه عن نفسه ريثما نضرب ضربتنا ونسود !

فصاح الفتى الاموي بمستفيض الدهش : أتكون « تكفات » في خدمة الصميل ؟

فأجاب « وانسوس » خجلاً : هي أبداً في خدمة مولاي الامير ، وفي سبيله تستطاب أنكد التضحيات !

فتعاظمت المبرّة لدى عبد الرحمن بن معاوية . أيجازف لاجله « وانسوس » وامرأته بكل ما يملكان ، يجاههما وراحتهما وعرضهما ؟... ان هذا الافراط ليعدو كل منّة . وتولى الاطراق الامير . فالى كم يحتاج بناء العروش من فديات جسام ؟

وهاله الاسراف في السخاء ، بل هاله الحب المتقد في صدر « تكفات » . فهي تجود بكل ما عندها كي تضمن لمن تهوى ، على ضائع أملها به ، العزة والهناء

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

١٢

هذه الكاويات يطلقها الصميل بن حاتم تتطاير من شفتيه حمماً دوامغ . فهو في غضبة شرسة وقد ابطأ « وانسوس » في تحقيق المشتهى . فالاسبوع لفظ النَفَس . واليمنيون ، أنصار بني أمية ، جمعوا أفواجهم وأرادوها حرباً دامية لنصرة الفتى الأموي. مع أن الصميل وعد حليفه يوسف بن بخت الفهري بانقاذه من مزاحمه ولم يفعل . ويوسف يستغيث وتملأ صيحاته متناهي الآماد

وجلست « تكفات » بجانب هذا المخلوع الصبر تصغي اليه في سبابه وحنقه وهي تتظاهر بانها تشاطره التذمر والحقد مع انها، في مستقر دخيلتها ، على مثلج الحبور . ونبر الصميل متوعداً وهو في أقصى مدى من هياجه : تكفات ، ان لم يرجع اليّ « وانسوس » حاملاً رأس عبد الرحمن بن معاوية انتقمت بك منه . فلست أطيق ان يخدعني من عاهدني على الطاعة . أوهمني أنه سيقتله في اسبوع فاذا به يمسك عنه ويهب له من العمر ما حفزه الى حشد الجيوش لقتالنا . ولسنا نعجز عن مناجزته فنهدم منعته ونفلّ من غربه ، ولكنا أردناها ضربة حاسمة يتدحرج فيها رأسٌ ، لا رؤوس !

ففزعت فيه الى المداورة تقول : رويدك في غضبتك ، يا سيدي . ربما عانده التوفيق . سأجيئك به وتستمع الى عذره . فما عرفتُ أصدق منه مخبراً ولا أمضي يداً . إلا أن العقبات قد تكون صدته عن المأمول !

وخفقت من لظى فورته . فهتف من حنجرة بحاء يطغى على ألفاظها الألم المشوب بمسحة الاستعطاف : وأين هو،يا « تكفات » ؟... يجب ان أراه على الفور . ان حاجتنا اليه لماسة وهناك مصير امة ومستقبل دولة !

Twitter: @ketab_n

ـ لا يغضب مولاي . سأجرّه اليه بخيط أوهى من رثيث الصبر !

وبرّت في وعدها وهي على تفاهم وزوجها وكانت تلقاه خفية في مواعد اتفقا عليها . وما كاد « وانسوس » يبدو ازاء الصميل حتى رعد أبو جوشن بغليان الموتور : وانسوس ، ماذا فعلت ؟

فأجاب « وانسوس » متظاهراً بالحيرة واللهفة : مولاي ، بذلت جهدي في الوصول اليه فسدّت دوني الشعاب . كلهم له سياج وهم يلتفون عليه التفافهم على كنز وزين يخشون عليه من الارصاد . وخطر لي ان أدهمه في ليل ، فاذا المنافذ موصدة ، واذا جموع وافرة من الحرس تقوم عليها وتأبى ان يلجها راكب شبهة !

فارتبك الصميل وتعاظم فيه القلق . فالأمر من الخطورة بما لم يكن يتوهم . قال وقد لانت فيه حدته حتى أمست ضراعة مكلومة : ومـــا العمل ، يا « وانسوس » ، أليس من تدبير أصيل ؟

فأعلن الزعيم البربري : سانقذك منه واطفىء نور عينيه حـــتى وهو يعتلي سدّة الإمارة ولكن هب لي من الوقت ما يعضدني في الاحتيال على الفرص !

واذا الباب يدق . واذا يوسف بن بخت الفهري يبدو وهو يرتجف . فوشب الى لقائه الصميل على جزع رهيف مستوضحاً بلجلجة : ما بال سيد الاندلس في ارتعاش واكفهرار ؟

فتمطّت في الفهري المخاوف . وهوى في أقرب مقعد اليه متلاشي العزم ، قائلاً بكلام مهشّم وقد انتضى عمامته يكشف بها عن صلعته الوارفة وهو يختنق ويتحرق : أين وفاء الوعد، يا أبا جوشن ؟... افلتت الاندلس منا وسلبنا عدونا حقنا في السيادة وكاد لا يبقي على نصير لنا . جماعتـــه مشوا الى « قرطبة » وقهروني فيها وأضحوا سادتهـــا . قاعدة الاندلس دانت لهم وتربع الاموي في دستها . فأضحى سيد البلد وخذلني في الإمارة . وتكررت وعودك لي باغتياله ولم تنجز . أتنتظر حتى يخلعنا ويطيحنا ؟

فزاده رهبة على رهبة . غير ان الصميل أبعد همة من الفهري وأصلب عوداً.

Twitter: @ketab_n

فجاهد في امتلاك نفسه وقال يأسو الجراح : رويد الامير . من يجرؤ على اقتحام العرين لم تحبل به أمه . سنقتله في مستقره وعندنا من الجيش ما نحصد بـــه كل معاند . وانت ، يا «وانسوس» ، متى تشحذ خنجرك ؟... أتريد مالاً ؟... الى أي مبلغ تحتاج ؟... أتريد رجالاً ؟... في انصارنا كل بطّاش . لا يخطر لـك اننا في قحط باعتمادنا اياك وما ندبناك للجلّى لسوى كونك غريباً عنا، فـــلا يرتاب بك الامويون وأنت تنساب في الصفوف !

فقال « وانسوس » يتكلف المذلة : عفو مولاي عني في تقصيري . لم يخدمني الحظ الحرون . على اني سأغالبه وأتمكن منه . لن يصفو للاموي الجو وأنا له بالمرصاد !

فدمدم عليه الفهري متأففاً : هذه وعود أتخمنا بها . فمتى يحين العمـــل ولم يبق للتراخي متسع ؟... اننا لفي الموقف الفصل !

فرفع البربري رأسه وأعلن بصوت جهير كأنه يذيع يميناً صارخة: سأجيئكما برأسه وهو يوشك ان يصادمكما . فأوهمه اني أحمل اليه انباءكما وأودي به !

– أتفعل ؟

– ما كنت لاعاهد وأخادع ، أيها السيدان !

فضحكا معاً ضحكة حانقة مرتابة . هذا البربري القبيح يعد ولا يفي . فبدا من « وانسوس » انه تأثر وامتعض من سوء ظنها به وهتف بشدة : مصـــير الارواح بين أيديكما ، فـــاذا لم أحقق مطلبكما مني فاقطعا رأسي واطرحاني لكلاب الازقة !

فصاح الصميل : والأمر ما تقول . ان تكن تخادعنا فما عندنا لشفائك من قحتك ومكرك غير الخنجر والسيف نحصد بهما روحك ولا أسف عليك !

فأبدى الرضا . وغادر قصر الصميل وهو يفيض بالوعود والعهود . وجلس رب القصر الى سيد الاندلس يتباحثان والاضطراب يسودهما . قال يوسف بن بخت الفهري بصوت ينوح : ماذا ترى ، يا أبا جوشن، وقد اغتصب مني الدخيل

Twitter: @ketab_n

« قرطبة » ورسخ في صلب الامارة ؟... طارت منا الاندلس ، يا صاحبي، ولم يبق علينا إلا الرحيل أو الاذعان !

فأجاب الصميل جازماً ناقماً : قرطبة ليست الاندلس على مطلق مداها ، يا أبا عبد الرحمن . فلا نزال قابضين من الامارة على الشطر الأوفر ومعظم القوم في نصرتنا . فان يكن ظفر الاموي بقاعدة الدولة فما ظفر بالدولة كلها وسنذيقه حتفه قبل ان ينعم بامنيته الظلوم . أصبحنا من الطوارىء على احتراس . فان لم يكفنا شره البربري دفعت اليه أحد أبنائي ينسفه . فلم يتحطم سلاحنا ، يا أبا عبد الرحمن، ولم تجنح عنا الغلبة !

فطاب للفهري الايمان بما يلقي اليه الصميل ، الا ان الموقف لا يبعث على خصيب الأمل . قال سيد الأندلس بارتباك يخلع الطمأنينة ويعمي البصيرة : وهل نقوى عليه ، يا ابا جوشن ؟

– أتساورك الريبة بكوننا أشد ساعداً وأوفى عدة ؟... هو لا يثبت على منازلتنا . ان فوزه في « قرطبة » لسحابة عارضة . وما استنجدنا عليه بمن يقتله لسوى حجب الدم . فاذا قضى استرحنا ونضونا عنا الخشية . فليس سوى شبحه يقلق الصفو ويؤلب علينا الحثالة . وإن يعزّ علينا اغتياله فلن نمسك عن هدمه بقواتنا . فالى المضي في المناهضة، يا ابا عبد الرحمن !

فظل الفهري في ميعان . اما والصميل بن حاتم يريده على التمادي في النزال فسيقتحم على رغمه النار. وحشدا قواتهما على ضفاف نهر الوادي الكبير . فانطلقا بعشرين ألفاً من جيش « قرطبة » وبعشرين الفاً من « اشبيلية » وقد نصرهما القيسيون . ووقف ازاءهما ، في الضفاف المطلة عليها ، عبد الرحمن بن معاوية بجيش ضخم من اليمنيين . فالأندلس شطرت شطرين على هاتيك الشطآن . فأقامت تناوىء بعضها بعضاً بحزبيها المزمنين القيسي واليمني . واستبطأ الصميل اقدام « وانسوس » على الفتك بالأمير الاموي فصاح بجاريته البربرية : انتِ خدعتني به وتبعته في عنقك . ما جررتك الى الهيجاء إلا لاحرقك بنارها

Twitter: @ketab_n

انتقامـــاً إن لم يبرّ رفيقك الاشأم في عهده . أنركن اليه ويواربنا ؟... والله، يا « تكفات » ، اني لافني البربر على بكرة ابيهم إن يعرض لكما في بال الغدر بنا . أنا لست ممن يؤمنون ببربري ، إلا ان عذوبتك جنحت بي الى الثقة بمن لا اراه خليقاً بها . على ان لي من شفرة سيفي مـا يقيني الندم ويشفي الحسرة . فحذار، يا ابنة الانكاس !

فجهرت بنبرة ذليلة تسكّن بها وساوسه : مولاي ، في هذه الليلة يتم لك ما تشتهي . فيقبل اليك « وانسوس » بما وفق له في طاعتك من سعي !

– أيجيئني برأس الأموي ؟

– سيطرحه تحت قدميك ناضب الرمق ، خزيان الناصية . ويكفيك طامة النزال الاسحم ، المجهول المغبة . الليلة موعد الضربة البكر ، الدالقة الدم !

فصـاح وقد ذهبت البهجة الشبعى بكلوح الاسارير : ومن زفّ اليك النبأ المفراح ، رضي عنك الله ؟

فأعلنت بقوة في الاداء تروم بهـا صادق الاقناع : شاء « وانسوس » ان يفاجيء سيدي بالبشرى دون ان يدلي اليه بطرف منها . فيجلو له بغتة الهامة المضروبة امعاناً في المسرة . غير ان اللجاجة ، قاتلها الله ، قضت عليّ بالبيان المكره . «وانسوس» استطاع بدهائه ان يكايد الاموي . فأوهمه انه من النصحاء وبات لديه من الثقاة !

– أتذيعين حقاً ؟

– اني لاردد على مسمع سيدي مَقال « وانسوس » كلمة كلمة وحرفاً حرفاً !

فامتدت يده الى خصرها يطوقها بيمينه بفرط الجذل ويقبلها في شفتيهـا ويصيح بمديد الغبطة : والله ، انه ليزجي اليّ السعد على جمام اذا فعل . هـذا منتهى الصبوة . اني لفي نشوة رويّة مما تهدهدين به روحي من امارات الخير ، يا « تكفات » . ولكن حـذار التقهقر عني في سورة اليمن . فلن يشفع في

Twitter: @ketab_n

استكبارك عذرٌ وسأكرهك على ان تكوني لي . فلست اعرف امرأة عاندتني وصانها عنادها مثلك وكلما هممت بك انسللت مني . على ان لكل دلال اجلاً ، يا ذات الحسن اللهّاب !

فابتسمت وقالت بغنج : ليتئد سيدي في عبدته المطواع !

وماجت اعتداداً وهي ذات قدرة على المغالبة لا يقهرها فيها ذو حيلة وسلطان . وان تكن ونيت حيال عبد الرحمن بن معاوية فالحب أذلها وخضد فيها منعة الشكيمة فتخاذلت . على انها كبوة لا رجعة اليها ، ورضّة برئت منها . فهي للحبيب الأول ، لوانسوس ، على ما اعتراها في مودته من فتور وبحران. وليس للصميل ولا لسواه ممن يدعون السيطرة على الخواطر ان يظفروا منها برعشة جوى . وليحاول أبو جوشن ما يختلج فيه من وسع ولا عليها إذا ناء بالخيبة !

ولم يقلقها ان تقيم في مضارب الجند وان يقول فيها كل من رآها انها إحدى جواري الصميل . فالفداء الحابسة عليه نفسها يقدر الاستخفاف بالظنون . ثم هي مؤمنة بان ثواءها في معسكر أبي جوشن قصير الأمد . فما أن يطلّ « وانسوس » حتى تنساب في خطوه الى موئل السلام

والزعيم البربري سيبدو في مضارب الصميل . فلم تكذب « تكفات » في ما أعلنت . وتبرم أبو جوشن بما تهيب به اليه في وصالها من تؤدة فنبر : أراني صبرت طويلاً على تيهك ، يا « تكفات » . والاستطالة في تماديها مهانة . وما أنا بمن يغفو على قهر . فاذا أبيت ألا أن تبخلي على الصميل بنواضرك اغتصبها وأنفك راغم . فلا تكابري اذا شئت ان ترسخي في مكانتك مني !

فرأت ان تلاين وان تعد . وبين الوعد والوفاء مهيعٌ سحيق وعر . قالت بابتسامة حييّة تنبسط على مواءمة : ما كنت لاوجع روح سيدي . ففي هذه الليلة سنندفع الى لقاء « وانسوس » ... وسنرى !

فصاح وقد أضاءت في ناظريه الامنية الخضلة : نرى ماذا ، يا « تكفات » ؟

Twitter: @ketab_n

فأطرقت وتورّد خداها وتمتمت بخفر عذب : سنتدبر ما يبتغي مني سيدي ومالك عناني !

فشدّ بها الى صدره حتى كادت تقضقض أضالعها وجلجل : أتكونين لي فاغرف على مدى وسعي من هذا الحسن السيّال بلا منّ ولا امساك ؟

فحدجته بنظرة واعدة ، واسرعت فاخفت وجهها في صدره خجلا . وسمعها تغمغم : ليس لي أن أزيغ عن شهوة مولاي !

فتناهى في العناق هاتفاً : يا لها من ليلة زكيّة العرف وساظفر فيها بأغلى أمنيتين !

وحن الى الشراب واستوضح يجزيل البشر : وأين نلقى « وانسوس » ، يا « تكفات » ؟

فأجابت وقد أضحت ملمّة بخفايا المكان : عند عين الصخرة ، يا مولاي . فالجلوس يطيب في ظل السكون النديّ !

وعين الصخرة رسيلة الماء ، بعيدة عن المضارب والحراس ، يخيم عليها السنديان ويترنح حول مساربها القصب وقد تفجرت من كبد جلمود أصم شاهق أملس . واستلذ أبو جوشن اقتطاف ثمار الهوى في المنتجع السلسال ، بيد انه استجلى : وهل يلمّ « وانسوس » بمقامنا هناك ؟

فأبدت البربرية بتوكيد حاسم : عين الصخرة طريقه الينا . فلا بد أن نشعر به وهو يجتاز الى خيامنا هاتيك الانحاء !

فاطمأن الصميل وركن الى ما تبثه « تكفات » من صبيح المقال . وما اكتنزت العتمة وخلعت على المضارب ملاءتها الدكناء حتى كان خيالان ينسلّان من المعسكر كالارواح . وهتف بهما الحرس فاعلنا كلمة السر ومضيا في شق حجاب الليل يتغلغلان في جوانح الظلماء . وما قعد بهما الجهد إلا وقد تبطنا عين الصخرة . فجثما في كنف السنديان الجليل الكبير ، الوقور الصمت . ان هما إلا

Twitter: @ketab_n

الصميل و « تكفات » . اقبلا للقاء « وانسوس » وللاكتواء بلاعج الاشواق . ولا بد من الخمرة تذكي لهبة الوجد وتزيد في بسطة النشوة . فصب ابو جوشن لنفسه كأساً وللبربرية كأساً وهو يقول بفيض من جذل : لنشرب، يا «تكفات»!

فأجابت بمستطير الايناس : لنشرب ، يا مولاي ولنطرب ، فهي ليلة جمعت المتعتين معاً ، الخمر والأمر !

فشاقته براعة الاداء . هذه الأعجمية تلمُّ بنجائب العرب . وهوى عليها يرشف من كأسها الراح ومن شفتيها ، ويقول متمتعاً في البيان : والله ، حرقتني بنارك . فما أنا غير وقود أفنى في لهيبك . فكيف استطعتُ حتى الساعة الصبر عنك ؟... اني لاجهل نفسي وقد جلست اليك ولا اراني غير مسحور يتلاشى هياماً بك . ألا أين « وانسوس» يقبل برأس الغر المأفون فيتناهى حبورنا ؟... أيجيئني به الليلة ؟... ماذا قلت ؟

فأبانت تبالغ في الارضاء : الليلة ، الليلة يهلك الوغد ، يا مولاي !

وسقته من فيها ومن يدها وهي تعلله بالأمنيتين الصبيحتين ، بنفسها وبرأس الامير الاموي . وجارت عليه وهي تسقيه . فألقى رأسه الى زندها ، فالى ركبتها ، وسخا بالهذيان . وما لبث ان غفا منهوك المهجة لا يلوي على الكأس والساقي . فأرهفت « تكفات » اذنيها ترجو ظهور « وانسوس » . انها لنهزة يتيمة تستصرخ اليقظة لئلا يحرد الحظ وينثني . و « وانسوس » وعد بالانسلال الى العين الرويئة ، بل هو دعا « تكفات » الى الاندفاع بالصميل الى المكمن الخالي . فاليد يده في التدبير ، فما به يتباطأ عن اقتطاف الجنى ؟... وتململت البربرية وهالتها الخيبة . فليس لها في كل آن ان تظفر بالمغنم السمح ، فتجنح بالصميل الى النأي عن جيشه في خلوة مهدت لها في العراء

وسمعت وطء اقدام . أيكون « وانسوس » ،... وقلقت واطمأنت . إن يكن زوجها من يضرب كبد الليل فيا لنداوة اللقيا !... وعرفت الساري من وقع خطوه فخفق قلبها خفقة المسرة . هذا هو « وانسوس » بعينه . وشقّ عنه

Twitter: @ketab_n

الظلمة كنصلة تندلق من غمد . ففحّت البربرية وقد نغشت اغتباطاً : جئت في اوانك . اليك به . سقيته حتى انطفأ وخشيت ألا تبدو . هو هـامد الحس ، فافعل به ما شئت !

فأضاءت وجهه بسمة ارتياح شامتة تكشفت عن نوازعه الى الاستئصـال ، ونبر جذلان : أحسنتِ !

وانقضّ على الصميل المتلاشي في غيبوبة السكرة يكمّه ويشدّ وثاقه ويحشوه في كيس رفعه على ظهره فيما يعالن زوجته : إلحقي بي !

وغارا في الحلكة . واجتازا المعابر الآمنة الى الضفة المنتشر في منبسطهـا جيش الامير عبد الرحمن الأموي . واتسع للزعيم البربري الامد الى خيمة الأمير الساهر لامتلاك الاعنة . وعلى مرأى من الفتى الاموي المهيب ألقى «وانسوس» عن ظهره الكيس الراجح الزنة ، الطفحان . وتنفس ملياً وأجـال في من يضم المجلس باصرتين ترشحان بفضفـاض البهجة . وتألقت في وجهه المتحلّب اقداماً بسمة يموج فيها اعتداد الكفيّ . فهتف ابو عثمان وأبو خالد وقد لاحت لهما على ضوء المشاعل اساريره المكتنزة بشراً ومضـاء : ماذا ، يا « وانسوس » ?... هل افلحنا ?

فأشار الى الكيس المطروح في صدر الخيمة وأعلن بطرب وقور : صاحبكما هنا ، في هذا الكيس . لا تزعجاه . فهو سكران !

فانتفضا للمباغتة . ووثبا على الكيس بدهش وذهول . فنضا « وانسوس » عن الجثمان ونبر جازماً مباهياً : هذا هو الصميل !

فاخرس الاعجاب والارتياع الزعيمين الاموين وقد بدا لهما الصميل بن حاتم مشدود الوثاق ، مكموماً ، شبه ميت ، تنتشر منه رائحة الخمر كأنه حانـة . فهما ، مع اكبارهما جرأة «وانسوس» ، خافا يقظة العاتي الغضوب . فما يكون من أبي جوشن وقد استفاق ورأى نفسه موثوقاً ، محشوراً في كيس ، وأسـير عبد الرحمن بن معاوية ?... وتهيّب عبيدالله بن عثمان وعبد الله بن خالد الموقف

Twitter: @ketab_n

الحرج ، الوخيم . وشعر « وانسوس » بما يعانيان من رهبة فقال هازئاً : أتخشيانه ؟... ولكني أقتله لكما الساعة . فأي باعث على اتقاء سولته وهو ينوء بقيوده في قبضتنا ؟

وانتشى عبد الرحمن بن معاوية والصميل يلوح له مضروب الرباط وجهر : عوفيت ، يا « وانسوس » ، وبورك فيك . انك للهمام الندب !

وانطوى على الزعيم البربري يعانقه امعاناً في الشكران ، وشخص برخيّ المرح الى جثمان أبي جوشن وشفتاه تغمغمان : حمداً لمن جرّه الينا مخذولاً ولم يجرنا اليه مدحورين !

وفي هذا الجو الخانق نفض الصميل عنه غشيته وهزته الوهلة. فاين هو ؟... أيحلم ؟... انها لرؤيا صاعقة هذه الاشباح الدميمة المتألبة عليه . ورفّت دراكاً اهداب عينيه وماع قلبه . هذا ليس حلماً بل حقيقة صارخة . فان أبا جوشن ليبصر أبا عثمان وأبا خالد الزعيمين الأمويين . وهذا ، مَن هذا الفتى الغضّ الاهاب ؟... ليس يعرفه . على أن ملامح النبل الناطقة فيه تشير الى انه الأمير الأموي عبد الرحمن بن معاوية ، أفلا يكون عبد الرحمن ؟

وأيقن الصميل انه بين أيدي اعدائه ، فمن دفعه اليهم ؟... هل ألمّ به الغدر الماحي ؟... وماجت عيناه بخجل على ما يزحمه من صدعات . واجهد ذهنه فذكر . كان عند عين ماء يجرع خمرته بجانب « تكفات » ويضم اليه الفتاة البربرية . ثم ماذا ؟... ليس يدري وقد رنحه السكر . بلى ، كان يرقب « وانسوس » كي يجيئه برأس الامير الأموي . ولكن « وانسوس » و« تكفات » هنا . « تكفات » تبسم للامير والامير يبسم لها . و « وانسوس » ينظر الى الصميل مستهيناً ساخراً . أُفٍ لهذه المشاعل المتوهجة كم تعرض عليه من رسوم نكر . ولكنها رسوم واضحة متكلمة . فتجلى الموقف للصميل . ذهب ضحية مكيدة دهياء . فما كان « وانسوس » و « تكفات » غير عينين عليه للامير الاموي ، فاوقعاه في الاحبولة واقتنصاه

Twitter: @ketab_n

وجرض الصميل بريقه حرقة . واغمض عينيه لشدة وجله . ليس يريد أن يرى . وسمع من يناديه باسمه . فاضطرب . قال مخاطبه بجفاوة تختلج بوميض من مزاح : مرحباً بك، يا أبا جوشن !

وما خلت النبرة ، على رشحهـــا بخفي السخر ، من جلال الاداء . فادرك الصميل ان عبد الرحمن بن معاوية يخاطبه فاستخذى . وشاء النهوض من بطحته وقد اذلت ناصيته فتململ في وثاقه واغضى . فأعلن الأمير الاموي بدماثة الحلم : فكوا عنه وثاقه . ما جئنا به الينا كي نرضّ منه الانفة !

ونظر اليه وقـــد استوى عوده يقول بكلام باسم ، غضير ، بريء من درن الشماتة والحقد : يسرُّنا ان نتعارف، يا ابا جوشن . هذه الطلعة المهيبة طالما اشتهينا الاستئناس بها . والله ، ما اردناها لك ذلة تكويك ، إلا انهـــا الحرب وهي خدعة،يا صاحبي . فرميناك بمن يحتال عليك كي يقف على مأربك فينـــا . وبدا لنا منك انك لن ترأف بنا فدعونا الى اسرك، لا الى قتلك . فما «وانسوس» و « تكفات » من سوى الدعائم الركينة في شملنا ، من الاصلاب . وهما زوجان من كرام البربر . ان « وانسوس » إلا زعيم قبيلة يافعة من قبائل المغرب جـــاد علينـــا برفقه ومروءته . ولقد كان بك براً فامسك عن ايذائك والأمر بوسعه . فعفواً عما نالك من جهدنا ، ان الصفح لمن سجية النبيل ، يا ابا جوشن . ويحلو لنا ان تتوسد في نادينا ما انت به حقيق من مقـام وعزة ، وان تشفق على الارواح فتنادي بالمهادنة وتسلم الاندلس من الدمار !

فثـارت في الصميل عنجهيته وقد تبينت له معامي الاحبولة المضروبة عليه امراسها ، فجهر بقسوة الحانق الموتور : لا تحدثني بما ليس امره في يدي !

فما زاغ الامير الاموي عن ليانه واستوضح بتؤدة كأنه لم يسمع الصميل في خشونته الجافية : ومن نحدث بالمهادنة ، يا صاحبي ، رحمة لبني قومنا ؟

فجلجل الصميل بغلاظة غامزة : عليك بيوسف بن بخت الفهري ، فهو سيد الاندلس واليه مردّ الامر !

Twitter: @ketab_n

فسأل الامير الاموي برحابة لا يزال يشيع فيها مكتنز الحلم : وأين هو سيد الاندلس ، صديقك الحميم ، يا ابا جوشن ؟... فلسنا نرغب في نفث الاحقاد بما لا يأذن في اندمال الجرح !

فكان الجواب خادشاً نابياً عن كل احتشام : إبحث عنه فتجده ، لست موكلاً بالاهتداء اليه !

– أنبحث عنه وأنت تعلم أين هو ؟... لماذا تكلفنا المشقة ؟... صان الله مهجتك من العناء !

فهاجت في الصميل ضغائنه وصاح بغيظ واستطالة : والله ، لو كنت ادري ان يوسف تحت موطىء قدمي وكلفتني رفع رجلي لتراه لابيت تحقيق الرجاء . ومن تكون فينا كي تباحثنا في المهادنة وما انت غير دخيل طريد ؟

فصرخ عبد الله بن خالد منكراً على الصميل الصلف والزراية : بل هو الداخل لا الدخيل ، يا ابا جوشن . هذا من دخل الاندلس بقوة ساعديه لتنظيم امرها واقرار حق اهلها فيها !

وعلت الاصوات من كل جانب : الموت للوقح السليط !

ودنا « وانسوس » من الامير الاموي ينشده : أبحْ لي دمه ، يا مولاي !

فرسخ عبد الرحمن في حلمه وهو الموقن ان الصفح ادعى الى الظفر بالمودات : بل انا اعفو عنه واودعه السجن ريثما يستعيد هداه . فهو الساعة في نزوة تنكر لكل رشد !

فهدر الصميل : الموت أحب اليّ من عفو تطوق به عنقي،أيها المستعين علينا بالختل والغدر !

فاكتفى عبد الرحمن الداخل ، كما قال فيه عبد الله بن خالد ، بان يرفع يمينه ويذيع في رجاله باعتزاز المقتدر العيوف : ألحدوه السجن !

وسرح في الآذان ان الصميل بن حاتم ضاع اثره فقلق رجاله حتى كادوا لفرط ارتياعهم يعمون عما اقبلوا فيه . وهلع يوسف بن بخت الفهري

Twitter: @ketab_n

والصميل لديه البصيرة المحكمة والكلمة الهادية . وتطـــايرت غمغمات الجزع والحقد لما سقط الى القوم ان ابا جوشن اسير عبد الرحمن الداخل . فانخلعت الاكباد وهاجت الاوتار . فأي مغامر اقتحم حرز الصميل واختطف عنوة أبا جوشن هازئاً بالسور الاشم من الجند الشاكي السلاح المضروب عليه كالخاتم في البنصر ؟... وتداعى الفهري كأن بُترت يمينه وهو يصاب بابن حاتم الكفيف النصوح . وبدا في أعوانه ضيق الصدر ، مرضوض النهية

وزحفت اليه قوات الامير الاموي فكاد يغور في نفسه ذعراً ويدعـــو الى النجاة . ولكن ابنه البكر عبد الرحمن ألحّ في المواقعة وقـــد أمسى القتال ضرورة ملحفة . وتصادم الجيشان . وخاض حفيد هشام لظى النار بهمة غلباء لا ينثني له دأب . فقاتل برمحه وسيفه لا تنبو له فتكة ولا تكبو عزمة . فاحيـــا ومحا . أحيا رجاله وقد خجلوا ان يهونوا فيما يستبسل ، ومحا اعداءه وهو ينقض عليهم صاعقة كاسحة وسيلاً جرافاً . فتخاذلت كتائب الفهري وقبض عبدالرحمن الداخل من النصر على الازمّة

وجاء من يفاوض في الصلح . ان يوسف بن بخت الفهري ليستندي الامان . فما تعبّس الاموي الظافر للسلم ينشر ظلاله وما هبط الاندلس مدوّخاً بل واقياً عاصماً . ولكن هؤلاء الناعمين بالجاه في حمى الفهري خافوا ان يشيح عنهم الرفد وقد ذلت للاموي الناصية فحرضوا ابن بخت على المضي في المناحرة . لا مقام في الاندلس لدخيل . فكبر الأمر على عبد الرحمن بن معاوية وخشي أن تزلق عنه الغلبة وهو يوالي الطعان . فالميرة نفدت ، والجيش يلتمس الزاد . وباح الامير بما يشيع في نفسه من وهلة ، فهتف « وانسوس » بحماسته الدفوق : على رسلك ، يا مولاي . أنا أخلع عنك شر العاجز الجبّير !

ودهم الصميل في محبسه صارخاً بـــه بشراهة الى اختلاس الارواح : أبا جوشن ، حان الحين . فتأهب للقاء ربك نقيّ الضمير !

وهجم عليه فخنقه . واحتزّ رأسه واخفاه في جراب شاخصاً به الى معاقل الفهريين . فبلغها في الديجور . والفهريون ما برحوا يرون فيـــه جاسوساً على الامويين اعدائهم . فما استكبروا ظهوره فيهم وقد تحلقوا عليه يستوضحونـــه

Twitter: @ketab_n

الحالة في مضارب عبد الرحمن بن معاوية . فابتسم الزعيم البربري معلناً : كلهم على ضعضعة . فالاشراق سيعقبه الافول . ألا خذوني الى سيد الاندلس . فان لديَّ ما يثلج صدره ويمرع بالغبطة نفسه !

وسيد الاندلس ، يوسف بن بخت الفهري ، يحبو الى « طليطلة » ليستعيد فيها روعه وينضو عنه خيبته . فيجمع جموعه ويستنقذ امارته المهيضة الضلع . وضرب خيامه على أربعة أميال من المدينة بغيته في النصرة والعون . وما ثقب وعيه ان « وانسوس » البربري يزحف اليه في بشرى نديّة الوجه حتى جهر مستمسكاً بحبل الأمل الرث : ألا يزال على حياة هذا المماطل الكذوب ؟

وفسح له اليه . فما يحمل « وانسوس » من نضير ؟.. وأضيء في خيمة الفهري سراج من الزيت كشف عن أسارير تفشاها الحيرة والغمّة وينطق فيها الخوف والهزال . وانحنى « وانسوس » في حضرة سيد الاندلس المدحور يقول ببسمة ترشح بالاجلال والطاعة : عفواً عني وقد تقاعدت عن الانجاز . فالمواقف عاندت ، الا اني ما برحت اصاولها حتى تمكنت منها وشفيعي عطف مولاي !

فاشرقت أسارير الفهري وهو يبصر بالجراب في يمين البربري . واستقصى بغبطة رقصت لها مهجته : وهل جئتني برأسه ، هل فتكت به ؟

فأجاب « وانسوس » وفي ناظريه بريق : اذا خلا بنا المكان علم سيدي من أمر عدوه ما ينتشي به خاطره !

فأعلن يوسف بن بخت في رجاله : ألا انصرفوا . سأنشر عليكم النبأ السّار فور انقضاء خلوتنا !

وبقي في المضرب ثلاثة ، الفهري ، وابنه عبد الرحمن ، و « وانسوس » . ومال سيد الاندلس المتداعي الشوكة على الزعيم البربري بعينيه واذنيه وقلبه مستوضحاً بوارف الحبور : هل أنقذتني منه ، أيها المكافح البطل ؟

ورقب ان تقع في أذنيه البشرى لتتعاظم المسرة . فأجاب البربري بانتفاخ عارم : لم أبقِ فيه على نبضة . فليهنأ مولاي !

فغمرت موجة من البلسم يوسف بن بخت الفهري وهدهدته المنى السماح .

Twitter: @ketab_n

أضحى وطفاح يديه النصر بعد الادبار . كل منافس في الأندلس سكتت نأمته وبات أبو عبد الرحمن سيداً فرداً . وجمدت عيناه على الجراب وهو يتوهج شوقاً الى رؤية الرأس المقطوع . ولاح له من « وانسوس » انه يتباطأ فصاح به : عجّل ، ويحك !

ففتح البربري فوهة الجراب ونظراته تنصبّ على الفهري . واذا وجه يوسف يبدو في كشرة دميمة تتطاير رعباً . فاتسع فمه وجحظت عيناه في وقبيها كأنهما تبغيان الفرار للخلاص من هول ما تريان . وتلجلج في قولته فدمدم على البربري هلوعاً : لك الويل ، هذا الصميل بن حاتم لا الفتى الأموي !

فأذاع « وانسوس » بحدة يتواثب فيها صافع الازدراء : بل هو الفتى الأموي ، يا مولاي !

وانحنى عبد الرحمن ليلمّ بما يبطن الجراب فما كان من « وانسوس » إلا أن صدم سراج الزيت فقلبه عن مستقره فانطفأ . وبوغت الفهريان فصرخا صرخة مروّعة يستنجدان بها من الملمة الشادخة ، الا أن الزعيم البربري قطع فيهما كل نفَس بطعنتين حاسمتين كأنه النمر الخطّاف الوثبة ، الظامىء الى المنجيع . وشقّ بنصلته القاطرة دماً صدر الخيمة وفتح له بمضاء الشرر منفذاً وهبه للظلمة تعيده الى معسكر الأمويين

وفيما تمور المضارب الفهرية بالرعدة والقحمة المفاجئة ، الدامغة ، تهزها ولا تبقي فيها على نضاضة من هدى ، وقد جمدت العيون هولاً على جثمان أمير الأندلس وجثمان ابنه عبد الرحمن يغوران في دمهما ، وعلى رأس الصميل بن حاتم المقطوع والراكد في قعر الجراب الأغبر ، كان « وانسوس » يلتهم السبل من غور ونجد ، وسهل ووعر ، الى عبد الرحمن الداخل الجاثم في كتائبه في حصن المدور يستنبىء النهار والليل أخبار البربري الأمين

وأطلّ « وانسوس » عاصفة كانسة يعرض على الفتى الأموي شفرته المخضبة بذوب الأكباد . فهتف عبد الرحمن وقد أبصر البربري الصؤول هتفة المقيم على تعلّة قلقة : الا ماذا ، يا صاحبي ، ماذا ؟

Twitter: @ketab_n

فابتسم الزعيم البربري ابتسامة خضلة معجبة ، وأدنى النصلة الحمراء من حفيد هشام معلناً بمرح رخيّ : ألا يرى سيدي الامير ؟

فومض الاستبشار في طلعة عبد الرحمن واستنبأ باسراف في المرح : هل أوديت به ؟

– بل بهما، أيها الأمير . به وبابنه معاً . وسخوت عليهما برأس الصميل . فالثلاثة يعضون في جوانب «طليطلة» التراب بين عويل الجند المذعور ووعيده. اعز الله مولاي وكتب له دوام السعد . كل عقبة أضحت ممهدة . اني لأهنئه بملك وطيد ويمن مديد باقيين على الدهور !

فوثب عفواً عبد الرحمن الى « وانسوس » يعانقه بفيض من اعجاب وشكر ويعالنه بنداوة الاقرار بالجميل . ولكنك مشيد هذا الملك،يا « وانسوس » . انت باني الدعائم على الاسّ المنيع . فشكراً للاقدار وقد أنعمت بك عليّ !

وصرخ برجاله : هلموا !

وحشد حوله سبعمائة فارس احرق اغماد سيوفهم لئلا تجد نصال بواترهم اجفاناً غير الصدور تنغمس فيها ، وهجم بهم على معسكر الفهري هادماً ، قاهراً ، مزلزلاً . فاضطرب جيش يوسف بن بخت وسقط في يده حيال المغامرة الكاسحة ، وطوى جناحيه مستنيماً الى تيه القدر الزلوج

وأغار « وانسوس » على مضرب الفهري يفصل رأس يوسف بن بخت ورأس ابنه عبد الرحمن عن جثتيهما ويدعو اعوان الاموي الى رفعهما على نواصي الحراب . ولقيت جمجمة الصميل هذا المصير الاشأم ، الدميم . وظفر الامويون بابن الصميل البكر ، يحوشن ، فعدلوه بابيه وقد خلعوا هامته وشكّوها في ناتىء السنان . وطافوا بالرؤوس الاربعة في ساحات « طليطلة » ينادون بسيطرة عبد الرحمن الداخل على الاندلس جمعاء . قضى امير وقام امير .فكبّر الناس . رسخ الحق في اهله وزها السلطان بابن الاكرمين . لم تضق الارض بوكر وثيق يشيده نسر أموي رهيف المنسر ، مكتنز الريش .

Twitter: @ketab_n

١٣

بعد ثورات ومحن ، وصدعات وطمحـــات ، من جحود نسيب الى انقلاب صديق ، ومن فضح مكيدة الى حبك دسيسة ، ومن درء عدوان الى فورة بطش ، وبعد سعي للوثوب على المشرق لاستعادة المجـــد السليب ، واحتراز من هجمة ابي جعفر المنصور الناظر من صـــدر العراق بعين خشيا الى الدولة المتحفزة الى الاشراق في ربوع الاندلس المورقة الاماليد ، وبعد اتقـــاء اغارة ملك الفرنجة « شارلمان » على الامارة المستطيلة اقداماً يهدد بالاندلاع والتدوبخ ، هدأ جنبا عبد الرحمن الداخل على مضجع وثير ، وديع ، وتنفس المجـــاهد الاروع عن اطمئنان وخفض . فالزمن استراح بعد كيد ناهش وغدر حثيث .

وفي احدى العشايا ، المترنحة فيها انفاس الربيع حتى لم تكن تتماسك لفرط نشوتهـــا الوهون ، حفلت خمائل قصر قرطبة المنيف بخمسة من ذوي القدر يستظلون في ء السرو الجليل . هم ثلاثة رجـــال وامرأتان . وضحك البشر في الوجوه . وتكلم احدهم وهو شيخ طاعن في السن انتشرت البسمة في أساريره فزادتها غضوناً على غضون . قال بدالة فيحاء : والان ، ايها الامير ، وقد ملكت الأمر من جميع اطرافه ، وانضوت الاندلس اليك على متمادي بساطها ، ولم يبقَ لأعدائك شبح يهدد ، ولا أثر ينتفض ، فلنعقد لك على زينب ابنة عمك وكلنا يرقب الموعد الانيس !

فرقّت بسمة الرضا في شفتي عبد الرحمن بن معاوية واعلن بلين مسماح مطمئناً الى الرغبة الحلوة : ليُعقد لي عليها الليلة ، يا حكون . زينب ابنة عمي ومكان الروح مني . ولقد جاهدت في سبيلي جهـــاد المغاوير . فلتكن اميرة الاندلس

Twitter: @ketab_n

. لن تزيد فيها الامارة المجد الاثيل !

ومال على « تكفات » يقول مباسطاً كأنه يروم استشارتها في ما يتأهب له من إباحة قلب وعقد مصير : وما رأيكِ انت ، يا ذات الاخلاص الاوفى ، الباذلة في سبيلي خفقة الروح وضياء العين ، في ما يدعوني اليه حكمون ؟

فأجابت البربرية بنقاوة ضمير تدفع بها عنها خلجة الحب الفارطة : سيدي ابن الاماثل الصيد ، انت وزينب كوكبان نستضيء بوهجها . وأروع ما نشتهي ان نبصركما تتهاديان معاً في موكب الحب الهنيء . فالاندلس تتعاظم غبطتهـــا وانتما تدرجان فيها على بسمات الهوى النضيد !

فقالت زينب وهي لا تتمالك لبليغ مسرتها : شكراً ، يا « تكفات » ، فالدر من معدنه . لك ولزوجك علينا يد المنقذ الصدوق !

فأعلن عبد الرحمن ببيان نمير يجري على سلاسة ريّا : اني لغريق افضالكم جميعاً . كلـكم ردّ عني الهوان . فهل انسى جميل صنيعك ، يا حكمون ، وقد سللتني من مكيدة امير المغرب عبد الرحمن بن حبيب الفهري ؟... وانتما ، يا « وانسوس » ويا « تكفات » ، اي مكافأة استطيع فيكما ومروءتكما دفعت عني مستفحل الشر فساعدتماني على بلوغ مطلبي بتضحية المتفاني النصيح ؟.. ما انتم سوى أجنحتي بها أصفّق وأطير . أقمتك وزير إمارتي ، يا حكمون ، وفوضت اليك أمر جيشي ، يا « وانسوس » ، وقد أظهرت لي أنك الهمام البصير . اما انت ، يا « تكفات » ، فان لك في نساء قصري المرتبة الاولى بعد زينب ابنة عمي وزوجتي !

فسجد بين يديه « وانسوس » و « تكفات » يشكران ويستأذنان في العودة الى الربع . فالقبيلة ترقب رجعة الزعيم . فقال عبد الرحمن بملحاح نبرة : بل تبقيان هنا ، بجانبي . فمن شاطرني البؤس له ان يشاركني في النعمى . أما وكلت الأمر في القبيلة الى اخيك ، يا « وانسوس » ؟... ألا نعم الوكيل !

والتفت الى حكمون اليهودي يقول بأنس النجيّ : ألا حدثنا عن الغيب يا صاحبي ، كيف تجري الأمور في المشرق ، كيف حال بني أمنا في المنبت

Twitter: @ketab_n

الحبيب ؟ .

وقبل ان يفيض اليهودي الشيخ بمكنون علمه أقبل على عبد الرحمن من يبلغه ان رجلاً من الشام هبط الأندلس وفي صدره أخبـــار تسرّ الأمير . فقال عبد الرحمن : علينا به . طال انقطاعنا عن الوطن التليد !

فوقف في حضرته كهلٌ وخطه المشيب الا انه أخو همـة . وقبّل الارض بين يدي الاموي يسلم عليه وينتسب . فهـــو عبد الملك بن عمر المرواني . ومضى في البيان معلناً : اني لمن اعوان بيتكم ، يا ابن معاوية . جدك هشام كان يلقى فينا الأكفياء الأوفياء . ولقد كافحت المغتصبين حتى ضاق بي وسعي وتنكر لي قومي ، فزففت اليك احتمي بمنعاتك الشمّ . فالقوم عندنا يستطلعون انباء مولاي معجبين . فما كانوا يعتقدون ان الطموح يبلغ بفتى كسير الضلع ، بيد انه سبّاق في الحلبة ، هذا المبلغ العزيز . وبمَ أحدثك عمن أبقيت بعدك ؟... شمخ عبد الله بن علي عدوكم الأنكد ، وهـــو يتولى الأمر في دمشق ، على ابن أخيه الخليفـــة أبي جعفر المنصور يروم الاستئثار بالخلافة بعد موت أبي العباس ، فقذفـــه أبو جعفر بابي مسلم الخراساني يطاوله ويضيّق عليه حتى تمكن من حطمه . وفزع عبد الله الى البصرة يعتصم بأخيـــه سليمان وهو واليها ، ولكن المنصور احتال عليه وأسره . وانشأ له صرحاً على ضفاف الماء يقيم فيه ، إلا أن أركان هـذا الصرح شيدت على الملح . فما استقر عبد الله بمعزله حتى أجرى أبو جعفر على الدار الماء يلمّ بأطرافها ، فذاب الملح وانهار الصرح على ابن علي وطارت روحه غير مأسوف عليها !

فصاحت زينب وقد هاجها الطرب : هذه آخرة السفّاحين الطغاة . ربّ ، شكراً وحمداً ، انتقمت لنا من جزّار الامويين !

فقال عبد الرحمن بوقاره النبيل وما نسي ان عبد الله والد ميمونة : زينب ، ليغفر له الله . ان الله غفور رحيم !

فأبان عبد الملك بن عمر المرواني متمادياً في سرد أنبـــاء الوطن النائي : وأبو

Twitter: @ketab_n

جعفر المنصور ، وقد توسد مقام الخلافة بعد أخيه أبي العباس ، بادر الى قهرك ، أيها الأمير ، وحشد الجيوش للقضاء عليك وهو يرى فيك خطراً ينذر بالهلكة . ولكن ما بلغته مآتيك ، فوقف على مغامرتك ونجحك ، حتى ابتلّت لحيته بالدمع وأفاضَ بندم روي : « جاوزنا الحلم في بطشنا بذلك الرعيل الصالح من بني أعمامنا الأمويين . اللهم غفرانك وعفوك ! » . فقيل له : « أترضى عن عبد الرحمن الداخل وقد سلبك الاندلس ؟ » . فأجاب بوحابة واجلال ما عرفناهما فيه : « هذا صقر قريش ، فانه ليعيد الى اذهاننا سيرة بني قومنا الميامين ! » . وهي شهادة بالف وقد جاد به رجل ضنين بالقول الجزاف ، خبير بوزن الرجال وبمقامهم من المكنة والنباهة !

فتأثر عبد الرحمن بما ألقى اليه عبد الملك من نديّ المقال وصاح بمن حوله بصوت رهيف : نادوا من أعلى المنابر باسم أبي جعفر المنصور . فهو هو خليفة المسلمين . فليس في الاسلام خليفتان يتنابذان ويهون بهما الدين . ما أنا فيكم غير أمير ، أرعى شؤونكم واسوسكم بالعدل والنصفة . ربّ ، حنانك وعونك ، بسم الله الرحمن الرحيم !

— تمت —

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

• وُلد كرم ملحم كرم في دير القمر - لبنان سنة ١٩٠٣ وتوفي سنة ١٩٥٩

• ابتدأ في العمل الأدبي، وهو في الخامسة عشرة من عمره

• أنشأ مجلة قصصية أسبوعية، بعنوان ألف ليلة وليلة وأصدر منها ألفاً وعددين، وأنشأ مجلة أخرى سياسية بعنوان «العاصفة»، وكان يديرهما معاً.

• يُعتبر أكثر الأدباء العرب إنتاجاً في عصره، ومن روائعه «صقر قريش»، وقد أبدع فيها أحسن إبداع في مزجه للقصة بالتاريخ بأسلوب فني رائع.

@ketab_n

منشورات دار مكتبة الحياة
HAYAT

الثمن [redacted] ات لبنانية أو ما يعادلها